إيريك إيمانويل شميت

الرجل الذي صلب المسيح

أو الإنجيل برواية بيلاطس



مسكيلياني

رواية

ترجمة: وليد بن أحمد



عنوان الكتاب الأصلي المعتمد في هذه الترجمة

L'évangile selon Pilate

Eric-Emmanuel Schmitt

إيريك إيمانويل شميت

الرجل الذي صلب المسيح

أو الإنجيل برواية بيلاطس

ترجمة: وليد بن أحمد



الكاتب: إيريك إيمانويل شميت

عنوان الكتاب: الرجل الذي صلب المسيح

ترجمة: وليد بن أحمد

مراجعة: رضا الحسيني

خط الغلاف: الفنان سمير قويعة

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

تصميم الغلاف: الشاعر محمد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-24-102-0

الطبعة الأولى: 2020



مسكلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: (+216)21512226 أو (+216)93794788

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

تمهيد

اعترافات محكوم بالإعدام
ليلة اعتقاله

تليجرام

غواص في بحر الكتب



t.me/

سيأتون من أجلي بعد سويعات.

إنهم يتأهّبون.

تعهّد الجنود أسلحتهم. وانتشر الرُّسُل في الأزقّة المظلمة يستدعون طاقم المحكمة. وداعب النجّار ذلك الصليب الذي سأنزف عليه غدًا دون شكّ. تهامست الألسن، فجميع من في أورشليم[1] يعلمون أنّه سيُقبض عليّ.

يظنّون أنهم سيباغتونني، لكنّني في انتظارهم. يبحثون عن متّهم، لكنّهم سيجدون شريكًا في الجرم.

إلهي، لا تأخذتهم بي رأفة! اجعلهم شديدي الحمق والشراسة والسرعة. جنّبني مشقّة إنذارهم عليّ. ليُجهزوا عليّ في سرعة وإتقان!

كيف حدث كلّ هذا؟

---

(1) القدس، تسمية عبريّة للقدس العربيّة، وأصلها أورسالم، ومعناها مدينة السّلام.

كان يمكنني أن أكون في مكان آخر هذا المساء، محتفلًا في إحدى الخانات مع الحجيج، مثل سائر اليهود في عيد الفصح[1]. كان يمكن أن أنطلق إلى الناصرة[2] يوم الأحد منتشيًا بأداء واجبي. في منزل لا أملكه حقًّا، ربّما كنت سأنتظر زوجة ليست لي أيضًا، وأطفالًا مرحين خلف الباب، سعداء بلقاء والدهم. هذا ما انتهى إليه حلمي: في هذا البستان أنتظر الموت بارتياع.

كيف بدأت هذه القصّة؟ أهذا المصير بداية؟

عشت طفولة حالمة. في ربوع الناصرة كنت أحلّق كلّ مساء فوق الهضاب والحقول. عندما ينام الجميع، أجتاز الباب في خفوت، وأشرع ذراعيّ، ثمّ أقفز جيّدًا ويأخذ جسدي في الإقلاع. أذكر جيّدًا مقاومة الهواء أسفل مرفقيّ، ذلك الهواء المتماسك أشدّ صلابة من الماء، مضمّخ بعطر الياسمين النديّ يحملني دون أدنى هبّة ريح. كنت أتكاسل أحيانًا وأجرّ حصيرتي إلى عتبة الباب ثم أحلّق، متمدّدًا فوقها، عبر الحقول المليئة ضبابا كانت الحمير ترفع رؤوسها وأعينها السوداء الجميلة تشاهد مركبتي تمرق وسط النجوم.

ثمّ حدثت لعبة الفأر والقطّ تلك. بعدها، لم يعد شيء كما كان.

---

(1) عيد الفصح اليهودي يحتفل به لمدّة سبعة أيام في منتصف شهر نيسان/ أفريل وهو تذكار لخروج بني إسرائيل من مصر وتحرّرهم من العبوديّة.
(2) هي مدينة في الجليل، في الجزء الشمالي من فلسطين وفيها نشأ المسيح وترعرع وصرف القسم الأكبر من الثلاثين السنة الأولى من حياته.

عند انصرافنا من المدرسة، لم نكن نفكّر بغير الركض. كنت مع «موشي»، و«رام»، و«كاسد» أربعة رفاق لا نفترق. أخذنا نلعب في محجر الجيزة. اجتاحتني رغبة في الانتصار جعلتني أتسلّق تلّة صخرية هائلة. تسلقت حتّى توقّفت عن التنفّس تقريبًا. ارتفعت وارتفعت حتّى الفيئني فوق منبسط يرتفع ستّ عشرة ذراعًا عن سطح الأرض. في الأسفل، بدا رفاقي مثل قبّعات تحيط بها أقدام صغيرة. لم يعثروا عليّ. من فرط ابتعادي، لم يعد بوسعي المشاركة في اللعبة. بعد مضيّ دقائق، أطلقت صيحة كبيرة لأدلّهم على مكاني. أداروا رقابهم نحوي، لمحوني ثمّ صفّقوا صائحين:

– أحسنت يشوع[1]. أحسنت.

لم يدُر بخلد أحدٍ منهم مطلقًا أنّني أستطيع الوصول إلى ذلك الارتفاع. كنت سعيدًا، منتشيًا بانتصاري. صاح «كاسد» بعد ذلك:

– تعالَ معنا الآن. سنمرح أكثر نحن الأربعة.

نهضت لأهبط، فتملّكني الخوف. لم أدرك تمامًا كيف يتسنّى لي أن أعود. أقعيت وتلمّست الصخرة التي تسلّقتها: ملساء. غمرني العرق. ما العمل؟

بغتة وجدت حلًّا. سأطير. تمامًا مثل كلّ ليلة. اقتربت من الحافّة. ذراعاي مفتوحتان، لكنّ الهواء من حولي لم يعد كثيفًا وسلسًا كما في ذاكرتي. لم أشعر بأنّني أحمل، بل على العكس، كان كتفاي

(1) المسيح عيسى بن مريم، ويُعرف أيضًا بيشوع بالعبرية ويسوع في العهد الجديد، هو نبيّ الله والمسيح في الإسلام.

يحملان وحدهما ثقل ذراعي الممدودة، كأنّها من البرونز. في العادة، كان يكفي أن أرفع عقبيّ قليلًا لأقلع، لكنّ قدميّ المتمرّدتين تسمّرتا على الأرض الآن. لماذا صرت ثقيلًا جدًّا فجأة؟

ساورني شكّ كبّل كتفيّ. ألم أطر البتّة؟ هل كان حلمًا، مجرّد حلم؟ اختلط عليّ الأمر.

أفقت فوجدتُني أعتلي ظهر أبي، «يوسف»[1] الذي أسرع «موشي» في استقدامه. لقد غبت عن الوعي. هبط أبي من التلّة الصخريّة هبوط العارف بكلّ مواضع الأقدام الخفيّة.

قبّلني عند السفح. كذلك كان أبي: أيّ شخص غيره كان سيوبّخني، لكنّه قبّلني.

- لقد تعلّمت اليوم شيئًا على الأقلّ.

ابتسمت له، لكنّني لم أدرك تمامًا ما تعلّمته.

أعلم الآن حقيقة الأمر: لقد غادرت السّاعةَ طفولتي. فرزت خيوط المنام من الحقيقة، فأدركت أوّلًا أنّه كان حلمًا حلّقتُ فيه مثل طير كاسر، ثمّ رأيت العالم الحقيقيّ، قاسيًا مثل هذه الصخور التي كنت سأتحطّم فوقها.

أدركت أيضًا أنّني نجوت من الموت. أنا؟ يشوع؟ لا يعنيني الموت في العادة. طبعًا، سبق أن اعترضتني جثث في المطبخ وفي

---

(1) من وجهة نظر الدين الإسلاميّ، ولد عيسى بلا أب، وأمّه هي مريم بنت عمران من آل عمران من بني إسرائيل، أمّا في اليهود فيعتقدون أنّ يشوع من ذرّيّة النبي داود.

باحات الضيعات، لكنّها جثث حيوانات. يبلغني أحيانًا نبأ وفاة عمّة أو خال، لكنّهم كانوا عجائزا أنا لم أكن شيخًا ولن أشيخ، لست دابّة ولا شيخًا. كان لي أن أعيش إلى الأبد. أرى نفسي خالدًا لا يفنى. لا يعرفني الموت من قريب أو من بعيد. لكنّني شعرت اليوم بأنفاسه الرطبة على رقبتي وأنا ألعب على التلّة. خلال أشهر تلت، كنت أفتح عينيّ اللتين أردت بشدّة أن أبقيهما مغمضتين. لم تكن لي قطّ كلّ هذه الكرامات. لم أكن عليمًا بكلّ شيء. لم أكن خالدًا. باختصار: لم أكن إلهًا.

لأنّني أظنّ أنّي تماهيت مع الربّ، مثل كلّ الأطفال، لم أختبر صعوبة الحياة حتّى السابعة من عمري. كنت أراني ملكًا، جبّارًا، عليمًا وخالدًا.. أن تظنّ نفسك إلهًا كان ميلًا طبيعيًّا للأطفال السعداء.

كلّما كبرت صغر شأني. أصبح التقدّم في السن سقطة. لم أدرك حياة البالغين إلّا من خلال الجراح والعنف والأوهام. لقد انتهى الحلم؟ ما هو الإنسان؟ إنّه ببساطة شخص لا يستطيع.. لا يستطيع أن يكون عليمًا بكلّ أمر. لا يستطيع القيام بكلّ شيء. لا يستطيع تفادي الموت. ما إن عرفت حدودي حتّى انتهت طفولتي: في سنّ السابعة لم أعد إلهًا، نهائيًّا.

بقي البستان هادئًا هذا المساء، بسيطًا كليلة ربيعيّة. تغنّت الصراصير بالحبّ. ونام الأتباع. لا يملك الخوف الذي شعرت به أيّ صدًى.

ألم تغادر فرقة الاحتفال أورشليم بعد؟ هل أخذ الجزع من يوذا[1]؟ هيّا يوذا ألا تشي بي! أثبت لهم أنني انتحلت صفة المسيح، وأنني سأنتزع منهم سلطانهم. اتهمني. أثبت كلّ شكوكهم. هيّا يوذا، بسرعة. ليقبضوا عليّ وليعدموني، بسرعة.

كيف حدث الأمر؟

كيف انتهيت إلى هذه الحال؟

الآخرون هم الذين أخبروني بمصيري: كانوا قادرين على قراءة مساري الذي لم أستطع فكّ رموزه. أجل، كان الآخرون يفحصونني كمن يكتشف مرضًا.

- ماذا تنوي عمله مستقبلًا؟

ذات يوم جاء أبي يبحث عنّي في الورشة.

- ماذا ستمتهن مستقبلًا؟

- لا أدري. نجّارًا مثلك!

- ماذا لو صرت حاخاما؟

تطلّعت إليه من غير أن أفهم. حاخام؟ كان راهب قريتنا، الحاخام إسحق، يبدو لي شيخًا مسنًّا، وخرفا بلحيته المتعفّنة التي تبدو أكبر منه دون شكّ. لذا لم أستطع تخيّل نفسي مكانه. ثمّ إنّ

(1) يوذا الإسخريوطي، هو أحد تلاميذ المسيح الإثني عشر. تذكر الأناجيل القانونية أنّ يوذا هو من خان يسوع وسلمه لليهود مقابل ثلاثين قطعة فضّة، وبعد ذلك ندم على فعله وردّ المال إلى اليهود وذهب وقتل نفسه.

المرء لا يصير راهبًا؛ وإنّما يولد كذلك. أنا لم أولد إلّا لأكون يشوع، يشوع ابن يوسف، يشوع الناصري، يعني لست شيئًا ذا بال.

- فكّر بالأمر جيّدًا.

ثمّ تناول أبي المسحج ليصقل لوحًا. أدهشني اقتراحه حتّى إنّ الأيّام في المدرسة التوراتيّة لم تمرّ دون صدامات.

لم يطالب موشي ورام وكاسد بالشرح وحفظوا كلّ ما لُقّنوه، أمّا أنا فكانوا يسمّونني «يشوع صاحب الألف سؤال». كلّ شيء كان يقدح أسئلتي. لماذا لا نعمل يوم السبت؟ لماذا لا نأكل لحم الخنزير؟ لماذا يعاقبنا الربّ بدل أن يغفر لنا؟ لأنّ الأجوبة لم تكن تشفي غليلي، فمعلّمي يتملّل جازمًا «إنّها الشريعة». وعندئذ ألحّ: ما الذي يبرّر الشريعة؟ إلامَ يستند التراث؟ كنت أطالب بإيضاحات عديدة حتّى منعوني أحيانًا من الحديث يومًا كاملًا. طلبتُ معنى كلّ شيء.

- أبي، هل يحسن الحاخام إسحق الظنّ بي؟

- كثيرًا. لقد أتى بنفسه ليحدّثني عنك مساء أمس.

أدهشني هذا الأمر أكثر. ظننت أنّ كثرة أسئلتي المزعجة جعلت الحاخام إسحق يكتشف جهله.

- يرى القدّيس أنّك لن تجد السكينة إلّا في الدين.

أذهلتني هذه الملاحظة أكثر من سابقاتها. السكينة؟ أنا أبحث عن السكينة؟ مهما يكن من أمر، لقد قبلت الجملة. كانت تشغل فكري كلّ يوم. «ماذا لو صرت راهبًا؟».

توفّي والدي بعد ذلك بأيّام. سقط إثر ضربة شمس الظهيرة وهو يسلّم صندوقًا عند طرف القرية. سكت قلبه على حافّة الطريق. انتحبت بشدّة مدّة ثلاثة أشهر طويلة. كفكف إخوتي وأخواتي دموعهم، وكذا فعلت أمّي، لكيلا تزيد من حزننا، لكنّني لم أستطع الانقطاع. كنت أبكي الفقيد طبعًا، أبي صاحب القلب الأرقّ من الخشب الذي كان ينحته، لكنّني تعذّبت أكثر لأنّني لم أقل له كم كنت أحبّه، حتّى إنّي تمنّيت لو أنّه احتضر طويلًا بدل هذا الموت السريع، لأتمكّن على الأقلّ من بثّ حبّي له حتّى لفظ نفسه الأخير.

يوم انتهت تأوّهاتي، لم أكن الشخص نفسه. ما اعترضت أحدًا إلّا بحت له بحبّي. أوّل ضحاياي كان موشي الذي تضرّج غضبًا.

– لماذا تتفوّه بحماقات كهذه؟

– لم أقل شيئًا أخرق. قلت لك إنّي أحبّك.

– لكنّنا لا نقول هذه الأشياء.

– لماذا؟

– هيّا، يشوع لا تكن غبيًّا!

«غبيّ، نزق»، كنت أعود إلى البيت كل مساء محمّلًا بشتائم جديدة. حاولت أمّي أن تشرح لي أنّه يوجد قانون غير مكتوب يلزم الناس بكبت مشاعرهم.

– أيّ قانون؟

- الحياء.

- لكن، يا أمّي، لا يوجد متّسع من الوقت لنعبّر للناس عن مدى حبّنا لهم: سيموتون في أيّ لحظة، أليس كذلك؟

كانت تبكي برقّة كلّما ذكرت لها ذلك، وتداعب خصلاتي لتهدّئ من حدّة أفكاري.

- صغيري بشوع، يجب ألّا نحمل هذا القدر من الحبّ، وإلّا سوف تتألّم كثيرًا.

- لكنّني لا أتألّم. أشعر بخنق.

كلّ يوم يمرّ يشحنني بأسباب أخرى تغذّي غضبي.

حمل إليّ الغضب أسماء إناث، جوديث، راشيل..

جوديث، جارتنا، في الثامنة عشرة من عمرها، عشقت رجلًا شاميًّا. عندما تقدّم لخطبتها رفضه والداها. لن تتزوّج ابنتُها رجلًا لا يعتنق اليهوديّة. سجنا الطفلة المراهقة في البيت. شنقت جوديث نفسها بعد أسبوع.

زُفّت راشيل غصبًا إلى مربّي أغنام ثريّ يكبرها بسنوات. كان ذا بطن عظيم، كثيف الشعر، أحمر البشرة، ضخم الجثّة، وكان يضربها. ضبطها يومًا بين أحضان راعٍ شابّ من سنّها. رجم الزانيةَ كلُّ من في القرية. استغرقت ساعتين لتموت من أثر الحجارة التي رموها بها. ساعتان. أحجار بالمئات انهالت على جلد عمره عشرون سنة. راشيل. ساعتان. هكذا كانت شريعة بني إسرائيل تحمي الزيجات

الغربية. ولكلّ هذه الجرائم اسم واحد: الشريعة[1]. والشريعة لها مصدر واحد: الربّ.

لذلك قرّرت أن أتوقّف عن حبّ الربّ. اتهمته بكلّ الحماقات والسيّئات التي ارتكبها الناس التوّاقون إلى عالم أكثر عدلًا وأوفر حبًّا، وحرّضت الكون، دليل فشله وكسله، ضدّه. وحاكمته ليل نهار. أثار هذا العالم حَنَقي. توقّعتُ أن يكون جيلًا كصفحة مكتوبة، متناسقًا كترنيمة صلاة. كم تمنّيت أن يكون الربّ أكثر حرفيّة، متبهًا، ويتقن التفاصيل مثلما يتقن الكلّ، إله حريص على العدالة والحبّ. لكنّ الربّ أخلف وعده.

- يشوع، أنت لا تطمئنني. ماذا سنفعل بك؟

كان الراهب إسحق يداعب لحيته.

ماذا سيفعلون بي؟ في مواجهة هذا الألم، لم يفارقني الغضب مطلقًا. بين كلّ المشاعر التي انتابتني مطوّلًا، نال الغضب نصيب الأسد. ناهضت الظلم. لم أهادن. رفضت السائد ورمت تصحيح الأوضاع. ماذا سيفعلون بي؟

افتتحت مشغل والدي مجدّدًا. كان عليّ إعالة إخوتي ما دمت الابن البكر. كنت أصقل الألواح وأشدّها بعضها إلى بعض لأصنع صناديق وأبواب وأسقف ومناضد: لم أرتق إلى مرتبة أبي، لكنّني لم أخشَ المنافسة لأنّني كنت النجار الوحيد في القرية.

---

(1) شريعة بني إسرائيل أو التعاليم اليهودية.

صار المشغل، حسب وصف أمّي، معبدًا للبكاء. عند أقلّ عقبة، يزورني أهالي القرية هناك ليقصّوا عليّ مشاكلهم. لا أقدّم لهم أجوبة، لكنّني أنصت وأنصت لساعات. كنت لهم آذانًا. عندما ينتهون، أجد ألفاظًا رقيقة أستوحيها من مواقفهم. فينصرفون شاعرين بالارتياح. كان من شأن ذلك أن يدفعهم إلى التغاضي عن أخشابي المعوجّة.

لم يشكّوا أنّ الحديث إليهم يريحني أيضًا، يبدّد غضبي. فمحاولتي حملَ أهل الناصرة إلى برّ الحبّ والسلام جعلتني أحمل نفسي هناك أيضًا. كانت حاجتي إلى الحياة ومساعدة الآخرين على العيش تطمس غضبي. أدركت أن عليّ إعادة النظر في فكرة الإله.

كان الرومان[1] يجوبون الجليل في ذلك العهد. حينها اكتشفت أنّني يهوديّ. يهوديّ، اضطررت إلى تلقّيها كإهانة قبل إدراك ذلك. لم يتوقّف الرومان بالناصرة أكثر ممّا تتطلّبه راحة للشرب، لكنّهم فعلوا ذلك بغطرسة من يظنّ نفسه أسمى من الآخرين، خلق ليسيطر. تناهى إلينا صدى بطولاتهم من القرى الأخرى، وكذلك عدد قتلانا وعدد الصبايا المغتصبات والبيوت المنهوبة. خضع شعبنا مرارًا للغزوات والسيطرة والوصاية كأنّنا نعيش لنتعرّض للاحتلال. تحتفظ ذاكرة بني إسرائيل بأحزانهم، وأحدّث نفسي في بعض الليالي الحزينة أنّه لولا الشريعة لما كان بنو إسرائيل أكثر من ذاكرة لهذه الأحزان. صرت يهوديًا حقيقيًا بعدما عبر الرومان

---

(1) جاءت الفيالق الرومانية بقيادة بومبيوس سنة 63 قبل الميلاد وأصبحت فلسطين ولاية رومانية.

الناصرة وأذلّوها. عندها شرعت في الانتظار. انتظار المخلّص. ألحق الرومان الذلّ والهوان برجالنا ومعتقداتنا. لم أجد جوابًا للعار الذي أصابني سوى انتظار المسيح.

عجّ الجليل بأعداد كبيرة من منتحلي صفات المسيح. لا تكاد تمرّ ستّة أشهر حتّى يظهر مسيح جديد. كان المسيح يفد في كلّ مرّة قذرًا، هزيلًا، جائعًا. لم نكن نأخذه على محمل الجدّ، لكنّنا ننصت إليه رغم ذلك، «من يعلم؟»، كما كانت أمّي تقول.

– من يعلم ماذا؟

– قد يكون المسيح الحقيقيّ.

كان ينبّئنا في كلّ مرّة بنهاية العالم، بتلك الظلمات التي لن ينجو منها سوى الأخيار، بليلة ستخلّصنا من كلّ الرومان. على الاعتراف بأنّ التوقّف لحظة لسماع الروايات الحماسيّة لهؤلاء المتنوّرين كان أمرًا طيّبًا في خضمّ حياة العمل الدؤوب التي نعيشها. يتفوّهون بضروب من الجنون لا تخطر لنا على بال. شدّ ما كانوا يبثّون في أنفسنا خوفًا دون عواقب، حتّى بات خطابهم عرضنا المفضّل. كان في وسع المتميّزين منهم حملُ العامّة على البكاء.

لم يتأثّروا بنا كثيرًا. كانوا قصّاصين، واليهود يعشقون القصص.

كانت أمّي تنظر إلى قطع أثاثي برقّة:

– لست موهوبًا يا يشوع.

– أحاول إتقان عملي.

- حتّى إذا حاولت.

اعتقدت أنّ قدري كان يحتّم عليّ أن أقوم بعمل أبي، متخلّيًا عن فكرة التحوّل إلى راهب. طبعًا، كنت أقضي ساعات القيلولة الطوال في الصلاة والقراءة، لكن بمفردي، معنًا في النقاشات الباطنيّة. اعتبرني ناصريّون كثيرون شخصًا مخلًّا بفرائضي الدينيّة: يوم السبت[1] أوقد النار، أو أعالج أخًا لي أو أختًا مريضة. كان الراهب إسحق يائسًا من سلوكي ويخفي الأمر عن الآخرين.

- يشوع أتقى ممّا يبدو عليه، اتركوا له متّسعًا من الوقت ليدرك ما أدركتم.

كان يحدّثني بحزم أكبر:

-هل تعلم أنّ رجالًا رُجموا بسبب ما تأتيه؟

- متى ستتزوّج، أضافت أمّي. انظر إلى موشي ورام وكاسد: لكلّ منهم أبناء. لقد جعلني إخوتك الصغار جدّة منذ مدّة. ماذا تنتظر؟

لم أكن أنتظر شيئًا. لم أفكّر بالأمر قطّ.

- هيّا عزيزي يشوع. عجّل بالزواج. عليك أن تبدي بعض الجدّيّة. الآن.

---

(1) يوم السبت هو يوم العبادة عند اليهود، أو هو اليوم الأسبوعي المقدّس، ويوم الراحة من الأعمال والاحتفال الدينيّ للأسرة، وبه يحرّم القيام بكثير من الأعمال.

«الجدّية!» هي أيضًا صدّقت الأمر. رسخ في بال أمي، تمامًا مثل كلّ أهل القرية، أنّني كنت زير نساء! زير الناصرة. لأنّهم كانوا يرونني أقضّي الساعات في التجوال مع هذه أو التحدّث إلى تلك، فخلصوا إلى أنّ لي عشر علاقات.

أعترف أنّني كنت أميل إلى رفقة النساء وأنّهن كنّ يحببن رفقتي، لكنّنا لا نختفي في الأجمات أو المخازن حيث تحتكّ أجسادنا. كنّا نتجاذب أطراف الحديث. تتكلّم النساء بصدق وشفاههنّ ألسنة لقلوبهنّ.

استقبلني موشي ساخرًا:

- لن توهمني بأنّكم لا تأتون شيئًا.

- أجل. نتحدّث حول حيواتنا وذنوبنا.

- نعم، هذا هو. ما حدّث رجل امرأة بخطاياه إلّا أضاف إليها خطيئة أخرى.

ازدادت حيرة أمّي.

- متى تتزوّج؟ لا أظنّ أنّك ستقضي حياتك أعزب. ألا تريد أطفالًا؟

إطلاقًا. في الواقع، لم أحلم بأبناء، لم أشعر بأنّني بلغتُ من النضج ما يجعلني أنجب. كنت أتوهّم أنّني سأظلّ طفلًا. كيف لي أن أمسك بيدي طفل؟ أين سأحمله؟ ماذا أقول له؟ لكنّ ضغط أمّي وأخواتي وإخوتي تواصل: لماذا لا تتزوّج؟

من أجل ذلك كانت ريبيكا. ابتسامة ريبيكا تذيب النسيم وترتسم أمامي فتتركني بلا حراك، تلتهب منها رقبتي ويجفّ منها لساني. لقد أسرتني في ثوان. ما سبب كلّ هذا؟ ضفيرتها السوداء الكثيفة؟ أم بياض بشرتها الرقيقة كقلب؟ هل هما عيناها الهادئتان؟ أم مشيتها التي تغار منها الرقصة؟ أم قوامها الممشوق الذي يلعب لعبة التخفّي تحت فستانها؟ ثمّ ظهر الدليل: كانت ريبيكا أكثر النساء أنوثة، اختصرت وفاقت جميعهنّ. كانت هي أو لا أحد. لم أضطرّ إلى مغازلتها. وشت حالي بي. أظنّ أنّها أحبّتني، هي أيضًا، من أوّل نظرة. أسرع العشق إلى التمكّن منّا.

تفطّنت أسرتانا إلى الأمر بسرعة وشجّعتانا. كانت ريبيكا تعيش في نمين وليس في الناصرة، بين أسرة غنيّة لصانعي دروع. ذرفت أمّي دموع الفرح لمّا ألفتني أخصّص مدّخراتي لأقتني سوارًا من الذهب. أخيرًا تقدّم ابنها بطلب زواج مثل الجميع. ذات مساء، اصطحبت ريبيكا إلى فندق على ضفّة النهر لأطلب يدها. في شرفة تضيئها الشموع وتعطّرها قطرات الندى كانت هناك مناضد تنتظر العشاق. خمّنت ريبيكا الأمر فتألّقت على غير عادتها. أحاطت الحلي بوجهها مثل مصابيح صغيرة جعلت لتنيرها وحدها.

– ساعدونا لوجه الله.

عجوز وابنه في أسمال بالية كانا يمدّان أيديهما القذرة الخشنة استجداء.

– ساعدونا لوجه الله.

زفرت منزعجًا.

- عودا لاحقًا.

ابتعد الشيخ ومعه الطفل.

شرعوا في خدمتنا. أثارت الأسماك واللحوم المختلطة شهيّتي. جلس الشيخ وابنه على حافة النهر يشاهداننا نأكل بشهيّة، بانتظار أيّ إشارة منّا لينضمّا إلينا. أزعجتني نظراتهما حتّى إنّني أشحت بوجهي كي لا أنظر في اتجاههما.

جعل النبيذ ريبيكا ترتخي وتضحك من كلّ كلمة. أنا أيضًا انجذبت إلى دائرة الحبّ هذه حتّى خلت أنّنا كنّا نشكّل معًا مركز الكون، وأنّ الأرض لم تعرف هذه الليلة ثنائيًّا أوفر منّا شبابًا وحيويّة وجمالًا. عندما حانت التحلية، أهديت ريبيكا السوار. أيّهما فتنها، الحلية أم صنيعي؟ انبرت تذرف الدموع.

- أنا سعيدة جدًّا، نطقت بصعوبة.

أصابتني عدوى البكاء. جمعتنا هذه الدموع والتصق جسدانا في رغبة محمومة.

- نسألكم بعض الإحسان، من فضلكم.

عاد العجوز والطفل منهكين، جائعين.

صرخت ريبيكا غاضبةً وتذمّرت لصاحب الخان بأنّها لم تستطع تناول عشاءها في هدوء. في تلك اللحظة، لم أكن أهيم بغير ريبيكا،

بجسد ريبيكا، وبفخذَي ريبيكا. طرد صاحب الخان العجوز وابنَه بضربات منديله. ابتسمت لي ريبيكا. اختفى الشيخ والطفل في ظلمة الجوع.

نظرت إلى أطباقنا وعليها كلّ ما تركناه دون أن نأكله. شاهدت أيضًا الحلية التي أهديتها إلى ريبيكا. تطلّعت إلى سعادتنا ولذت بالصمت.

صار الجوّ فجأة باردًا.

- سأرافقك إلى البيت.

من الغد، فسخت خطوبتنا. ذلك المساء على ضفّة النهر، أدركت، بسبب حماسة الحبّ التي جعلت أحدنا يلتصق بالآخر، أنّ في السعادة شيئًا من الأنانية. تعني السعادة شيئًا من العزلة والسرّيّة والنوافذ المغلقة ونسيان الآخرين؛ تشترط السعادة أن نرفض رؤية العالم كما هو؛ في غضون ليلة واحدة بدت لي السعادة شيئًا لا يطاق.

أردت تفضيل الحبّ على السعادة، ليس ذلك الحبّ الذي كنت أكنّه لريبيكا، ذلك الحبّ الذي يحكمه التملّك والمصالح المتبادلة. لم اعد أرغب في الحبّ على نطاق ضيّق، وإنّما رغبت في حبّ أرحب. سأحتفظ بالحبّ للشيخ والصبيّ الجائعين. سأهبُ الحبّ للناس الأقلّ وسامةً والأقلّ ظرفًا، أولئك العاجزين عن الظفر به بمفردهم، سأهب الحبّ للناس غير المحبوبين. لم أخلق من أجل السعادة، وهكذا فإنّي لم أخلق من أجل النساء. لقد علّمتني ريبيكا

كلّ الأمر رغمًا عنها. بعد مضيّ ستّة أشهر، زفّت ريبيكا إلى مزارع وسيم من نعين وصارت له زوجة محبّة ومخلصة.

- ابني البائس، كيف تملك هذا الذكاء وتأتي كلّ هذه الحماقات؟

قالت أمي. أنا لا أفهمك.

- يا أمّي، لم أخلق لأعيش حياة عاديّة.

- فيم خلقت، يا إلهي، فيم؟

- لا أعلم. ليس مهمًّا. لم يكن الزواج قدري.

- وما هو قدرك؟ لو كان والدك حيًّا على الأقلّ.

لو كان أبي حيًّا هل كان لي أن أوجَد في هذا البستان أنتظر موتي. هل كنت سأجرؤ؟

واصلت الاشتغال بالنجارة وأصبحت حكيمًا بالناصرة يتوافد عليّ الناس، خلسة من الراهب، لاستشارتي حول مصاعب الحياة. كنت أساعد القرويّين على تجاوز محَنهم. ومنها أنّ صديقي موشي، الذي لم يفارقني منذ الطفولة، فقَد ابنه. كان من النادر أن ترى في القرية رجلًا يبكي فقدان ابنه، فالآباء يعلمون أنّ الحياة زائلة ولذلك كانوا حذرين من التعلّق كثيرًا بأطفالهم في سنواتهم الأولى. زارني موشي في المشغل مكدّرًا ينتحب.

- لماذا ابني؟ لم يتجاوز سبع سنوات.

موشي المسكين. كان جفناه مغلقين ليحبس دموعه. ذهبت

مضموم كقبضة، وجمجمته مملوءة دبابيس. كان موشي يتألّم. لم يتقبّل فكرة الموت وكان يحتجّ.

– لماذا ابني؟ لماذا في هذه السنّ؟ لم يذنب قطّ. لم يجد الوقت لذلك. هذا ظلم!

ظلم. هذا ما نزف به عقله. كان يطلب الفهم ولم يدركه.

– لماذا استردّه الربّ؟ هل يوجد إله يهلك الأطفال؟

تحدّثت إلى موشي برقّة:

– لا تطلب المستحيل.

لكي تتحمّل هذا العالم، يجب أن تتخلّى عن فهم ما يتجاوز إدراكك. أبدًا، ليس الموت عقابًا، لأنك لا تدرك ماهيّة الموت. كلّ ما تدركه هو أنّه حرمك ابنك. لكن أين هو الآن؟ ما الذي يشعر به؟ ليس عليك أن تغضب: اصمت. لا تحتجّ. تعلّق بالأمل. لا تعلم ولن تعلم كيف يفكّر الربّ. كن متأكّدًا أنّ الربّ يحبّنا.

– حبّ ظالم.

– ما هو العدل؟ أن تمنح نفس الأشياء للجميع. الربّ يهبُنا جميعًا الحياة، ثمّ الموت بالتساوي. تختلف الأمور بحسب الظروف.

لم يقتنع موشي، لم يشأ أن يؤمن. اضمحلّ إيمانه في مواجهة الألم. كان يعود إلى المشغل كلّ يوم ويبكي ويرغي ويزبد وأحيانًا ينزعج من هدوئي:

- ألا تشعر بشيء؟ لقد بكيت موت والدك رغم ذلك! ماذا دار بخلدك؟

- عندما رحل أبي، قلت لنفسي إنّه لم يعد لديّ وقت أهدره في حبّ الناس. مثلك تمامًا يا موشي. تعذّبت من الألم، لكنّ العذاب ليس مناسبة للكره وإنّما هو فرصة للحبّ.

رفع رأسه نحوي وبدا أنّه ينصت لي أخيرًا. واصلت الحديث:

- مات ابنك البكر؟ لا تتوقّف عن حبّه. أحبَّ الآخرين أيضًا، أولئك الذين تبقّوا لك. أسرَّ لهم بحبّك. بسرعة. ذلك الأمر الوحيد الذي يلقّننا إيّاه الموت: ضرورة أن نحبّ.

توقّف موشي عن النحيب منذ ذلك اليوم. لم تنته حسرته على الفقيد لكنّه حوّل محنته إلى عاطفة تجاه أقاربه. لا شيء يغيّب الأسى، لكنّ الشجاعة تجعله أمرًا نافعًا.

مرّت بضع سنوات. بدا لي أنّني عرفت الاستقرار أخيرًا. عرفت مواعظي تطورًا هائلًا لم يشهده أثاثي وهياكلي الخشبيّة. كنت أهدّئ من روع القرويّين.

ناء الراهب العجوز بثقل السنين فأوفد معبد أورشليم كاهنًا آخر، يدعى ناحوم، ضليعًا في الكتاب المقدّس. في غضون أسابيع، أدرك أنّ صوتًا آخر غير صوته كان مسموعًا في القرية. تناهت إليه أحاديثي، فاقتحم مشغلي حانقًا.

- من أنت حتّى ترى نفسك قادرًا على شرح الكتاب المقدّس!

من أنت حتّى تعظ الآخرين؟ هل تردّد على مدرسة يهوديّة؟ هل طبّقت الشريعة كما فعلنا نحن؟

– لست من يعظهم. إنّه نور يسطع أثناء صلواتي.

– كيف تجرؤ؟ أنت لا تفلح سوى في جمع النشارة وتريد هداية شعب بأكمله؟ لا يحقّ لك أن تتفوّه بما تريد حول الكتب المقدّسة أو تقول ما يحلو لك باسم الربّ! سيحاسب المعبد كلّ مغرور مثلك. لو كنت في أورشليم، لقتلوك رجمًا.

أخافني ناحوم.

أغلقت المشغل لبضعة أيّام واعتزلت في نزهات طويلة.

كان ناحوم على حقّ دون شكّ: صرت مرشد القرية الروحي دون أن أنتبه إلى ذلك، وكنت أصالح من هنا وأقوم بقسمة من هناك، أهدّئ من حدّة الغضب، وأتكلم باسم الربّ. لقد غنمت هذه القدرة على التأثير بسلاسة لم تتركني أدرك كم كانت استثنائية. هكذا كشف لي هذا الكاهن الشابّ أنّني كنت أعظ الناس على غير هدى بسبب الأنفة. سأرجم! لقد تنبّأ ناحوم بالحقيقة. سيقودني تفرّدي ومعارضتي للمعبد إلى الرجم. رغم ذلك، غابت عنه أمور أخرى: أنّني كنت سأتمنّى هذا الموت يومًا وأنّ الرومان سيجلبون عذاب الصليب إلى أورشليم. سأحتضر غدًا دون شكّ مقيّدًا إلى عمود من الخشب أعدّه نجّار من أجل نجّار آخر.

– هل تعلم أنّ قريبك يوحنان صار حديث الجميع؟

حملت نظرات أمّي بريقًا.

- أتهم؟

- ابن قريبتي اليزابيث. تعلم ذلك. يقولون إنّه بارع في الحديث مثل الأنبياء.

ليست لحظة مناسبة يا أمّي. لقد استنفدت كلّ الفضول الذي أوليه لمتحلي النبوّة ولكلّ مسيح مزيّف. كنت أحاول أن أفهم نفسي. لكنّ أمّي ألحّت.

- هل كان ذلك اهتمامًا بالدين أم فخرًا عائليًّا؟

لم توقف أمّي حديثها عن قريبها.

- ينتصب يوحنان على ضفّة نهر الأردن ويغسل ذنوب الناس الذين يفدون إليه ويغمر رؤوسهم تحت الماء. لذلك يدعى يوحنان المغطّس[1].

فتحت مشغلي مجدّدًا، لكنّ القرويّين لم يجرؤوا على المجيء خوفًا من ناحوم. لم يأتوا حتّى للتزوّد بالأخشاب. شيئًا فشيئًا، صار الناس يواعدونني خلسةً للحديث معي كشأنهم الأيّام الخوالي. كنّا نلتقي أواخر اليوم، بعيدًا عن القرية، عند البحيرة حيث ينتابني شعور بأنّ السكينة تلفّنا وأنّني أجد هدوءًا مريحًا يبثّه الربّ في مياه الشفق

---

(1) أو يوحنّا المعمدان وهو من عمّد يسوع المسيح. ولد بحسب الإنجيل من والدين تقيّين هما زكريا الكاهن واليصابات، وهو النبيّ يحيى بن زكريا في الدين الإسلاميّ.

المخمليّة تمامًا مثل الذي نجده في الصلاة، ومثل يدين مضمومتين أسفل السماء المرصّعة نجومًا.

علم ناحوم بالأمر واتبعني صارخًا. لقد أخافني. هل غدوت وحشًا مغرورًا؟ هل من العاديّ أن أزعم الوصول إلى الحقيقة في داخلي وليس في الكتب السماويّة؟ كيف وثقت بذاتي إلى هذا الحدّ؟ كنت أحتاج إلى تطهير نفسي، احتجت إلى مساعدة، إلى مرشد أو حتّى إلى معلّم. كان لزامًا عليّ أن أزور يوحنان وأغتسل من خطاياي.

اتبعت مجرى نهر الأردن الملتوي. كلّما توغّلت اكتظّ الطريق بالمسافرين. فاقت غزارة الآدميّين النهر ضخامةً وتوافد السائرون من كلّ حدب وصوب، من دمشق وبابل وأورشليم وايدوميا. أقيم مخيّم في بيطانيا: بضع خيمات، بعض المواقد وأسر بأكملها، مئات من الرجال والنساء.

انعكس طيف يوحنان المفطّس على صفحة المياه الضحلة وساقاه منفرجتان في ركن من النهر محاطًا بالصخور. على ضفّة النهر، تشكّلت صفوف طويلة من الحجيج في رويّة وهدوء لم يشقّه سوى نداء العصافير التي حلّقت فوق الماء.

كان يوحنان يشبه رسمًا مشوّهًا لنبيّ: شديد الهزال، كثّ اللحية، كثيف الوبر، تغطّيه قطع قذرة من جلد الإبل حلّق حولها وطنّ ذباب جذبته الرائحة النتنة. بقيت عيناه الواسعتان ثابتتين على نحو مزعج. كانت بداوته صارخة. شعرت بهوان وأنا أشاهد محاكاة ساخرة لكلّ ما كنت أتمنّاه وأرجوه، مشهدًا مقنعًا لأسمى توقّعاتي.

تفرّست فلول الحجيج. بشكل مفاجئ، لم يحضر اليهود فحسب، وإنّما حضر الرومان ومرتزقة من الشام، أناس لم يعرفوا التوراة قطّ ويجهلون كلّ شيء عن كتبنا المقدّسة. عمّ يبحثون هنا؟ ما الذي حرمتهم شعائرهم ووعدهم به المغطّس؟

اقتربت من آخر زائرين كانا ينتظران دوريهما على الضفّة.

- حان دوري، قال البدين.

- أمّا أنا فلن أذهب، ردّ النحيف. لا أدري لمَ عليّ أن أتطهّر، فأنا أطبّق شريعتنا بحذافيرها.

- أشقياء. أدعياء وقذرون.

تناهى إلينا صوت يوحنان المغطّس. كان سمعه حادًّا، فمن شبه المستحيل أن يسمعها بشرٌ مثله من هذه المسافة والهواء تشقّه أصوات مياه النهر المتلاطمة.

صرخ يوحنان المغطّس باتجاه الأعجف:

- أيّها الثعبان. أيّها الخنزير القذر. هل تظنّ أنّه يكفيك تعلّقك بالقشور من الشريعة حتّى تكون نقيًّا؟ لا يكفي أن تغسل يديك بعد الأكل وتمارس طقوس السبت لكي تتجنّب الخطايا. عليك بتوبة نصوح لكي تكفّر عن ذنبك.

أثر فيّ خطابه مثل لسعة ذباب الخيل. أليس هذا ما فكّرت فيه بمفردي كلّ هذه السنوات؟ واصل يوحنان المغطّس وقد ارتجّ جسده الهزيل من الغضب، غضب لا ينضب يغذّيه استشمار الإلحاد.

بدا لي واضحًا أنّ يوحنان رجل مستقيم حتّى دون نبوة. فوجئ الحاجّ النحيل بتسبّبه في هذا السيل من الشتائم، ونظر إلى رفيقه منزعجًا لا يدري ما كان عليه القيام به.

– اقترب، صاح يوحنان.

تقدّم الرجل بضع خطوات في الماء.

– عاريًا! عاريًا كما خرجت من بطن أمّك.

أطاعه الرجل دون أن يعرف سببًا لذلك، تخلّص من ثيابه وتقدّم نحو يوحنان الذي أخذ رأسه بيده الكبيرة. تطلّع إلى عيني الأعجف بانتباه من يدقّ مسمارًا.

– اندم على خطاياك. تفاءل خيرًا. اطلب العفو. وإلّا..

ماذا حدث للرجل؟ هل خاف؟ هل استجاب؟ حتّى بدا أنّه تاب توبة نصوحًا، فبعد بضع ثوان، دفعه يوحنان تحت الماء بقوّة وأبقاه طويلًا حتّى تسرّبت منه فقاقيع هواء. أفلته أخيرًا ليرتفع إلى السطح متقطع النفس.

– انطلق. لقد غُفر لك.

عاد الرجل إلى ضفّة النهر مترنّحًا. وما إن وطئ اليابسة حتّى انكمش واضعًا رأسه بين ركبتيه، وراح ينتحب. أسرع رفيقه البدين نحوه يواسيه، لكنّ الهزيل رفع رأسه وغمغم:

– حمدًا للربّ. شكرًا. شكرًا لتجاوزك عن سيّئاتي. كم كنت نجِسًا.

مال الشفق إلى اللون البنفسجي. ابتعد يوحنان المغطّس بطلب الاختباء في كهف كان يقضي فيه لياليه. علمت ذلك المساء، وأنا قرب جذوة نار في المخيّم، أنّ يوحنان لم يكن يشرب غير الماء، ولا يأكل شيئًا تقريبًا. أعجبت بروحه القويّة لأنّني شعرت بعجزي عن حرمان نفسي اللحمَ، الخبز والنبيذ.

- لماذا يضع قدّيس مثله جلد بَعير، تساءل أحد الحجيج. إنّه دابّة نجسة مثل الخنزير والأرنب؟ هذا يخالف الشريعة!

لاحظت أيضًا أنّ أكثر المعجبين بيوحنان لم يبدُ عليهم أثرٌ. فهمهم لرسالته الأساسيّة هو التالي: ليس التقيّد بالشريعة بحذافيرها ما يجعل القلب نقيًّا وإنّما هو التزام الروح وحدها. إثر الغداء، تعرّفت إلى تلميذيه الشابّين أندريه وسيميون. أمضينا جزءًا من الليل نتحدّث عن يوحنان ومنهاجه المخالف للمعبد ممّا جعل وضعه هشًّا. قارنّاه بما كنّا نعلم عن رهبان قمران، أولئك الأسينيون الذين كانوا يغسلون الخطّائين أيضًا.

من الغد، جلست على صخرة عند حافّة النهر حيث تمكّنت من مراقبة يوحنان دون أن يراني. كان يطالب بتطهير الأجانب أوّلًا.

- اقتربوا معشر الرومان. وأنتم أيّها اليهود، أنصتوا واستخلصوا العبر. لا يكفي أن تكون يهوديًّا لتنال الخلاص. لا تكتفوا بترديد «إبراهيم أبونا»، لأنّ الربّ يستطيع أن يأتي بذرّيّة لإبراهيم من كافّة أصقاع الدنيا، وحتّى من الصخر.

تقدّم الجنود الرومان الخمسة.

- كيف يجب أن يكون سلوكنا؟

- لا تظلموا ولا تخطئوا في حقّ أحد. واقنعوا بأجوركم.

ثمّ استقبل جامعي الضرائب.

- لا تزيدوا شيئًا على ما أمرتم به.

ثمّ علية القوم الأثرياء.

- من يملك ثوبين فعليه أن يقاسمهما المعدمين. ومن يجد طعامًا عليه أن يقاسمه أيضًا.

عندما ارتفعت الشمس إلى كبد السماء، قدم وفد من أورشليم. أرسل المعبد لجنة من الكهنة والقساوسة ليتحرّوا في أمر يوحنان.

- من أنت؟

- أدعى يوحنان المغطّس.

- يقولون إنّك النبي الياهو قد بعثت إلى الحياة.

- هذا ما يقولونه، وما لم أدّعه قطّ.

- يشيع آخرون أنّك المسيح الذي أشارت إليه التوراة.

- لست المسيح، وإنّما أنا من يبشّر به. أنا الصوت الذي يصيح في الفلاة «مهّدوا الطريق للربّ».

- لا تزعم أنّك المسيح إذن؟

- لست أهلا حتّى لفكّ نعاله. عند مجيئه سيعمّ الحق ويعمّ

المظلومون. سيحرق المذنبين مثلما يحرق التبن بعد تنقية الحبّ الطيّب.

- لست المسيح ولست الياهو، فلماذا تغمر الأجساد تحت الماء؟ من منحك حقّ غسل خطاياهم؟

- أمهّد الطريق للمسيح. إنّه آتٍ. سينتصب المنتظر بين ظهرانيكم وسأختفي ليلتها.

نظر الناس إلى بعضهم على الضفّة. تساءلوا هل كان حديث يوحنان استعارة قابلة للتأويل أو إعلانًا عن وجود المسيح حقًّا على ضفّة نهر الأردن.

- لست سوى كشّاف يوطّئ الطريق للملك بتمهيد طريق التوبة. لكنّه آتٍ. قريبًا يأتي ابن الرب الذي بشّر به النبيّ دانيال.

اقتنع الجمع بفكرة الاستعارة. أمّا أنا فقد شعرت بتوتّر خفيف: اعتقدت لوهلة أنّ يوحنان المغطّس كان يرمقني رغم المسافة الفاصلة بيننا.

رحلت اللجنة إلى أورشليم مطمئنّة. في نهاية المطاف، لم يكن يوحنان سوى متوهّم لا خطر فيه. مادام في مستنقعه يغمر الحجيج في البركة فهو لا ينازع أحدًا على السلطة.

مرّت القيمة وتقدّمت عبر الماء ليطهّرني يوحنان. عندما لمحني أخطو نحوه، زوى ما بين حاجبيه.

- أنت، لقد عرفتك.

- أنا قريبك، ابن مريم، قريبة أمّك اليزابات.

عبس، كأنّه لم يفهم قولي. كرّرت ببطء.

- لقد عرفتني لأنّني قريبك من الناصرة.

- عرفتك لأنّ الربّ اصطفاك.

بدا أنّ قوله فاجأه هو أيضًا. كان يتأمّلني كأنّني شيء غريب. بغتة، شرع يصيح لكي يسمعه كلّ الحاضرين:

- هذا الحمل الوديع الذي ارسله الرب لينزع الخطيئة من الكون.

لقد صرخ بقوة أصمّتني. شعرت أنّ الناس على الضفّة تسمّروا في أماكنهم لتأمّل المشهد. حطّت نظراتهم عليّ. لم أعد أدري ما عليّ قوله أو القيام به. غمغمت بسرعة:

- اغمرني في الماء بسرعة. لننهي الأمر.

لكنّ يوحنان صرخ في حنق:

- أنا من يحتاج إلى أن تطهّرني. أنا من يتوسّل إليك وأنت تأتي إليّ! أنا أحبّك.

فاق الأمر احتمالي. ارتعشت ساقاي. فقدت توازني وأغمي عليّ. احتملني يوحنان بين ذراعيه حتّى الضفّة. هناك، اعتنى بي أندريه وسيميون ذائدين عنّي الحشود التي أرادت رؤية ملامحي.

روت النسوة أنّ حمامة هبطت من السماء لحظة إغمائي وحطّت على جبيني. أنا بطبيعة الحال لم أشهد شيئًا. في الواقع، بدا كلّ شيء هناك.

ليلة جميلة سماؤها صافية. هدوء ملحّ.

جعلني هذا الانتظار أشعر بالفراغ. كنت أفضّل الحديث أو الصراع أو الحركة. بدل ذلك، كنت أمدّ رقبتي وأرهف سمعي نحو أيّ ضجيج، منصتًا لصليل السلاح. لم أكن أستعجل الموت، لكنّ صبري نفد. الموت ولا العذاب. لماذا تأخّر الجنود؟ لا يستغرق الطريق من المعبد إلى جبل الزيتون طويلًا. تملك الثعالب جحورًا والطيور أعشاشًا، أمّا أنا فلا مكان لي أريح عليه رأسي.

أرهقني أندريه وسيميون أسئلة إثر إغمائي. من أنا؟ ماذا اقترفت؟ لماذا دعاني يوحنان بالمختار؟

- لم أفهم ما عناه يوحنان. لست سوى نجّار فاشل ومؤمن ضعيف من الناصرة.

- هل ولدت بالناصرة؟

- لا. في الواقع، ولدت في بيت لحم، لكنّ الحكاية طويلة.

- ذلك مكتوب. ذكر ميشي أنّ «المختار يخرج من بيت لحم».

- أنتم مخطئون.

- هل أنت من نسل داود؟

- لا

- هل أنت واثق؟

- يعني... توجد أسطورة قديمة تناقلها العائلة تقول إنّ...

لكن جدّيّ! هل تعرف أسرة يهودية واحدة من فلسطين لا تزعم أنها من نسل داود؟

- هو أنت إذن: المختار من صلب داود.

- اختلط عليكم الأمر

- ماذا ستعلّمنا؟

- لا شيء. لا شيء على الإطلاق.

- هل تحسبنا غير جديرين بذلك؟

- لم أقل هذا!

- هل يمكننا اتّباعك؟ أن نسخّر لك حياتنا؟

- لا سبيل إلى ذلك!

لم يبق لي غير الرحيل. كان عليّ الفرار من الثرثرة والخزعبلات. مدّة ثلاثين عامًا، أدلى الجميع، سواي، برأيهم حول مصيري. سحقت تحت وابل نصائحهم، صنّفني بعضهم تقيًّا وحسبني الآخرون آثمًا. تجاهلوني واعترفوا بي، استعجلوني واحتجزوني، عبدوني وشتموني، سخروا منّي وقدّسوني، أنصتوا إليّ وبغضوني واستجوبوني، لم أعد إنسانًا وإنّما بيتًا فارغًا كلّ ملأه أثاثًا بحسب عقيدته. لم أعد أردّد غير صدى الآخرين.

لذت بالفرار. توغّلت في مجاهل الأرض حيث لا يوجد بشر، حيث النباتات برّية والماء نادر، هناك حيث لا فرصة للقاء أحد. في الفلاة، لم أتمنّ لقاء أحد سواي. رجوت أن أكتشف نفسي من خلال عزلتي. سأعلم حتمًا لو كنت فعلا شخصا أو شيء مميّزا. في البداية، لم أتوصّل إلى شيء. اعترتني مشاعر لا تمتّ لذاتي بصلة، الانزعاج والتعب والجوع والخوف من المستقبل.. بعد مضيّ أيّام، تلاشت قذارة الأسابيع الأخيرة وعدت ابن الناصرة من جديد. ذلك الأمل النقيّ في الحياة، ذلك العشق لكلّ لحظة، ذلك التيه بكلّ الوجود. شعرت بتحسّن، لكنّ إحساسي بالخيبة تواصل. أهكذا لا يحقّق الإنسان وجوده تمامًا؟ هل سنجد طفلًا إذا ما جرّدنا الرجل من ثيابه؟ لا تزيدنا السنون إذن غير الشعر واللحية والمشاكل والخلافات والإغراءات وندب الجروح والتعب والشهوة، لا شيء غير ذلك؟

هكذا كانت سقطتي، سقطتي التي دفعت بحياتي ودفعتني أيضًا. كانت سقطة ثابتة. كنت جالسًا أعلى نتوء صخري أملس. لم يحط بي شيء سوى الفضاء. لم يحدث شيء أشعر به سوى مرور الزمن. راودني ملل ممزوج بالسكينة. كنت أمسك ركبتيّ بكفيّ. بغتة، دون أن أبدي أيّ حركة، شرعت أهوي..

هويت..

هويت..

هويت..

تدحرجت في داخلي. كيف كان عليّ أن أشكّ في وجود جرف مثل هذا، جرف شاهق داخل جسد إنسان؟ كنت أعبر الفراغ! ثمّ راودني شعور بأنّني أخفّف من سرعتي، وشعرت بقوامي يتغيّر وبوزني يخفّ، وفقدت كثافتي أمام الهواء. لقد صرت الهواء.

جعلتني السقطة خفيفًا. صرت أحلّق.

ثمّ التحول رويدًا رويدًا. كنت نفسي ولم أكن نفسي. كان لي جسد ولم يعد لي جسد بعد ذلك. واصلت التفكير، لكنّني لم أعد أقول «أنا».

انتهيت إلى بحر من الضياء.

هناك، شعرت بالحرّ.

عندئذ أدركت كلّ شيء.

عندئذ شعرت بثقة تامّة.

انتهيت إلى أتون الحياة، في العمق تمامًا حيث يُصهَر كلّ شيء، ثمّ يكوَّن ويُبنى. لم أعثر على نفسي بداخلي، وإنّما عثرت على ما هو أكثر من ذاتي، بحر من الجسم المصهورة، لامتناهٍ، متحرّك ومتغيّر حيث لا أثر لأيّ كلمة أو صوت أو خطاب، وحيث راودني شعور جديد، مذهل، هائل، فريد، لا ينضب: ذلك الشعور بأن لكلّ شيء مبرّرًا.

انتفضت من أثر صوت خشن وخفيّ في آنٍ لسحلية تسلّلت بين الأجمات. في لحظة ارتفعت من مركز الأرض. كم ساعةً مرّت؟

انقضت الليلة في سكينة تشبه استراحة منحت للرمل المحروق والأعشاب الجافّة كأنّها مكافأة يوميّة. كنت على ما يرام. لم أشعر بالعطش ولا بالجوع. لم يعترني عذاب التوتّر. كنت أشعر بالاكتفاء.

لم أكتشف نفسي في أعماق هذه الصحراء. لا. لقد اكتشفت الربّ.

منذ ذلك اليوم، أعدت الرحلة الثابتة يوميًّا. كنت أتسلّق التلّة وأسبر أغوار ذاتي. كنت أروم التحقّق من السرّ. ألتحق بالنور الذي لا يحتمل، وأرتمي في أحضانه حيث أقضي زمنًا لا يقدّر. علمت أنّ هذا الصفاء الذي لمحته في طرفة عين، أحيانًا لحظة الصلاة في طفولتي، سيمنح العالم دفئًا، لكنّني لم أتصوّر أنّه كان متاحًا. كان في داخلي أمر آخر. في داخلي كائن ليس أنا، لكنّه ليس غريبًا عنّي. في داخلي باطن يتجاوز إدراكي، لكنّه يشكّلني، رحابة غامضة تجعل كلّ شيء قابلًا للإدراك، وحدة أنحدر منها، أب أنا نجله.

بعد مضيّ تسعة وثلاثين يومًا في الصحراء، قرّرت العودة بين البشر مسرورًا باكتشافي أكثر ممّا كنت أرجوه. لكنّني رأيت ثعبانًا نافقًا، ممدّدًا على الأرض لحظة وصولي إلى مجرى نهر الأردن الظليل المنعش. كان يتعفّن وفمه مفغور يجذب أعمدة من النمل، لكنّ العيون الصفراء لجثّته لم تزل تبدو ساخرة. خامرتني فكرة: ماذا لو أنّني تعرّضت إلى إغواء الشيطان؟ وماذا لو أنّني استسلمت لوسوسة إبليس طيلة الأيّام التسعة والثلاثين الماضية؟ وماذا لو أنّ هذه القوّة التي أسندتني لم تكن سوى ضرب من الشرّ؟

كان عليّ قضاء الليلة الأربعين في الصحراء.

ليلة قوّضت كلّ شيء. كلّ شيء بدا لي واضحًا من قبل صار مظلمًا. لمست الشر في كلّ ما اعتبرته خيرًا. كلّما ارتأيت القيام بواجب، تمسّل إليّ التوجّس من الغرور والكِبر. كيف اعتقدتُ أنّني على علاقة بالربّ؟ ألم يكن ذلك رِجْسًا؟ كيف سأميز الحق من الباطل؟ ألم يكن كلّ هذا وهمًا؟ كيف سأتحدّث باسم الربّ؟ ألم يكن كلّ هذا ادعاءً؟

لم أتلقّ البتّة جوابًا لأسئلتي. صباح اليوم الأربعين، قبلت الرهان ببساطة. راهنت على أنّ سقطاتي وتأمّلاتي العميقة حملتني إلى الربّ وليس إلى إبليس. راهنت بظنّي على أنّ لديّ عملًا صالحًا أقوم به. راهنت على أن أثق بنفسي.

لم أكن أعلم لحظتها أنّ صيرورة الأحداث ستضطرّني إلى رهان خطير وأخرق، رهان سيضطرّني الليلة، في هذا البستان، إلى انتظار حتفي.

التحقت بالحجيج على ضفاف نهر الأردن معتقدًا أنّه كان مباحًا لي التحدّث باسم الحكمة التي وجدتها في أعماق صلواتي. كان أندريه وسيمون ينتظرانني في المخيم. عندما ظهرت لهما، صرخ سيمون مبتسمًا كأنّه يختبرني:

- من تكون؟

- وما الذي تراه؟

– هل أنت رسول الربّ؟

– أنت من يقول هذا.

كان هذا كافيًا لنا. ارتمينا في أحضان بعضنا، ثمّ أعاد يوحنان المغطّس تعميدي. وتوسّل إلى أندريه وسيمون، تابعَيه المقرّبَين، أن يتركاه من أجل مرافقتي.

كانت الفترة التي تلت هي الأشدّ سعادة وإثارة في حياتي. اكتشفت في نشوة كلّ الأسرار التي وضعها الربّ في أعماق تأمّلاتي محاولًا التنقيب عنها يومًا بعد يوم. أخذتني البهجة بتطويعهم، ولم أشكّ بعد في العواقب.

جُبنا أندريه وسيمون وأنا كلّ منطقة الجليل النضرة، المنعشة والمملوءة ثمارًا. كنّا نعيش غير آبهين بالغد، ننام تحت قبّة السماء ونأكل ما تطاله أيادينا على الأشجار أو ما يجود به الناس. في ظلّ الربّ اكتشفنا اللامبالاة. عندما تطرح علينا مسألة، كنت أبتعد وأختفي خلف شجرة تين أو صخرة مّا وأهبط إلى أعماقي. كنت أعود دومًا بالجواب أو على الأقلّ بشعور سيلهمني الجواب. قلبت كلّ أوراق اللعبة. كان الرجال يلعبون بشكلّ سيّئ. كانوا يظنّون أنّهم منتصرون فيطرحون الأوراق الخاطئة. القوّة. السلطة. المال. أمّا أنا فلم أحبّ سوى من بقي خارج هذه اللعبة الغبيّة، المهمّشون الذين لفظتهم اللعبة، الفقراء، المدمنون والبائسون والنساء والمضطهدون. صار المعدمون إخوتي وقدوتي. لم يحاولوا التوقّي من الحاجة لأنّ ذلك يعني أن يتخفّوا من أنفسهم. كانوا

يحبّون الحياة، حتّى إنّهم وثقوا بها، مؤمنين بأنّ شخصًا ما سيمرّ بهم ويمدّهم بقطعة نقديّة أو رغيف خبز. إنّ تلك الثقة عبادة. صرنا أندريه وسيمبون وأنا متمسّكين نعيش على الصدقات ونوزّع ما زاد عن حاجتنا. كنّا نظنّ أنّنا لا نحتاج إلى أكثر ممّا يكفينا. كلّ ما زاد عن ذلك تبذير. لا حقّ لنا فيه. اتسمت أعمالنا بكثير من البهجة حتّى اجتذبت العديد من الشبّان وكبرت مجموعتنا شيئًا فشيئًا.

أثار حديثي إلى النساء استياء كثيرين، لكنّني رجوت أن يتبعننا. لأنّني أدركت أثناء تأمّلي في أعماق الحبّ أنّ الفضائل التي منحني إيّاها الربّ لم تكن سوى مجموعة فضائل نسويّة. كان أبي يحدّثني كأنّه أمّي. كان يضرب لي مثلًا تلك البطلات المجهولات، مانحات الحبّ وصانعات الحياة اللواتي يغسلن جلود الأطفال، يهدّئن صرخاتهم ويملأن أفواههم، تلك الخادمات الضاربات في القدم اللواتي تمنح أياديهن الراحة والنظافة والمتعة، تلك المتواضعات المحاربات يوميًّا، ملكات الرعاية، أميرات الحنان، اللواتي يضمّدن جراحنا وآلامنا. لكنّ أتباعي، فحول بني إسرائيل، لم يقبلوا نجاح النساء في التعامل بعفويّة مع ما كانوا يشقون من أجله بأنفسهم، بينما تحمّلوا لقائي أولئك النسوة، واصلوا ارتيابهم منهنّ، وكان ذلك دون شكّ تخوّفًا من رغبتهنّ.

كنت أراقب الأقوياء الذين لا يتسارى الرجال في أعينهم، واكتشفت أنّهم يحملون موهبة لا أملكها: دعس الوجوه. على سبيل المثال، عندما يضايق جابي الضرائب أسرة فقيرة فإنّه يتغاضى عن

عذابهم ويرفضهم كما يرفض اللحم. لقد حرمت هذه الموهبة. في مواجهة شخص مّا كنت دومًا أرى إنسانًا. لا أستطيع التطلّع إليه دون أن أتبيّن وزن حياته، ما أمرّ وما أعلن من آلامه، آماله، كلّ ما ينشّط ملامحه ويحرّكها. كنت غالبًا أرى فيه أكثر من إنسان. أتصوّر طفلًا سابقًا وأرى شيخًا مستقبلًا ووجودًا مهتزًّا وهشًّا.

لا شيء على الإطلاق يقارن بها في الأشهر الأولى من براءة مرحة. لقد استصلحنا زرعنا واخترعنا طريقة جديدة للعيش. تخلّصنا من حذرنا. كنّا نستطيع الأخذ والعطاء فحسب. صرنا أحرارًا. انطلقنا من عقالنا. في عيون الأقوياء، كنّا ضعافًا يجدر بهم تركنا لحالنا لأنّه لا وزن لنا. كانوا مخطئين: باتحادنا، كنّا سنغيّر وجه العالم. مضينا نجوب الطرقات نراكم غنائم لا يشتريها مال حتّى انتهت خطواتنا إلى الناصرة. التقيت أمّي بفرحة غامرة لكنّي رفضت المبيت عندها وواصلت العيش في الهواء الطلق بين رفاقي. دعاني إخوتي إلى البيت، وهناك وجدت أخي الأصغر يعقوب غاضبًا.

– يسوع، أنت تلطّخ عرضنا! غادرت ورشة أبينا لتصبح كاهنًا دون أن تخبر أحدا، وذلك أمر هيّن. لكنّك تنام في الشارع وتستجدي الناس في قريتك، حيث يعرفنا الجميع وحيث نقوم بكلّ أعمالنا. ماذا يقول الناس عنّا؟ انته فورًا!

– لن أغيّر شيئًا من حياتي.

– إذا كنت عاجزًا عن العمل، يمكنك على الأقلّ أن تنام وتأكل في البيت، أليس كذلك؟

- ورفاقي؟

- هذا بيت القصيد. لنتحدّث عن رفاقك. فرقة من الآفاقة والكسالى دون فائدة، وبنات فاجرات. لم يشهد أحدنا مثيلًا لهذا هنا. من الأفضل أن يرحلوا.

- سأرحل معهم إذن.

- هل تريد أن تمعن في هوانتا أكثر؟

انطلقت الضربة. صفعني أخي وقد بدا متفاجئًا من عنفه وعلى وجه رجل مرهق لمحت حيرة طفل يتساءل عمّا ستكون ردّة فعل أخيه الأكبر.

اقتربت منه وقلت له في رقّة:

- اصفع خدّي الأيسر أيضًا.

ارتعش منخراه غضبًا وتهيّجًا واستعدّ ليصفعني عندما مددت له خدّي الأيسر فعلًا مبديًا له رضائي عن سخطه. أطلق صيحة غضب وضمّ قبضته ثمّ غادر الغرفة. شرع إخوتي الباقون في شتمي، كأنّني أتيت أمرًا أشنع من صفعة أخي وأنا أمدّ له خدّي الأيسر.

كنت قد طبّقت تعليمة أخرى مستقاة من رحلاتي إلى أعماقي التي لا قرار لها: أحبّ الآخر حتّى تصل إلى القبول به رغم حماقاته. أمّا الردّ على العنف بالعنف، والسنّ بالسنّ والعين بالعين فلن ينتج سوى مزيد من الشرّ، والأسوأ من ذلك أن يصير هذا الشرّ مشروعًا. أن تردّ على العدوان بالحبّ هو أن تجرّم العنف وتضع نصب عينيه

مرآة تعكس وجهه البغيض، المضطرب، القبيح والمرفوض. لكنّ أخي لاذ بالفرار.

- اخرسوا جميعكم. ذروني وحدي مع يشوع.

أطاعوا أمّي وتركوني معها. ارتمت في حضني وبكت طويلًا. ضممتها برقّة وأنا أعلم أنّ الدموع تعلن في الغالب عن ظهور أوّل كلمات الحقيقة.

- يشوع، عزيزي يشوع. استمعت إليك هذه الأيّام وأصابتني حيرة شديدة. أنا لا أفهمك. أخذت تتحدّث عن والدك وتذكره دون توقّف رغم أنّك لم تعرفه إلّا قليلًا.

- إنّ الأب الذي أقصده هو الربّ يا أمّي. أستشيره في أعماقي كلّما خلوت إلى نفسي لأفكّر.

- لكن لماذا تقول «أبي»؟

- لأنّه أبي وأبوك وأبونا جميعًا.

- تتحدّث في المطلق دومًا. تقول إنّه علينا محبّة الجميع. لكن أنت، ألا تحبّ أمّك فحسب؟

- أمر هيّن أن تحبّ الناس الذين يحبّونك أصلًا.

- أجب.

- أجل. أحبّك يا أمّي. وإخوتي وأخواتي أيضًا. لكن هذا غير كافٍ. علينا محبّة من لا يحبّوننا أيضًا، حتّى أعدائنا.

- تنفّس بعمق إذن. لأنّ الأعداء بانتظارك!. هل تعلم وجهتك؟ هل تعلم ما يخبّئه لك القدر؟

- لا تهمّني حياتي. لا أريد أن أحيا من أجلي أو أموت من أجل.

- ماذا! أليست لديك أحلام؟

- إطلاقًا. أريد أن أدلي بشهادتي فحسب، أن أعلم الآخرين بما تجيش به أعماق تأمّلاتي.

- الآخرون! الآخرون! فكّر بنفسك أوّلا. أنت تخيّب ظنّ أمّك. أريدك أن تنجح في حياتك.

- أمّي، لست أنا من يقبع في أعماقي.

أخذت تبكي مجدّدًا، لكنّ دموعها كانت مختلفة. إنّها دموع الرضا هذه المرّة.

- لقد صرت مجنونًا يشرع.

- عليّ الاختيار اليوم بين مسيرة مجنون ومسيرة نجّار فاشل. أختار المجنون حتمًا.

اختلطت ضحكاتها بنحيبها. شعرت بهشاشة إزاء حزن أمّي. غادرت الناصرة على عجل.

بدأت المتاعب فورَ ظهور أولى معجزاتي.

لم أكن أعلم كيف سيذكرني المستقبل، لكنّني لم أرد لتلك الشائعة التي تفيد أنّني صانع معجزات وتحاصرني منذ مدّة أن تنتشر بين

الناس. طيلة المرّات الأولى، قمت بهذه المعجزات دون وعي منّي. يمكن لنظرة مّا أو كلمة أن تشفي. كان ذلك معلومًا عند الجميع ولست أوّل من عالج الناس على أرض فلسطين. على المرء أن يتروّى، يشحن طاقته ويسخّر نفسه بالكامل لخدمة المعذّبين ويمتصّ آلامهم لو اقتضى الأمر. كان عليّ تخفيف الألم. قضّيت ليالي قرب المرضى، جالست المعوقين وحاولت أن أمرّر لهم بيديّ تلك القوّة التي تمور في أعماقي. تحدّثت إليهم، بحثت عن حلول لعذاباتهم، دعوتهم إلى الصلاة واكتشاف أعماق الحبّ في دواخلهم. كلّ من تجح تحسّنت حاله، أمّا الآخرون فلا. رأيت المُقعد ينهض على قدميه، والأعمى يفتح عينيه، والأعرج يمشي، والأبرص معافًى، والنساء يكففن عن النزيف، والأصمّ يشارك في الحديث والمجذوب يتخلّص من عفاريته.

لكنّ سمعتي لم تشمل غير هؤلاء، وتناست أولئك الذين لم يبرحوا سقمهم فلا أنا ولا غيري استطاع لهم شيئًا. ليس لي أيّ سلطان سوى قدرتي على فتح الباب الذي يؤدّي إلى الربّ في أعماق كل منّا. حتّى هذا الباب لا أعبره بمفردي وأحتاج إلى من يرافقني، كنت أسأل كلّ سقيم:

– هل أنت مؤمن؟ الإيمان وحده هو المنقذ.

سرعان ما تعوّد الناس سؤالي ورأوه تكرارًا. كانوا يهرعون إليّ كما يهرع البقر إلى الحوض.

– هل تداوي أمراض الجلد؟

- وتنبت الشعر؟

- وتخفف آلام الدورة الشهرية؟

كانوا يسألونني كما يُسأل التاجر: هل تملك هذه البضاعة في دكانك؟

كنت أجيبهم:

- هل أنت مؤمن؟ الإيمان وحده هو المنقذ.

دون جدوى. جعلوني ساحرًا.

لم نعد نسمع أنّ كراماتي لم تكن مجّانية وأنّها روحانية وتتطلّب إيمانًا مضاعفًا يستوي فيه المريض والمعالج. صاروا يرسلون إليّ الحاملين والجاحدين، وإذا لم أنجح مع تسعة منهم فإنّ حالة شفاء واحدة كانت تزيد من شهرتي بصفة لا تصدّق. لم أعد أرغب في مداواتهم. منعت أتباعي من استقبال أيّ مريض. كيف السبيل إلى الصمود أمام العذاب الحقيقيّ؟ عندما ينتحب طفل هزيل أو امرأة عاقر في حضرتي، كنت أحاول شفاءهما على الأقلّ.

تعدّدت المتاعب. خرجت الأمور عن سيطرتي. نسبوا إليّ معجزات عديدة. زعموا أنّني أملأ السّلال الخاوية أرغفةً والجرارَ الفارغةَ خمرًا، والشباكَ سمكًا. رأيت بأمّ عيني كلّ ما حصل. كان لكلّ شيء تفسير منطقيّ.

شككت في أتباعي مرّات عديدة. ألم يرتّبوا بأنفسهم مشاهد تلك المعجزات؟ ألم يملؤوا تلك القوارير؟ ألم ينسبوا إليّ قدوم

صناديق السمك من بحيرة طبرية؟ لم أكن أملك الدليل فكيف أؤاخذهم؟ لم يكونوا سوى بشر متحمّسين مفعمين بمحبّتي. كانوا يدفعون خصومنا ويداورون عن أسرهم، وقد حملهم الهوى على إقناع الناس. قد يلتقي الخداع وقوّة الإيمان من أجل الإقناع. كانوا واثقين من صدقي حتّى تورّطوا في أكاذيب بسيطة: لم لا نستعمل حججًا خاطئة مادامت الحجج الصائبة لا تؤتي أكلها؟ لا يهمّ إن كانت هذه الكرامة حقيقيّة أم لا. إنّ المذنبين هم السذج الذين يرضون خداعهم.

تغيرت حياتنا. إذا نجونا من ملاحقة البؤساء الباحثين عن المعجزات فإنّنا نُضطهد من قبل شديدي الورع والكهنة وفقهاء الشريعة الذين رأوا أنّني صرت أعدّ آذانًا كثيرة لتنصت إليّ. لم يستسغ رجال الدين طريقتي في سبر أغواري ولقائي الربّ هناك لأعود كلّ مرة بحبّ لا ينضب. كانوا لا يحيدون عن الشريعة المكتوبة، وقد لاحظوا انقطاعي عن احترام العبادات المألوفة: كنت أعالج يوم السبت، وأتناول الطعام يوم السبت، وأشتغل يوم السبت. ما المشكلة؟ جُعل السبت من أجل الإنسان وليس العكس. حاولت التفسير مرارًا. لكنّ النتيجة كانت: بينما كنت أحدّثهم عن الحبّ، صار أعدائي بالآلاف.

– كيف تجرؤ على الكلام باسم الربّ؟

كلّ فكرة جديدة هي فكرة سيّئة أوّلًا. رفض الورعون تفهّمي واتهموني بالادعاء.

- لكن كيف تجرؤ على الكلام باسم الربّ؟

- لأنّ الربّ بداخلي.

- هذا كفر! يوجد الربّ بذاته. لا أحد يدرك الربّ. بينك وبينه فجوة كبرى.

- خطأ، أؤكّد لكم. يكفيني الولوج إلى نفسي، مثل بئر، و.

- كفر!

راقبوني وضايقوني وسلّطوا عليّ فرقة كاملة لترجمني إلى الجادّة فأتّبع التوراة بحذافيرها. لم أكن أروم مواجهتهم أو صدمهم، لكنّني عجزت عن إلجام حقيقتي.

عند سفري إلى أورشليم بمناسبة عيد الفصح، نصبوا لي كمينًا.

- عاهرة! فاجرة!

جلبوا امرأة زانية وجرّوها من ذراعيها نصف عارية غير آبهين بخوفها ودموعها وخزيها، مثلما يجلب سنّان للمصارع كي يرفعه. وقعت في الفخّ. كانت شريعة بني إسرائيل تقضي برجم الزوجة الخائنة. ضبط الأتقياء وفقهاء الشريعة المرأة متلبّسة بجرمها، ودعوا الرجل يلوذ بالفرار، ثمّ أتوا ليقتلوها رجمًا بالحجارة أمام عينيّ. كانوا يعلمون أنّني لن أقبل بذلك، فهم لم يهتمّوا بجرم الزنا المشهود وإنّما كان همّهم الوحيد إثبات جرم الكفر عليّ. كانت الضحيّة جميلة، شعثاء الشعر، وقفت بيننا ترتجف وقد قتلها الخوف. أقعيت وشرعت أخطّ دوائر على الرمل. سبّب عملي

الغريب هذا بلبلة في صفوفهم ومنحني مهلة للتفكير. ثمّ شرعت الحشود في الصياح:

- سنقتلها! سنرجمها! هل تسمعنا أيّها الناصريّ؟ سنقضي عليها أمام ناظريك!

مشهد عجيب. كانوا يهدّدونني أنا وليس هي. يهدّدونني بموتها.

واصلت خربشاتي على الرمل. فليريقوا كراهيّتهم. ليتخلّصوا منها حتّى إذا بقي لهم قليلها حاربوه. في اللحظة التي اعتقدوا أنّني لن أتدخّل، رفعت رأسي وقلت في هدوء:

- فليرم بحجر كلّ من لم يذنب قطّ.

كنّا في هيكل المعبد. تطلّعت إليهم فردًا فردًا دون عاطفة بل بعنف أرّقهم؟ كانت عيناي تقولان:

- أنت، ألم تذنب قطّ؟ لقد رأيتك الأسبوع الماضي في الخان! وأنت، كيف تجرؤ على لعب دور الطاهر وقد فاجأتك تداعب ثديي حمّالة الماء؟ وأنت، هل تظنّني غافلًا عمّا أتيت أوّل أمس؟ في البدء تراجع أكبرهم سنًّا. وضعوا حجرهم أرضًا وانصرفوا ببطء.

أمّا الشباب منهم فقد استثارهم مذاق الدماء ورفضوا الإصغاء إلى ضمائرهم. نظرت إليهم ساخرًا. كانت ابتسامتي تقطر وشاية، أمّا ملامحي فقالت:

- أعرف كلّ بغايا الجليل ويهوديّة: لن تمثّلوا دور القدّيسين

أمامي. لديّ أسماء. أعرف كلّ شيء. يمكنني الإبلاغ عنكم.

نكس الشبان رؤوسهم، ثمّ نكصوا على أعقابهم.

لم يقاومني سوى شابّ واحد منهم نظر إليّ في جرأة. كان أصغرهم، له من العمر ثمانية عشر عامًا. هل أخذته الحماسة حتّى ظنّ أنّه لم يخطئ قطّ؟ كان يقف مستقيمًا، واثقًا من نفسه وشرعية إعدام تلك المرأة. أشحت ببصري. دون تحدّ أو تهديد، سألته في رقة:

- أواثق أنّك لم ترتكب خطيئة قطُّ؟ أحبّك كما أنت، حتّى لو أذنبت.

اختلج وطرف جفناه. كان ينتظر كلّ شيء سوى الحبّ.

جذبه رفاقه من ذراعيه. كانوا يهمسون «لا تكن سخيفًا! لن تزعم أنّك لم ترتكب خطأ في حياتك، هذا ليس أنت!». استسلم لهم، خاسرًا، ليحملوه معهم.

بقيت بمفردي مع السيّدة المرتجفة. ظلّت خائفة، لكنّ خوفها تبدّل من الرعب من الموت إلى خشية أن يفوتها شيء مّا.

طمأنتها بابتسامة.

- أين أولئك الذين اتهموك؟ لم يتبقّ هنا أحد ليحاكمك.

- لا أحد.

- أنا لا أيضا أحاكمك. انصرفي، ولا تذنبي من جديد.

أسعفتني الحيلة مرّة أخرى، لكنّني تعبت من هذه الأحابيل. استمتع أتباعي بنجاحاتي غير أنّي كرّرت على مسامعهم أنّ النجاح ليس سوى سوء تفاهم، وأنّ عدد أعدائنا فاق عدد أصدقائنا بسرعة كبيرة. رحلنا والتجأنا إلى الجليل. تآكلت من الداخل: تعبت من التفوّه بأمور لا يريد أحد سماعها، من الحديث إلى الصمّ، تعبت من إصابتهم بالصمم عندما أتحدّث. عندها فقط زادت أهمّيّة يهوذا الإسخريوطيّ في حياتي. على خلاف أتباعي، كان يهوذا ينحدر من يهوديّة وليس من الجليل. كان أوفر منهم تعليمًا، يعرف القراءة والحساب، وأصبح أمين خزينتنا، يوزّع على الفقراء ما زاد على حاجتنا من الصدقات التي تلقّيناها. كان يبتّ بين الصيّادين القدامى في طبرية مستعملًا طُرقه الخاصّة ولهجة أهل مدينته، ويجلب لنا كلّ غرابة من أورشليم. كنت أفضّل الحديث إليه وسرعان ما صار أفضل أتباعي. لم أحبّ في حياتي أحدًا مثل يهوذا. معه وحده كنت أتحدّث عن الربّ.

- إنّه قريب دومًا.

- إنّه لا يتجلّى سوى لك أو بداخلك أنت فقط. نحن لا نراه.

- أجل، عليك أن تحاول أكثر يهوذا.

- أنا أحاول. أحاول كلّ يوم. لم أجد تلك الآبار بلا قرار. لكنّني لا أحتاج إلى الأمر لأنّي أعيش بقربك.

لقد أقنعني أنّ علاقتي بالربّ تختلف عن علاقة الآخرين به. لم أكن كاهنًا لأنّني لم أجد ذلك النور في الكتب، ولم أكن أيضًا رسولا

لأنني إذ لم أبشر في حديثي بأيّ شيء. ببساطة، كنت أصل إلى جوهر الكون بفضل سقطاتي في تلك البئر.

– لا تدفن رأسك يشوع. تعلّم جيّدًا ما يعنيه كلّ هذا. لقد كشف لك يوحنان المغطّس الأمر قبل الجميع: أنت الذي بشّر به، ابن الربّ.

– أمنعك من قول هذه الحماقات. يهوذا، أنا بشر ابن بشر ولست ابن الربّ.

– لماذا تقول «أبي»؟

– توقّف عن هذه المهزلة.

– لماذا تقول إنّك تلاقيه في أعماقك؟

– لا تتلاعب بالكلمات. كنت سأعلم لو كنت المسيح.

– لكنّك تعلم. أنت تملك المعرفة والعلامات لكنّك ترفض الاعتراف.

– اصمت ! اصمت نهائيًّا. لا أظنّ أنّه كان مسؤولًا عن الشائعة الرهيبة، المدهشة والعظيمة التي انتشرت في الجليل انتشار النار في الهشيم: يشوع الناصريّ هو المسيح الذي بشّرت به التوراة. لقد تطوّرت بمفردها دون شكّ، لأنّ اليهود، مثل جميع البشر، يرون الأمور حسب رغباتهم انتظاراتهم.

لم أعد قادرًا على الظهور في العلن دون أن يسألوني:

- هل أنت ابن الربّ؟

- من قال لك ذلك؟

- أجبني. هل أنت المسيح بحقّ؟

- أنت من يقول هذا.

لم تكن لديّ إجابة أخرى: «أنت من يقول هذا». ما كان لي أن أجرؤ على زعم أنّني المسيح. كان بإمكاني الحديث عن الربّ، عن نوره، عن النور الذي يشعّ في أعماقي، وكفى. لكنّ الآخرين يقطعون حديثي دون أن تخزهم ضمائرهم. يبالغون فيما أقول. يفعل أحبّتي ذلك إطراءً، أمّا الذين يكرهونني فكانوا يستعجلون إيقافي.

- يهوذا، أرجوك. أخرس هذا الصخب الغبيّ. لا أملك شيئًا خارقًا للعادة، سوى ما منحني إيّاه الربّ.

- هذا ما يتحدّث عنه الصخب بشروع: ماذا أعطاك الربّ. لقد ميّزك واصطفاك.

وسهر يهوذا الليل متأمّلًا كلّ النبوءات. كان يجد في تفاصيل حياتي كلّ ما بشّر به إيليا وأرميا وحزقيال وهوشع. كنت أحتجّ على ذلك.

- هذا سخيف! عندما تقارن، تستطيع إيجاد تشابه بين المسيح وأيّ كان!

كان يزعزع ثقتي أحيانًا لأنّه متضلّع في التوراة، لكنّني أرفض

كلّ شيء. وكنت أتخوّف من عمليّات العلاج حتّى اكتشف بعد النبوءات أتباعي، وأوّلهم يهوذا، وهذا هو الدليل التالي على أنّني المسيح. لم يترك لي الغضب فسحة. بدأت القصّة في جوّ من الغبطة والبهجة إبّان عودتي من الفلاة، لكنّها أخذت تتطوّر بطريقة خرجت عن سيطرتي وابتعدت عن المغامرة الأصليّة الشيّقة. نسب إليّ الأصدقاء والأعداء معًا ما لم أقله، وحمّلوني ما لا طاقة لي به.

دعاني هيرودس، حاكم الجليل إلى قصره، واضطرّني إلى مشاهدة نفاثه وحاشيته، ثم انعزلنا بين ساريتين بمفردنا دون شهود.

– ذكر لي يوحنان المغطّس أنّك المسيح.

– هو يقول هذا.

– أعتبر يوحنان نبيًّا حقيقيًّا لذلك أميل إلى تصديقه.

– تخيّل ما يحلو لك.

أسقط في يدَي هيرودس ولم يحصل إلّا على تأكيد أجوبتي.

– هيرودس، أنا لست المسيح. لا أزعم هذا الشرف. راقتني رفقة الرجال. شعرت أنّني ذو فائدة، لكنّني سأضطرّ إلى الابتعاد عنهم لأواصل حياتي وحيدًا.

– هذا محزن. لا تعتزل الناس كفيلسوف أو كاهن. علامَ ستحصل؟ نصف أهالي فلسطين جاهزون للسير على خطاك. يجب علينا الالتحام بالشعب إذا رمنا قيادته. نحن نعامل

الناس بناة على أوهامهم. كان قيصر يعلم جيّدًا أنّه ليس ابن فينوس، لكنّه صار قيصر لأنّه آمن بذلك.

- تبريرك وضيع يا هيرودس. لا أودّ أن أصبح قيصر ولا ملك بني إسرائيل ولا أحدًا غيرهما. لا أهتمّ بالسياسة.

- لا يهمّ يا يشوع، اسمح لنا بممارسة السياسة معك.

تدعّم قراري عندما غادرت القصر. انتهت علاقتي بالحياة العامّة. سأتوقّف عن كلّ شيء. سأترك كلّ شيء. قرّرت حلّ فريقنا لأواصل الوجود بمفردي معتكفًا في الصحراء.

للأسف، كنّا قد وصلنا إلى نعين وعندما عبرنا هذه القرية لم تعد الأمور واضحة أمامي بالمرّة.

في مدخل القرية، اعترض طريقنا موكب دفن الشابّ اليافع آموس. ريبيكا كانت أمّه، ريبيكا تلك من أيّام شبابي، أحببتها وكنت على وشك الزواج بها. كانت تمشي في المقدمة، مسلوبة الإرادة، مثل محكوم عليه بالإعدام. ترمّلت منذ سنوات عديدة وقد فقدت اليوم ابنها الوحيد. عندما لمحتني عيناها الواسعتان، لم يكن بهما أثر لمرارة أو غضب أو احتجاج، بل أسرّتا لي أنّني كنت محظوظًا إذ لم تكن لي عائلة وأنّني أهتمّ بالإنسانيّة جمعاء ولا آبه لآلامي وأشعر بآلام الناس. راودني مزيج من الشفقة والشعور بالذنب. هل كانت لريبيكا أن تشعر بهذا الحزن لو تزوّجنا؟ استوقفت حاملي التابوت لأتطلّع إلى الجثّة. اقتربت وأنا أمسك بمقابض التابوت وانخرطت في دعاء كان الأقوى في حياتي.

- أبانا، ردّه إلينا. امنحه حقّ الحياة. اجعل ريبكا سعيدة.

دعوت ودعوت مثل شخص بائس. لم أرجُ شيئًا وإنّما كانت فرصة للتنفيس عن حزني. تمسّكت يدا الطفل بيديّ ونهض ببطء. ارتفعت صيحات الفرح من حولنا، واتّحد الموكبان في سعادة، أتباعي والبؤساء الآخرون. ثلاثة من بيننا بقوا صامتين، يتساءلون عمّا حدث، غير مصدّقين: ريبكا وابنها وأنا.

تلك الليلة، تكلّم الطفل مجدّدا. أتى برفقة ريبكا وغمراني تقبيلًا. أمّا أنا فبقيت حائرًا، صامتًا ومشدوهًا.

عندما انتصف الليل، التحق بي يهوذا في ظلّ شجرة زيتون.

- يشوع. إلى متى ستظلّ تنفي الحقيقة؟ لقد أحييته.

- لست واثقًا من ذلك يهوذا. أنت تعلم مثلي أنّه ليس من السهل التحقّق من الموت. كم من شخص دفن حيًّا؟ لهذا نضع الموتى غالبًا في قباء. ربّما كان الطفل مغميًّا عليه.

- هل تظنّ أنّ أمًّا تستطيع حمل ابنها النائم إلى القبر؟

لزمت الصمت مجدّدًا. خيّرت ألّا أنبس ببنت شفة. سأكون جحودا لو نطقت دون ثناء على الرب الذي استجاب لدعائي. هل أكشف نفسي هكذا؟ أبدًا. لم أرده أن يميّزني.

لم أكن أعلم مدى تورّطي في الأمر. لقد رفضت، رفضت هذا المصير. خيّل إليّ أنّني أصارع الربّ. كان يريد أن ينتصر بالقوّة، أن يجرّدني من سلاحي وينزع شكوكي. كان يحاول إقناعي لكي أصبح

بطله. لكنّني كنت أعلم أنّه لن ينال مراده دون موافقتي وأنّني لا أزال أمتلك حظوظًا، وسأنكر كلّ علاماته. تمرّدت كامل الليل دون أن ينتابني ضعف.

حلّ الصباح ليغسل السماء، وعندما صاح الديك غلبني النعاس من جرّاء التعب. عندما فتحت عيني، قبلت تمامًا أنّ الربّ يحبّني إلى هذا الحدّ. ناديت يهوذا، تابعي المفضّل، لأنّه لا شيء كان سيسرّه أكثر ممّا نويت قوله له.

- يهوذا، لا أعلم من أكون حقًّا. أعلم فقط أنّ شيئًا أكبر منّي يسكنني. أعلم أيضًا أنّ حبّ الربّ لي يعني أنّه ينتظر منّي الكثير. اسمع يهوذا، سأقبل الرهان. سأقبله بكلّ جوارحي، سأقبل أنّني ذلك الذي ينتظره جميع بني إسرائيل. سأقبل أنّني ابن الربّ.

ارتمى يهوذا عند قدميّ وأحاط كعبيّ مطوّلًا بذراعيه. شعرت بدموعه الحارّة تنساب بين أصابع قدميّ. يا له من مسكين. كان يهوذا سعيدًا مثلي. لم يعلم أين ستنتهي ولا بنا سيطالبنا الرهان.

هذه الليلة، ينتظرني الموت بهذا البستان. صارت الزياتين رماديّة اللون مثل الأرض. تزاوجت صراصير الليل في نور القمر الحاني. وددت لو كنت إحدى شجرتَي الأرز الزرقاوين اللتين تظلّلان الأسواق الصاخبة نهارًا وتأوي إلى أغصانها الحمائم ليلًا. كم وددت لو رميت جذوري مثلها سعيدًا، خاليًا من الهموم. على خلاف ذلك، زرعت بذورًا لن أراها تنمو وتزهر. ترقّبت الكتيبة التي

ستقبض عليّ. أبانا، هبني قوّة هذه الكروم التي لا تشعر بخوفي. هبني الشجاعة لأواصل الرسالة التي اعتقدت في لحظة جنون أنّها لي.

بعد أيام من اتخاذ قراري، قبض هيرودس على يوحنان المغطّس وسجنه بقلعة ماشرونت. أرادت هيروديا، زوجته الجديدة، الانتقام من النبيّ الذي عاب زواجها.

أرسل إليّ يوحنان الجزع رسالة من سجنه.

«هل أنت المنتظر حقًّا؟ هل أنت المسيح؟ أم عليّ انتظار شخص غيرك؟».

كنت أعلم أنّ يوحنان يستنكر رفقتي للبغايا ولعامّة الشعب، وكان يلومني على شراهتي في الأكل والشرب. على عكسه هو الذي كان زاهدًا ولا يفهم بعد سبب تردّدي في الجهر بسرّي.

أجبت رسولين له.

– اذهبا وصِفَا ليوحنان ما قمت به. صار العميان يبصرون، وقد يمشي من به عرج، وتطهّر من أصابه الجذام، وسمع من به صمم. لقد زفّت البشرى، فلينعم وليكن واثقًا. لن أتركه يتعثّر.

كانت المرّة الأولى التي تبنّيت فيها مصيري. للأسف، جزّ رأس يوحنان قبل أن يبلغه الرجلان رسالتي. تملّك الغضب بعض أتباعي الذين كانوا على خطى يوحنان.

- انقضّ على السلطة، بشرع. لا تدع الشرفاء يعدمون. أسّس ملكك. نحن على خطاك. سيتبعك أهل الجليل. وإلّا ستجزّ رقبتك مثل المغطّس أو يحصل أشنع من ذلك.

على الرغم من استيائهم، فكّرت أكثر وقدّرت أنّه لا منصب لي أستأثر به ولا عرش أطلبه. لست قائدًا وإنّما أنا ملهم للأرواح. أجل، كنت أرغب في تغيير العالم، ولكن ليس على طريقتهم. لم أقُد ثورة سياسيّة، ولا كنت على رأس مجموعة من البؤساء والنساء والمهمّشين للانقضاض على فلسطين أو الانقلاب على مالكي السلطة والجاه والأموال. الثورة الوحيدة التي دعوت إليها ثورة باطنيّة. لم أطمع في العالم الخارجي، عالم قيصر وبيلاطس وأرباب المال والتجارة.

- ورث البشر الأرض: ماذا فعلوا بها؟ فليردّوها إلى الربّ. لنلغ الأمم والأعراق والبغض والاستغلال والجاه والامتيازات. لندمّر الطبقيّة بين الناس. لنتخلّص من المال الذي يصنع الفقر والغنى، والمهيمن والمحكوم، ذلك المال الذي يسبّب الخوف والتقتير وغياب الأمان والقسوة والحرب، المال الذي يشيّد حواجز بين البشر. فلنقم بهذه المهامّ في داخلنا. لنشيّد مقبرة لهذه الأفكار الخبيثة، لهذه القيم الفاسدة. لا يستطيع عرش أو صولجان أو رمح أن يطهّرنا أو يفتح أعيننا على الحبّ الحقيقيّ. كلّ يحمل مملكته بداخله، كمثل أعلى، أو خيال أو حنين. كلّ يحمل طموحًا أو رغبة لطيفة. من منّا لا يشعر بأنّه ابن لأب ما يتجاهله؟ من لا يريد أن يصير أخًا

لكلّ إنسان؟ إنّ مملكتي هنا، تمنّيتها وحلمت بها. يتّقد الحبّ حماسة، لكنّنا نصدمه بلا هوادة ونخيّب آماله. لا أتكلّم إلّا من أجل أن تتسلّح بالشجاعة لنكون أنفسنا، لنخوض غمار الحبّ. رغم أنّ الربّ سبقنا فهو يحتاج دومًا إلى أن يكتمل. لكنّ الربّ لا يعاني الخجل.

كان أهل الجليل ينصتون إليّ فاغرين أفواههم، لأنّهم ينصتون بأفواههم ولا يسمعون شيئًا بآذانهم. كانت كلماتي ترتدّ من رأس إلى آخر دون أن تلج أحدًا منهم. لم يحبّوا سوى كراماتي.

اتخذت قرارات منها أخذ أتباعي على عدم قبول أيّ سقيم. لكنّ أيًّا منهم لم يستطع إيقاف موجاتهم المتدفّقة: كان المرضى يَفِدون عبر السقف والنوافذ. في بحيرة طبرية، اضطررت إلى الابتعاد عن الضفّة، على متن قارب، لكي أتمكّن من الحديث إلى القرويّين دون أن يلمسوني أو يتوسّلوا إليّ. لكن دون جدوى! حملت الكياسةُ الجميعَ على قبول مواعظي مثلما يتناول المرء مقبلات دون حماسة: كانت كراماتي طبقهم الرئيسيّ. صرت موظّفًا لدى الربّ. صار الجميع يريدون خاتمي وبصمتي بعد وقوفهم الساعات الطوال في صفوف، ويطالبونني بتدخّل على شكل معجزة بسيطة. كانوا المرضى ينصرفون في صحّة جيّدة، مقتنعين بعدما رأوا الأمر بأمّهات أعينهم.

– أجل، أجل، إنّه بالفعل ابن الربّ.

لم يستوعبوا فكرة واحدة من خطابي، وقد وجدوا بكلّ بساطة شفيعًا يسهّل عليهم شؤون حيواتهم.

- نحن محظوظون لأنّه يقيم بالجليل على مقربة منّا.

في أحد الأيّام، أتت أمّي وإخوتي وفرّقوا حشدًا في قرية كنت أقيم بها. كنت أعلم أنّهم يستهزؤون بي وبادعائي وجنوني. أرسلوا إليّ رسائلهم مرارًا يتوسّلون إليّ كي أكفّ عن تقمّص دور المسيح: لم أجب البتّة، فقدموا يفرضون عليّ مجلسًا عائليًا. طوّق الفضوليّون الخان الذي لجأنا إليه أنا وأتباعي.

- دعونا نمرّ، صاح إخوتي، نحن أسرته. لنا الأولويّة. دعونا نمرّ. علينا التحدّث إليه.

انبهر القرويّون بهم وفتحوا لهم معبرًا. تسمّرت عند الباب لأمنعهم من الدخول. كنت أعلم أنّني سأجرحهم، لكن كان عليّ أن أفعل ذلك.

- من هي عائلتي الحقّ؟ ليست حتمًا رابطة الدم، وإنّما هي رابطة الروح. من إخوتي؟ من أخواتي؟ من هي أمّي؟ هم كلّ الذين يطيعون أبانا. أراكم قد ملؤكم البغض ولم أعرفكم.

أشرت إلى أتباعي بالداخل.

- لو اتبعني أحدكم دون أن يقدر على فراق أمّه و أبيه، إخوته وأخواته وصاحبته وبنيه فلا حاجة بي إليه.

ثمّ أغلقت الباب في وجه أمّي وإخوتي. انصرف إخوتي يتميّزون غيظًا. لكنّ أمّي بقيت منهارة تنتظر أمام الباب في تواضع. عندما جنّ الليل، أدخلتها وامتزجت دموعنا.

وظلت أمي معي حتى تلك الليلة الموعودة. اتبعت خطاي، سارت خلفي هادئة بين النساء رفقة مريم المجدلية[٢]، مانحة الجميع، ومنهم أنا، فرصة لأنسى أنني ابنها. أحيانا، كنت ألاقيها خلسة لنتبادل قبلات سريعة. منذ خصامي مع إخوتي، اعتنت أمي بي لأنها انتظرتني طويلًا. لقد قبلت أنني أقدّر حبّ الناس قبل حبّ خاصّتي. كان أكبر مصدر لفخري أنني نجحت في إقناع أمّي.

لم أفش أسراري سوى ليهوذا. كنّا نعيد قراءة الكتب السماويّة معًا. منذ اتخاذي رهاني السرّيّ أوليت الكتب عناية أوفر.

– عليك بالعودة إلى أورشليم، يشوع. سيبلغ المسيح أوجه في أورشليم. إنّ الكتاب باتّ وصريح. ستهان وتُعذّب وتُقتل قبل أن تُبعث من جديد. ستعيش أوقاتًا صعبة.

كان يتحدّث في هدوء مهتديًا بالإيمان. وحده فهم المقصود بالمملكة، مملكة منزوعة الأمجاد حيث لا نجاحات مادّية أو سياسيّة. كان يصف لي لحظة احتضاري في هدوء ممزوج بالأمل.

– ستموت لبضعة أيام، يشوع، ثلاثة أيام، ثمّ ستبعث.

– عليك التحقّق من ذلك.

– هيّا يسوع. إنّ النوم لثلاثة أيام أو لألف سنة لا يفوق غفوة ساعة واحدة.

---

(٢) تعتبر من أهمّ تلميذات يسوع المسيح، وتعتبر رمزًا إلى الإنسان الخاطئ الذي يتوب.

في السابق لم أفكّر بجدّيّة في الموت، وكنت أتوق إلى معرفة ما تخبّئه لي تأمّلاتي. عندما سبرت أغواري، قرب أبينا، لم أجد ما يخيفني. «وراء كلّ أمر مبرّر»، كان يقول لي. «كلّ شيء على ما يرام. الجسد وحده عرضة للتعفّن والدود والاضمحلال. أمّا الروح فباقية».

لم يكن الأمر دقيقًا، لكنّه مطمئن. كانت أفكاري تتلاطم وتخلص أحيانًا لفكرة جديدة: لدينا حياة ثانية بعد فنائنا وستكون بحسب أعمالنا في حياتنا الأولى. سيخلّد من كان على حقّ في ذكرى طيّبة، وسيغرق من كان على باطل في ذكرى آثامه إلى الأبد. لكنّ هذه الصورة تتلاشى بسرعة ما إن أحاول الاقتراب منها. على أيّة حال، أثبتت لي رحلاتي أنّه لا يوجد مبرّر للخوف من الموت الذي لا يتجلّى سوى في شكل مفاجأة سارّة.

صارت أورشليم عنوانًا لقلقي، عنوانًا لقدري. الأرض التي بها أموت. سأتمّم دعوتي في أورشليم. زرت أورشليم مرّات عديدة وقصيرة في عيد الفصح، مثل أيّ يهوديّ ورع. يجب أن أفكّر في الاستقرار بها.

انطلقت رحلتنا إليها.

لم أستطع طمس الحقيقة: لقد تغيّرت. اجتاح التأنيب والمرارة قلبي مرّات. أنا الذي كان الحبّ ديدني، صرت فظًّا، ضجرًا ومنزعجًا. لم أكن أحبّ غير الرقّة، ثمّ صرت قادرًا على شتم خصومي. عندما أروم إعلان الخبر السارّ، ظهور مملكتي، تخونني خطابتي وأسمعني

أهدّد، أرغي وأزيد، وأتوعّد بأشدّ العقاب باسم الربّ. أحيانًا كنت أنوي الثناء على الناس، لكنّني لم أكن أقوى على أمنالك نفسي عن الصراخ عندما أمرّ ببعض المغالين يوقدون شمعدانات احتفالًا بعيد القدّاس: «أنا النور، أنا فحسب!». بعد ذلك، أؤاخذ نفسي وكانت أمّي التي تطمئنني، في كبد الليل وتضمّني إليها، تسمّي هذه المبالغة إرهاق الأمل.

في أورشليم، كنت أصطدم بجدران من الازدراء. فقد سخر الفريسيون[1] وأعضاء السنهدريم[2]، محكمة اليهود، من بعض الحكماء الذين أبدَوا اهتمامًا بي مثل نيقوديموس[3] ويوسف الرامي[4]: «لا أظنّكم تنتظرون حلول نبيّ من الجليل!». ظننت عندها أنّي فشلت.

بعد مضيّ ستّة أشهر، لم يعودوا إلى القهقهة. صاروا يتقلون ويرغون ويزبدون. ما داموا سيعدمونني الليلة.

أورشليم..

---

(1) فريسي، أي مفرز، لهم كانوا يعتبرون أنفسهم مفرزين عن الشعب لقداستهم. وهم فئة تضمّ كهنة وعلمانيّين. وكانوا يعلمون ويعظون ولكنّهم تمسّكوا بحرفيّة الناموس في التفسير والتشدّد في حفظ عوائد تسلّموها عن سبقوهم.

(2) مجلس اليهود الكبير أو المحكمة العليا للأمّة اليهوديّة. وكان السنهدريم يمثّل الشعب أمام الرومان، ويتكوّن من واحد وسبعين عضوًا، سبعين منهم مثل عدد الشيوخ الذين عاونوا موسى، والحادي والسبعين هو رئيس الكهنة. وقد قبض مجلس السنهدريم على المسيح وحاكمه.

(3) فريسي وعضو في السنهدريم، وكان واحدًا من رؤساء اليهود، وقد اقتنع بكلام يسوع ودافع عنه في السنهدريم لمّا هاجمه الفريسيون.

(4) عضو في مجلس السنهدريم، امتنع عن التصويت ضدّ يسوع.

أورشليم التي تأسرني، لكنّني لا أجد سبيلًا إلى حبّها بسهولة..
أورشليم يا من تغتالين أنبياءك وترجمين من بعث فيك. كم مرّة وددت لمّ شمل أبنائك كما تحضن الدجاجة فراخها أسفل جناحيها! لكنّك رفضت. أورشليم، لا أحبّ فيك كلّ ما يثير فخر كلّ يهوديّ.

عندما أرادوا منّي أن أرى المعبد، وقد أعيد بناؤه، وأن أفتتن قبالة الأبواب الثقال من الأرز المذهّب والزنابق والأوراق المنحوتة التي تتدلّى منها أشرعة كتّان تزيّنها أزهار أرجوانيّة وأحجار ياقوت قرمزية تشدّها ملائكة من الذهب الخالص، فكّرت ببساطة: «هل نحن في حاجة إلى مبالغة حتّى نصنع جمالًا؟» عندما أثنوا على حسن تنظيم القرابين، واكتشفت بين الروث والدم المتخثّر والأمعاء المتعفّنة قطعانًا من الثيران والنعاج تُمنح للأغنياء في مقابل منح الفقراء لحم الحمام وحده، أمسكت سوطًا وأوقعت كلّ الأوضام أرضًا. «ارفعوا كلّ شيء من أمامي! بيت الربّ ليس معدًّا للتجارة غير المشروعة!» ضربت الأرض بقدمي في غضب، وما هي إلّا لحظة حتّى غاب كلّ من يحيطون بي سوى بعض الدوابّ المخبولة أو الجبناء الذين كانوا يلوذون بالفرار. صارت المدينة قذرة وبخيلة ومزاجيّة ومستهزئة. لم تعد الأبواب والأسوار تخفي شيئًا. المظاهر تسود، والثراء فاحش والعبادة صارت شيئًا ذا بال. يترصّد الجميع بعضهم بعضًا ويتنافسون في القوّة. في مقابل ذلك، القلوب صامتة، والناس يرون الطيبة سخافة والتواضع انتحارًا. لا يريد سكّان أورشليم الإنصات لأبله من الجليل يمتدح الفقر وأتباعي لم يملكوا

من طبرية أكثر من قارب قديم وشباك مرتقة. هل أرهقت سمعَهم حياتُهم البسيطة في الحقول؟

لم أوفّق في أورشليم. كان نجاحي الوحيد مزيدًا من الكره لي كلّ يوم، ولاسيّما من جهة الكهنة وفقهاء الشريعة والفريسيين والصدوقيين[1] الذين لا يؤمنون بالبعث بعد الموت. كانوا أوفر منّي تفاؤلًا وتخوّفوًا من فكرة أن أعلّم الناس طريقًا آخر إلى الرب. شعروا بالخطر فشرعوا يعدّون لفنائي. ورُجمتُ في أذهانهم منذ شهور عديدة.

كم من الساعات أمضيت محاولًا إقناعهم، مدافعًا عن إيمان القلب مقابل إيمان الكتب. لقد شرحت لهم أنّهما لا يتعارضان مادام إيمان القلب يلهم الإيمان بالكتب. جعلني المتحذلقون والمجادلون والفقهاء أعيد المحاولة إلى ما لا نهاية. كانوا يريدون منّي لعب دور الفقيه والمفسّر ورجل الدين، وحشر نفسي في مشادّات تفضح تفوّقهم، فلم أجد لي من هادٍ سوى النور الذي يصاحبني. من فرط تكرار النقاش مائة مرّة شككت في أنّنا نتحدّث عن أمر واحد: الربّ. كانوا يحمون مؤسّسات وتقاليد وسلطانهم. أمّا أنا فكنت أتحدّث عن الربّ بيدين خاليتين.

---

(1) هم الطبقة الأرستقراطية بين اليهود فمعظم رؤساء الكهنة منهم، كان عملهم المحافظة على نظم الهيكل والضرائب ومراقبة الخزائن، ومن ذلك أثروا ثراءً فاحشًا. وكانت بينهم وبين الفريسيين خلافات كثيرة فهم لا يؤمنون بالقيامة ولا الأرواح ولا الملائكة، ومع هذا اتّحدوا مع الفريسيين ضدّ المسيح إذ شعروا بأنّ المسيح يهدّد مصالحهم معًا.

اعترفت بأنّ الربّ قد أوحى إلى جميع أنبيائنا، وأنّ روحه سكنت كتبنا وشرائعنا، وأنّ معظم البشر اتخذوا المعبد والكنيس والمدرسة التوراتيّة طريقًا إلى الوحي. أمّا أنا، أضفت ببساطة، فتأخذني أعماق الحبّ رأسًا إلى الربّ. أليس ذلك أفضل من كتاب قديم مستعمل!

– هذا كفر! كفر!

– لم آتِ لأهدم، وإنّما أتيت لأشيّد.

– كفر! كفر!

سرعان ما صرت لا أطيق حتّى المبيت بأورشليم. سأقطن في قرية بيطانيا صحبة أتباعي في بيت صديقنا لازاروس[1]، أو خارج الأسوار بجبل الزيتون إذا لم نجد متّسعا من الوقت.

كلّ صباح، كنت أرى الشمس تطلع من الصحراء وتوقظ الألوان في أورشليم، جدرانها الخمريّة، وشرفاتها البيضاء والمعبد الذهبيّ وأشجار السرو الخضراء وواجهات البيوت التي ذهب الصيف بطلائها. خيّل إليّ للحظات أنّني أطلّ على المدينة التي تعرض نفسها عليّ مثل مجسّم صغير، لكنّها سرعان ما تصبح شديدة اللمعان، كثيرة الألوان، وترتفع إلى أعلى، فوق الجميع، مثل نبوءة باهرة أو بغيّ فاخرة.

بينما ترقد الأزقّة والساحات في صمت، كانت قوافل الإبل تصل من دمشق عبر الطرق الملتوية المفضية إلى الأسوار، والنسوة

---

(1) لازاروس أو لعازر في المعتقد المسيحيّ، شخصيّة معروفة بعثها المسيح من الموت.

يحملن سلال العنب على رؤوسهنّ وزهورًا من أريحا كنّ يتوين بيعها أسفل أشجار البطم عند أبواب المدينة. كان كلّ شيء يهوي إلى أورشليم. أورشليم هي المركز. تبتلع أورشليم كلّ شيء.

هربت.

هربت من بغض الفريسيين، ومن خطر إيقافي الذي بات وشيكًا، هربت من موت شرع يتعقّبني. أفلتّ بأعجوبة من بيلاطس البنطي، عامل روما، الذي شعر بأنّه مستهدف من أحاديثي حول نهاية النظام القديم وحلول عهد المملكة. وضع جواسيسه أمامي قطعة نقديّة صكّت باسمه أو باسم قيصر، لا أدري حقًّا، لأنّ الرومان يتشابهون عندما يحلقون رؤوسهم.

- قل لنا يشوع، هل يجب الانصياع للرومان الغزاة؟ هل من العدل دفع الضرائب لهم؟

- يجب أن نعطي ما لقيصر لقيصر، وما للربّ للربّ. لست قائدًا عسكريًّا. لا تشبه مملكتي مملكته في شيء.

أراح حديثي بيلاطس، لكنّه أورثني المتعصّبين وأتباع باراباس الذين لم يمتنعوا عن استغلالي لإثارة فلسطين ضدّ المحتلّ الروماني. نجحت مسيرتي: كان أعدائي في كلّ مكان. شعرت بالخوف. أحسست بالعراء، لا أملك سوى خطابي الأعزل.

ارتحلنا مجدّدًا لنختبئ في الحقول. أردت استرجاع قواي من أجل المعركة الأخيرة. كان عليّ الدعاء نهارًا، وفي الليل أشارك أصدقائي،

رجالًا ونساء، وجبات عشاء مطوّلة. آخر الليل، أعود إلى أعماقي لأتهل الحبّ من ذلك النور الذي يلتمع مثل ألف شفق.

لم أنحنِ، ولم أتراجع أيضًا، لكنّني خشيت من الخوف. خفت أن أخيّب ظنّي بي. خشيت، كما أخشى الليلة، أنّ يشوع الناصري، نجل النجار، الذي ولد في أحد أخاديد العالم، سيتغلّب أخيرًا بقوّته وشهوته ورغبته في الحياة. هل سأبلغ آبار الحبّ عندما يجلدونني وعندما يثبّتونني بمسامير؟ ماذا لو أوصدت الآلامُ الآبارَ؟ ماذا لو لم يبقَ لي غير صوت واحد، صوت بشريّ بائس لكي أصرخ في وجه الاحتضار؟

طمأنني يهوذا:

– ستعود في اليوم الثالث. • سأكون بانتظارك. وسآخذك في حضني.

لم يساور الشكّ يهوذا على الإطلاق. استمعت له لساعات طوال، لكلامه الواثق الذي لا يطابق شكوكي.

– ستعود في اليوم الثالث. وسأكون بانتظارك. وسآخذك في حضني.

اقترب عيد الفصح. بدا لي الاحتفال بخبز الفطير لحظة مناسبة لتحقيق ما أصبو إليه لأنّ جميع بني إسرائيل سيحضرون للصلاة في المعبد. اتجهنا صوب أورشليم. في طريقنا، أبعدت عنّي المرضى الذين تدافعوا عليّ ورفضت إتيان أيّ من معجزاتي التي تخاطب

تكتفي بمخاطبة المرتابين وتبحث على الثرثرة أكثر من التأمّل. في بيطانيا ارتمت عليّ مارثا ومريم، شقيقتا لازاروس، وهما تبكيان.

– لقد مات لازاروس، يشوع. مات منذ ثلاثة أيّام خلت.

رغم أنّ فقدان كلّ عزيز قد عوّدني على الحزن طيلة حياتي، إلّا أنّني انخرطت، دون حول منّي، في النحيب مع الشقيقتين قرب نافورة بيطانيا. بموت لازاروس العزيز راودتني رؤية تنبئيّة، ستنتصر قوى العدم على قوى الحياة؛ شعرت بأنّ كلّ ما هو سلبيّ يسود في النهاية. سبقني لازاروس إلى الموت ليشير إليّ بأنّ كلّ شيء كان على وشك النهاية.

كم كان ثقيلًا ذاك الأسى الذي ربط بيني وبين مريم ومارثا، وجمع بشراتنا الرطبة من أثر النحيب! شعرت بكتفيها وصدريها بين ذراعيّ وخمّنت في رعب أنّهما ستصبحان غبارًا

جفّت أعيننا وقلبي لم يهدأ بعد. أردت رؤية لازاروس. فتحوا لي قبره وولجت حفرته المنحوتة في الصخر. تضوّعت رائحة المرّ القويّة في الهواء.

رفعت الكفن ولمحت وجه صديقي لازاروس عفورًا، شمعيًّا ومائلًا إلى الخضرة. تمدّدت إلى جانبه على البلاط. كان لازاروس بمثابة الأخ الأكبر الذي لم تنجبه أمّي: صار الآن أخي الأكبر في الموت.

انخرطت في الصلاة. تدلّيت إلى آبار الحبّ باحثًا عن لازاروس.

هناك، بهرني النور لكنّني لم أعلم شيئًا. «كلّ شيء على ما يرام»، أعاد أبانا ذلك على مسامعي ككلّ مرّة. «لا تقلق، كلّ شيء على ما يرام».

عندما عدت من الآبار، كان لازاروس جالسًا قربي. ينظر إليّ بريبة، حائرًا، متثاقلًا وذاهلًا.

- لازاروس، أنت حيّ ترزق ! هل تعي ذلك؟ أنت حيّ!

بدا أنّ الكلمات خانت ذهنه. حاول أن ينطق شيئًا بفمه الرخو دون جدوى.

- لازاروس، لقد بعثت من جديد !

بقيت ملامحه جامدةً دون تعبير؛ تراخت عيناه كأنّه يريد أن ينام.

أخذته تحت ذراعي وحملته إلى ضوء النهار.

من المستحيل وصف شعور أتباعي وأختيه عندما خرجنا من القبر. كان لازاروس هادئًا جدًا وتائهًا، وعندما قبّلته أختاه دون أن تبدو عليه علامات الفهم صار صامتًا تمامًا كأنّه ظلّ نفسه. لا أدري إن كان احتفظ ببعض فطنته. هل كانت صدمة البعث؟ قيل لي إنّه أمضى أيّام مرضه الأخيرة على هذه الحال.

كان هناك صوت ساخر بداخلي، صوت إبليس، يكرّر دون توقّف:

- أواثق أنت أنّه كان ميّتًا؟

صارعت لإخماده، لكنّني لم أنجح سوى في رفعه.

- حسن. عاد من الموت، لكن ماذا سيقول؟ ما الفائدة؟

شهادة رائعة، أليس كذلك؟

انعزلت وانخرطت في الصلاة يائسًا.

انتفضت من أثر يد يهوذا على كتفي. كان يشعّ ثقة.

- ستعود في اليوم الثالث. وسأكون هناك بانتظارك. وسأضمّك بين ذراعيّ.

يا إلهي، لماذا ليس لي إيمان يهوذا؟ ألا أزال مرتابًا؟ إلهي، أجوبتك لا تشفي غليلي.

انضممنا إلى الحفل الذي انتظم من أجل لازاروس المسكين، وكان حيًّا وباهتًا. حاولت دون جدوى أن أركّز على فرحة مارثا ومريم، على المداعبات التي كانتا تغدقانها على أخيهما الصامت ككلب. لم أستطع التخلّص من هذا الاهتمام: كنت مسؤولًا عن حالته تلك. لقد حقق الربّ المعجزة ليطمئن قلبي، ليؤكّد لي أنّني عدت من الموت وأنّني على خلاف لازاروس، سأتكلّم. أظنّ أنّ الربّ ضحّى براحة لازاروس. كان الأمر تجربة مسرحيّة قبل العرض. غطّت وجهي دموع الخزي.

أخيرًا، ندّ صوت خافت من البئر وأخبرني أنّ الحبّ الحقيقيّ لا يمتّ للعدالة بصلة؛ وأنّ على الحبّ أن يبدو قاسيًا أحيانًا، وأنّ الربّ سيحزن حين يراني معلّقًا على الصليب.

وصلنا هنا، إلى جبل الزيتون. لم أفكّر طيلة الرحلة سوى بحماية

أتباعي. سيعتقلونني هنا، أنا بمفردي، بحجّة الكفر والإلحاد دون أن يتحمّل أصحابي هذه الخطيئة.

كيف أتجنّب عقابًا جماعيًّا؟ كيف أخلّص أتباعي؟

وجدت حلّين: أن أسلّم نفسي أو يشي بي أحدهم.

لا أستطيع تسليم نفسي. سيكون ذلك اعترافًا بسيادة السنهدريم. كان ذلك يعني الاستسلام والتنكّر لمسيرتي.

اجتمعت اليوم بأتباعي الإثني عشر الأوّلين. كانت يدي وشفتي ترتعشان لأنّني وحدي أعلم أنّه لقاؤنا الأخير. مثل أيّ ربّ عائلة يهوديّ تناولت الخبز، باركته بدعائي ومنحته لضيوفي. ثمّ باركت النبيذ ووزّعته عليهم بتأثّر أيضًا.

– اذكروني دومًا، اذكروا قصّتنا. اذكروني عندما تتصدّقون. عندما أرحل، سيكون لحمي خبزكم، ودمي نبيذكم. ما إن نحبّ حتّى نصير جميعنا واحدًا.

ارتجفوا مذهولين من تبرّئي.

نظرت إلى هؤلاء الرجال الخشنين في منتصف العمر، ووددت فجأة أن أكون لطيفًا معهم. كان الحبّ يتدفّق من قلبي.

– أبنائي، لن أبقى معكم طويلًا. قريبًا سأترك هذا العالم. لكنّكم سترونني دومًا، لأنّني سأعيش بداخلكم، وستعيشون بي. أحبّوا بعضكم بعضًا، وأحبّوا الآخرين كما أحببتكم. إنّ الحبّ الحقيقيّ هو أن نهب رفاقنا حيواتنا.

خنقت بعضهم العبرات، لكنّني لم أشأ أن نتأثّر.

– أبنائي، ستبكون الآن، لكنّ حزنكم سينقلب غبطة. تمرّ المرأة بعذاب شديد قبل الولادة، لكنّها سرعان ما تنسى آلامها ما إن يخرج بشر آخر إلى الوجود.

ثمّ حانت اللحظة الأصعب، إذ كان عليّ شرح خطّتي.

– في الواقع، دعوني أخبركم، سيخونني أحدكم.

سَرَت بينهم رجفة عدم الاستيعاب. ثمّ انخرطوا في الصراخ والاحتجاج.

يهوذا وحده كان صامتًا. هو الوحيد الذي استوعب الأمر. فاق الشمعة شحوبًا. ثبّت عينيه نحوي:

– هل هو أنا، يشوع؟

لقد فهم فكرتي المرعبة: أن يخونني. ضاعفتُ انتباهه لكي يفهم أنّني لن أقصد سواه، تلميذي المفضّل، وأنّ تضحيته ستسبق تضحيتي.

خفضنا أبصارنا إلى مستوى الطاولة بينما تواصل الحفل. لم نعد نقوى على الحديث. بدا أنّ أتباعي نسوا الحادثة برمّتها. نهض أخيرًا ودنا من أذني.

– سأنصرف. سآتي بك إلى السنهدريم. سيأتي العسس إلى جبل الزيتون. سأشير إليك.

تطلّعت إليه وحمّلت كلامي أقصى ما استطعت من حنان:

- شكرًا جزيلًا.

ارتمى في حضني، وقد غلبته العبرات وهو يمسك بي كأنّنا على وشك الفراق. شعرت بدموعه تنساب ساخنة على رقبتي.

ثمّ تمالك نفسه وغمغم بصوت مرتعش:

- ستعود في اليوم الثالث. لكنّني لن أكون بانتظارك، ولن آخذك بين ذراعيّ.

حان دوري لأستبقيه هذه المرّة. همست له:

- يهوذا، يهوذا! ماذا ستفعل؟

- سأشنق نفسي.

- لا يهوذا، لا أرضى بهذا.

- أنت تصلب، إذن أنا سأشنق.

- يهوذا، لقد غفرت لك.

- أما أنا فلا.

ثمّ خرج دافعًا الجميع في طريقه. أمّا أتباعي الآخرون، فلطيبتهم وسذاجتهم، لم يعوا شيئًا من المشهد.

لكنّ أمّي، الجالسة في ركن مظلم، فهمت كلّ شيء. كانت تثبّت عينيها البيضاوين والمتّسعتين من الحيرة عليّ، وتسائلني

وترغمني على نفي ما حدث. لم أحرّك ساكنًا، فعلمت أنها كانت على حقّ، وندّت من حنجرتها أنّةُ فريسةٍ مطاردة. اقتربت لأجلس بجانبها. أرادت فورًا أن تطمئنني وتعلمني أنّها قد تقبل بكلّ شيء، بل أنها قبلت أصلًا. ابتسمت لي وابتسمت لها. ظللنا هكذا مطوّلًا نتبادل الابتسامات.

تطلّعت لأوّل وجه عرفته في حياتي؛ غدًا سأغمض عينيّ أمامه أيضًا. تطلّعت إلى الشفتين التين غنّتا لي قبل النوم، ما كان لي أن أقبّل شفتين غيرهما. تطلّعت إلى هذه الأمّ الهرمة التي طالما أحببتها وهمست لها «سامحيني».

ها أنا ذا أتقفّى الليل.

التمعت السماء بظلام حالك. وجلبت لي الريح رائحة الموت، رائحة قفصِ الأسود.

بعد سويعات، أكون قد أتممتُ رهاني. بعد سويعات، سيعلمون ما إذا كنت شاهد الربّ، أو مجرّد معتوه. مجنونًا آخر.

لن يظهر الدليل العظيم والوحيد سوى إبّان موتي. لن أتمكّن من معرفة ذلك، لأنني سأطفو عندئذٍ في العدم، دون وعي أو مبالاة. إذا كنت على حقّ، فلن أحاول الاحتفال بنجاحي مبشّرًا بخبر طيّب لأنّني لم أعش قطّ من أجلي ولن أموت من أجلي أيضًا.

حتّى لو أكّدوا لي الليلة أنّني كنت على باطل فلن أتوانى عن قبول الرهان مجدّدًا.

لماذا؟

إذا خسرت، لن أخسر شيئًا.

لكن إن فزت، سأفوز بكلّ شيء. وسنربح كلّ شيء سويًا.

إلهي، اسمح لي بتحمّل مصيري حتّى اللحظة الأخيرة. لا تجعل الألم يدخل الريبة على قلبي!

سأتحمّل. سأتجلّد بالصبر. لن تفلت منّي صرخة واحدة. ما أشدّ بطئي في السير إلى الإيمان! كم هي قويّة هذه الغريزة في مواجهة الرحمة! هيا. ما أخشاه يبدو هيّنًا أمام ما أتمنّاه.

لكن ها هي الكتيبة تتقدّم عبر الأشجار. كان يهوذا يحمل فانوسًا ويقود الجنود. اقترب كثيرًا. سيشير إليّ.

أنا خائف.

أنا أرتاب الآن.

أودّ الفرار.

أبتاه، لماذا تخلّيت عنّي؟

الإنجيل برواية بيلاطس

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

أبغض أورشليم. ليس هواءً ما نتنفّس هنا وإنّما هو سمّ زعاف يجعل المرء معتوهًا. كلّ شيء صار مبالغًا فيه في هذه المتاهة من الشوارع التي لا يجوبها المرء ليصل إلى غايته وإنّما ليضيع، وفي هذه الطرقات حيث نخبط رؤوسنا عوض أن نجول فيها، ووسط انفجار كلّ هذه اللغات الوافدة من الشرق، لغات يتكلّم بها الناس ولا يسمعونها. يصرخ الناس كثيرًا خارج بيوتهم ويهمسون كثيرًا داخلها. يحترمون النظام الرومانيّ لأنّهم يمقتونه فحسب. تفوح من المدينة روائح النفاق والرغبات المكبوتة. حتّى الشمس، فوق الأسوار، تبدو خائنة أيضًا. لن تصدّق أنّ الكوكب نفسه يشعّ فوق روما ويطوف فوق أورشليم. ذلك الذي في روما يمنحنا نورًا والذي في أورشليم يذكي الظلال: يصنع أركانًا وزوايا حيث يتآمرون، ودروبًا ليهرب اللصوص، ومعابد يمنع الرومانيّ من دخولها. شمس تضيء مقابل شمس تبهم. هذا ما ورثته عندما قبلت تعييني واليًا على يهودا.

أكره أورشليم. لكن ثمة أمر أبغضه أكثر: إنها أورشليم في أيام الفصح.

لم أكتب لك مدّة ثلاثة أيام لأنني لم أستطع التخلّي لحظة عن يقظتي. إنّ احتفالات الفطير دون خمير تؤجّج غضبي. اضطررت إلى مضاعفة عدد العسس ودورياتهم، وبثثت جواسيسي دون توقّف، وضغطت على عيوني في كلّ مكان كما تضغط البرتقالة، وكثّفت حراستي. لو رام بنو إسرائيل وضع روما في خطر لتمكّنوا من ذلك خلال أيام الفصح الثلاثة. تملأ المدينة، تزدحم وتتضاعف عدد سكّانها خمسًا بمجيء اليهود الذين يعبدون إلههم الأوحد في المعبد. من لا يجد منهم في الخانات مكانًا للمبيت ليلًا، يخيّم أسفل الأسوار أو يفترش الهضاب المجاورة تحت قبّة السماء. عند حلول الصباح، تتطلّب عباداتهم قرابين وتتحوّل أورشليم إلى مذبح وسوق دوابّ عظيمة؛ آلاف الأنعام تصرخ عند الانتظار وعند الاحتضار؛ أنهار من الدماء المتخثّرة والمتيبّسة في الشوارع؛ صوف وريش وجلود نتنة لتجفّ؛ أعمدة من الدخان تحتلّ الشوارع وتلطّخ الجدران. رائحة الشحم المحروق تجعلك تظنّ أنّ المدينة نفسها تصلى نارًا ملتهبة، لتقدّم قربانًا لإلههم الأكول. ذلك الأسبوع، لا أبرح شرفتي، وأشاهد مشمئزًا أورشليم تكافح. أستمع لصياح المرشدين يمرّون في الأزقّة المزدحمة ينادون الحجيج ليطوفوا بهم بين قبور الأنبياء، وبين فينة وأخرى، ينطلق ثغاء خرفان خفيف أو صفير بغايا أسفل الشرفات، وبغتة ألمح وميضًا فضّيًا يخترق الحشد، إنّه لصّ عارٍ طلى جسمه زيتًا فلا يلحق به أحد، ولا يترك خلفه سوى جيوب فارغة وسيل من الشتائم.

كدأبي كلّ سنة، خشيت الأسوأ خلال هذه الأيام الثلاثة. وككلّ سنة أيضًا، سيطرت على الموقف. تمّ كلّ شيء على ما يرام. لم تحصل حوادث كبرى. من أجل حفظ الأمن، قمنا بخمسة عشر اعتقالًا وتمّ صلب ثلاثة أشخاص. روتين. سأرحل راضيًا إلى قيصرية[1]، المدينة الرومانيّة العصريّة، ذات البناء الهندسي المتقن، حيث الرخاء والأمن. هناك في معقلي، أتمكّن أحيانًا من نسيان القلق الذي يشدّ وثاقي حال وصولي إلى فلسطين. أطلّ صباح الأحد وسوف أجهّز حقائبي. أمضيت ليلتي أكتب لك كالعادة.

أرّقتني أرض يهوديّة منذ زمن طويل، لكن هذه الليالي القاحلة يسّرت مراسلتنا يا أخي. أنا أمدّ إليك يدي من فلسطين حتّى روما. اغفر لي أسلوبي البسيط وكن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

-لقد اختفت الجثّة!

كنت بصدد ختم الرسالة التي كتبتها لك لمّا جاءني الجندي بوروس بذاك الخبر المرعب:

– لقد اختفت الجثّة!

أدركت فورًا أنّه كان يحدّثني عن ساحر الناصرة وتمثّلت حجم الإزعاج الذي ينتظرني إن لم نجد الجثّة فورًا.

(1) مدينة بناها هيرودس الكبير فيما بين 22–10 ق.م، ولكنّه أطلق عليها اسم قيصريّة تكريمًا لأوغسطس قيصر.

دعني ألخّص لك قصّة الساحر في كلمات.

منذ سنوات قليلة، برز في يهودية يشوع، أحد الكهنة المحتجّين. في البداية، لم يكن للرجل شيء مميّز: ملامح عاديّة ولهجة ريفيّ من الجليل ينحدر من الناصرة بالتحديد، المكان الأكثر عزلة في العالم. كلّ هذا كان سيمنعه من ذيوع صيته، لكنّ خطابه الغامض وغير المألوف، وعباراته المباشرة، وخرافاته العذبة والعنيفة القادمة من الشرق، ولطفه مع النساء، جعلت منه، باختصار، أعجوبة تخطف الأنظار.

سرعان ما جاب فلسطين. أرسلت عيوني وراءه فأخبروني بأنّ الرجل مسالم، غير خطير، وأنّ خصومه كانوا على ما يبدو كهنة اليهود وليس المحتلّ الرومانيّ. لقد فوجئ به حتّى مخبريّ.

جعلتني الريبة أخترق مجموعة أتباعه التي اتسعت من حوله كأنّه كان يغذّيها بخطابه، لكي أعلم ما الذي ينوي فعله. لأنّ الطوائف هنا تخفي دومًا قضيّة سياسيّة. منذ بسطت روما نفوذها، ونشرت جنودها وموظّفيها، ورغم تركها للأهالي حريّة إقامة شعائرهم، فإنّ الحماس الدينيّ صار مرادفًا للقرميّة، الملجأ المقدّس حيث تنظّم المقاومة ضدّ قيصر. أنا أتهم بعض اليهود بانتمائهم لليهودية فقط من أجل القول: أنا ضدّ روما. إنّ الفريسيين والصدوقيين، رغم تحكّمي فيهم، يعبدون ربّهم الأوحد حتّى يكثروا من بغض آلهتنا وكلّ ما يتبعنا. أمّا المتطرّفون، أعداء قيصر في العلن، وأعداء كلّ من يتعاون مع قيصر، فهم متعصّبون أشدّاء، قطّاع طرق لا يحترمون الحدّ أدنى في

أيّ شريعة، حتّى شريعتهم، ويكفّرون كلّ من يدينهم، ويستطيعون، لولا حذري، أن يرجّوا وجودنا هنا أو حتّى أن يدمّروا بلدهم في لحظة تشنّج همجيّة زائدة. لهذا أردت أن أعلم الجهة التي تنوي بشوع الانضمام لها، المتطرّفين، الفريسيين، أو الصدوقيّين، أو أيّ مجموعة كان ينوي استعمال ذيوع صيتها لإثارة الناس ضدّي. فوجدت بأنّ شيئًا من هذا لم يحدث. لم ينجح الساحر سوى في صنع خصوم. كرهه المتطرّفون منذ أن وافق على خلاص الضرائب للرومان بقوله «أعطوا لقيصر ما لقيصر»؛ وضبطه الفريسيون ينتهك شريعتهم لأنّ الساحر كان يبغض يوم السبت؛ أمّا الصدوقيون، المحافظون وكبار كهنة المعبد، فلم ترق لهم جرأة هذا الكاهن الذي فضّل إعمال العقل على الاكتفاء بتكرار النصوص المقدسة نفسها، وإنّما خافوا على سلطانهم وتدبّروا موته على يديّ.

«ما الفائدة؟»، ستقول لي. خلّصك أعداؤك من عدوّ محتمل! يجب أن تبتهج لذلك.

بالتأكيد.

«ثمّ إنّه ميّت، ستضيف. لا تخشَ شيئًا.

بالتأكيد».

طبعًا. رغم ذلك أشعر أنّ في الأمر تسرّعًا. لم أحقّق عدالتي، عدالة روما، اكتفيت بإقامة عدلهم، عدالة خصومي، عدالة الصدوقيّين التي أقرّها الفريسيون، خلّصت أولئك اليهود من يهوديّ يعارضهم. هل كان هذا دوري؟

طيلة المحاكمة، لم تتوانَ زوجتي كلوديا بروكولا عن تأنيبي. تطلّعت إليّ مطوّلًا بوجهها الطويل القاسي، الذي لا يحمل أثر كره أو عاطفة.

– لا تستطيع القيام بهذا.

– كلوديا، لقد تسلّمت هذا الساحر عن طريق كهنة السنهدريم. بصفتي واليًا، عليّ قبول مطالب الكهنة إذا رمت السلام مع المعبد. هل تظنّين أنّ الوالي يحكم حقًّا؟

على القائد الإيهام بالحكم، لكنّ قراراته تمليها توازنات الأحزاب والظروف.

– لن تفعل هذا بي.

أطرقت. لم أجرؤ على النظر في وجه هذه المرأة التي أحبّ وأدين لها بمسيرتي المهنيّة. لم ترد كلوديا الارتباط بالأحمق الذي كنته رغم معارضة أهلها فحسب، وأنت سيّد العارفين، وإنّما ساعدتها هذه العائلة على تعييني في منصب خطير، والي يهودية، تلك الخطة التي ما كان لي أن أحلم بها لولا حمايتها ودعمها. تحبّني كلوديا بروكولا وتحترمني مثل أيّ سيّدة نبيلة من روما، وقد دأبت على إبداء رأيها والمشاركة في أحاديث الرجال. لم أكن لأتحمّل ذلك من أيّ سيّدة أخرى، وغالبت بشدّة ذاك العنف الذكوريّ الذي كان سيرغمني على إسكاتها. من أجل الحفاظ على مكانتي بين رجالي، اتفقنا على ألّا نتحاور على الملإ. لكنّها كانت تنتهز خلوتنا لجدالنا الحادّ.

– لن تفعل بي هذا. لولا يشوع لكنت في عداد الأموات.

كانت تلمّح إلى مرضها الذي ألزمها الفراش لأشهر طويلة. كانت تنزف ببطء. أحضرت كلّ أطبّاء فلسطين والرومان والإغريق والمصريّين وحتّى اليهود دون جدوى! لم يستطع أيّ واحد منهم إيقاف النزيف الذي يدوم عند النساء أربعة أيّام في العادة، لكنّه لم يتوقّف عند كلوديا بروكولا.

غامت الحياة في وجهها وفي لونها. أرعبني شحوب شفتيها. أدنى حركة كانت تجعل قلبها ينبض بإيقاع مجنون فأرى نهاية كلوديا تقترب.

حدّثتها إحدى الخادمات عن ساحر الناصرة فاستأذنتني في استدعائه. قبلت دونما أمل، ولم أحضر حتّى المقابلة.

أمضى الرجل كامل الظهيرة قربها. عند المساء توقّف نزيف كلوديا. لم أستطع تصديق الأمر! بقيت متردّدًا في أمر استسلامي للسعادة بشفائها.

– ماذا فعل بك؟

– لقد تحدّثنا، لا غير.

– ألم يلمسك؟ ألم ينصت لقلبك؟ ألم يطلِك بمرهم؟

– تبادلنا الحديث فحسب. وخضنا في أمور عديدة.

لم تقو على إجابتي لكنّها ابتسمت لي. في الصباح، بدت أوفر نضارة وحيويّة، كأنّما طالتها قطرات الندى. التفتت إليّ وقالت ببساطة:

- بفضله رضيت أنّنا لم ننجب أطفالًا.

أنت تعلم يا عزيزي تيتوس كيف يبدو أولئك النسوة من علية القوم من روما: يمنحنك جملة غامضة ونظرة عميقة وعليك أن تزعم أنك فهمت لكيلا تصنّف كغبيّ. تظاهرت بالتفهّم مع مسحة من الدهشة ولم نتحدّث بعدها.

- لقد أنقذني يشوع. أسعفه أنت أيضًا.

اعتمدت ميثاقًا للشرف لا يمتّ بصلة لمنصب الوالي الذي أشغله.

- سأجلده أمام الملإ.

في العادة، تكفي دفقة من الدماء لإطفاء تعطّش الحشود. هكذا، وقفنا عند هذا الحدّ.

وافقت كلوديا. قدّرنا سويًّا أنّ الساحر سيخرج من المأزق. لكنّ مشهد جلد السياط لم يحقّق التأثير المرجوّ. جلب جنوديّ الرجل إلى فناء حصن أنطونيا وانهالوا عليه بعصيّهم. لكن عجبًا، لم يصرخ المُدان، ولم يحتجّ ولم يطلق أيّ خرخرة من أثر الضربات. كان يبدو كمن به مسٌّ. أحكم وثاقه لكنّ سلوكه لم يشبه سلوك المذنبين ولا الأبرياء على حدّ سواء: كان عرضة لعذاب لم يرق له لكنّه رضي به. جرح وسال دمه دون أنّة واحدة. استهزأ يشوع بجلّاديه، جاعلًا من العدالة محلًّا للسخرية ومن العقاب زيفًا وتزويرًا. خاب ظنّ الحشود. ثارت ثائرتهم واعتبروه ممثّلًا فاشلًا. أرادوا فرجة ونهاية مثيرة. كانوا يطالبون بالموت. التحقت بكلوديا في ظلال الحصن

لأبلغها بفشل خطّتنا. لكنّها تابعت المشهد وأراحت رأسها بين ذراعيّ وهي تنتحب.

– قم بأيّ شيء. أتوسّل إليك. افعل شيئًا.

لو ذرف يشوع ربع دموع كلوديا لدفع الحشود إلى طلب الرحمة دون شكّ. سأجد مخرجًا من أجل هذا الساحر ومن أجل زوجتي معًا.

– التقاليد! تقاليد عيد الفصح!

فهمتني كلوديا فورًا وشكرتني بنظرة إعجاب جعلتني أعتقد أنّني لا زلت شابًّا ووسيمًا رغم أعوامي الثمانين.

أصدرت الأمر إلى رجالي ليخرجوا من السجن لصًّا معروفًا هنا، سرق الجميع واغتصب عديد الصبايا. كان هذا الحقير يمضي ليلته الأخيرة هناك لأنّه ينتظر أن يصلب في المساء رفقة لصّين آخرين أقلّ خطرًا.

صحت بالأهالي وذكّرتهم بأنّ تقاليد أيّام عيد الفصح تقتضي من والي روما أن يعفو عن أحد المساجين. اقترحت عليهم حينئذٍ أن يختاروا بين باراباس ويشوع. لم أشكّ لحظة في اختيارهم. كان يشوع محبوبًا ومسالمًا وباراباس خطيرًا ومخيفًا.

صمت الناس، وهم مصدومون. كانوا يرون يشوع متهاويًا مطأطأ الرأس، ينزف، ثمّ رأوا باراباس منتصبًا بصلف على ساقيه المفتولتي العضلات يتحدّاهم في جرأة. شرعوا يتهامسون

ويتشاورون فيما بينهم. انتقل بعض الرجال من فرقة إلى أخرى: ظننت أنهم أتباع الساحر يحاولون التأثير على القرار. رفعت نظري نحو الحصن فلمحت عبر النافذة عيني كلوديا الثاقبتين. تبادلنا ابتسامة.

صدح صوت العامّة بحكمهم. تضوّع مثل إشاعة همسوا بها، ثمّ نطقوها، ثمّ هتفوا بها، ثمّ ردّدوها، ثمّ صرخوا بها: «باراباس!» لم أفهم. طالبت الحشود بتحرير اللصّ والمغتصب والقاتل. لم يقترف يشوع شيئًا، عدا بعض التطاول على الدين، الذي اتهم بسببه، أمّا باراباس الحقير، الفظّ، الدمويّ، الأنانيّ، باراباس الذي اشتكت منه كلّ أسرة هنا، كان يستحقّ العفو في نظرهم!

ثارت ثائرتي، خاب ظنّي وأحسست بالقرف، لكن كان عليّ الإذعان لهم.

قيّدت يديّ عندما التزمت بالأمر معهم. قرّرت أن أغسلهما أمامهم. أتيت هذا الطقس الذي يعني أنّ الأمر لم يعد يعنيني. أمام الرقاب الغاضبة، من أعلى منصّتي، سكبت الماء الليّن الناعم على يديّ، وفركت كفّيّ في هدوء، ولمحت قطعة من قوس قزح تحلّل في المياه المتلاطمة وسط الوعاء النحاسيّ.

فكّرت في أعماقي: أنا لا أمثّل العدالة على أرض يهوديّة، لكنّني أمثّل روما. في اللحظة ذاتها، جال بخاطري: لماذا رضخت لأمر روما وهي التي تتنصّلت من العدالة في أراضيها؟ ذهبت لألقي نظرة أخيرة على المساجين قبل العودة إلى الحصن، وبغتة أدركت ما

غيّر مصير الرجلين، ووضعَ أحدهما على الصليب والآخر خارج السجن: كان باراباس وسيمًا أمّا يسوع فقبيحٌ.

كانت كلوديا تنتظرني في حجرتها. نظرت إلى هذه الرومانيّة الفارعة تغطّيها غلالة شاحبة اللون وقد حبست مفاصلها الرقيقة في أسورة ثقيلة، هذه السيّدة النبيلة التي كانت تلال روما السبعة رهن إشارتها، عضّت أصابعها من أجل قرويّ من الجليل!

كانت تزدري الحشود من نافذتها، ملامحها مشدودة وقد صبغ شفتيها الغضب، ولم تستسغ الظلم بعد.

– لقد أخفقنا يا كلوديا.

وافقتني بإيماءة بطيئة. ظننتها ستحتجّ، لكنّها بدت قابلة بالأحداث الماضية.

– لم يكن بوسعك فعل أيّ شيء، بيلاطس. لم يساعدنا بشيء.

– من؟

– يسوع. بسلوكه ذاك، جنى على نفسه بالموت. كان يريد أن يموت.

لعلّها كانت على حقّ. لم يوجّه الساحر أيّ إشارة يحصل بها على الرأفة، لا إلى الكهنة، ولا إلى الحشود ولا حتّى إليّ. في مقابل ذلك، حمله جموده إلى حتفه.

– لا نملك غير الترقّب، ختمت كلوديا.

تفرّست فيها دون أن أفهم.

– ترقّب ماذا، كلوديا؟ لن يظلّ هنا بعد سويعات.

– علينا أن نفهم ما قصد إليه من موته.

حاولت جاهدًا حبّ كلوديا. أشرف صبري الذكوري على النفاد أمام ذكائها الأنثويّ. تنتمي كلوديا إلى الطائفة التي تجد في كلّ ما يحيط بها علامات، تساقط ورقة من شجرة، تحليق عصفور، التلفّظ بكلمة مّا، التقاء الأفكار، اتجاه الريح، شكل غيمة، عيني قطّ أو حتّى صمت الأطفال. إنّ النسوة، مثل المنجّمين، يفكّرن في كلّ شيء، يرون العالم كقطعة رقّ. هنّ لا ينظرن وإنّما يفكّكن رموزًا. كلّ شيء يحمل دومًا معنى. إن لم تكن الدلالة ظاهرة للعيان، فإنّها مخفيّة بصفة مؤقّتة. لا توجد ثغرة أبدًا ولا شيء دون معنى. لا يوجد عالم مبهم تمامًا. كم وددت إجابتها بأنّ الموت هو الموت، وألّا أحد يقصد شيئًا بموته، وأنّنا جميعًا معرّضون للموت، وأنّها لن تجد من معنى لموت ساحرها سوى أنّ حياته انتهت. لكنّني تمالكت نفسي في آخر لحظة: ربّما اخترعت كلوديا كلّ هذا العالم بنفسها لتتجنّب شدّة العذاب.

اتخذت كعادتي ملامح من يقدّر كلام كلوديا والتحقت بجنودي لأتحقّق من تفاصيل الإعدامات.

بعد سويعات، كان يشوع ميتًا وباراباس حرًّا طليقًا.

–اختفت الجثّة!

ستفهم صدمتي عندما يأتي قائد الجند بورروس يعلمني بالخبر. مازال الكثير في جراب الساحر! ستفرح كلوديا حتمًا.

أحاطت بي فرقة من حرّاسي الشخصيّين وأنا أعبر المقبرة، غير بعيد عن القصر، لأتلقّف ذرّات الحقيقة المتبقّية في الهواء. ثمّة عشرات من اليهود، نساءً ورجالًا، يقفون حول القبر، وقد تراجعوا إلى خمائل الزهور عند مرورنا. لم يتبقّ سوى زوج من الجنود قبالة الحفرة العميقة. من بزّاتهم، أدركت انتماءهم لحرّاس قيافا، الكاهن الأعظم للمعبد، أشرس من سعى إلى إدانة يسوع وإعدامه.

– ما الذي يفعلونه هنا؟

شرح لي قائد الجند أنّ الكاهن الأعظم توجّس خيفة من سرقة الجثّة لتحويلها إلى طقس عبادة ففرض حراسة حول القبر منذ ليلة أمس.

–إذن، ماذا رأيتم؟

صمت الحارسان. جفونهما مغلقة، توسّطت رأسين بملامح غليظة كفأس، كأنّما قدّتهما من الطين أصابع خزّاف ميّت. ارتجفت شفاههما لكنّهما لم يقولا شيئًا.

– لقد جلدتهما يا بيلاطس. يقولان إنّهما لم يلحظا شيئًا أثناء الليل.

–مستحيل.

اقتربت من الضريح، قبر من الطراز المحليّ لا أظنّك رأيت مثله.

لا تحفر الأرض في فلسطين، وإنّما يهيّؤون غارًا في جدار صخريّ. ثمّ يغلق الغار بصخرة مستديرة عظيمة تحلّ محلّ الباب.

جُذبت الصخرة جانبًا وصدّت بيسار جعل المدخل مفتوحًا تمامًا.

–لماذا فتح الضريح؟

– أتت النسوة هذا الصباح لوضع الطيب من المرّ والعود العطر هدايا للفقيد.

– من دحرج الصخرة؟

– النساء بمساعدة الحرّاس. لم يوفّقوا بسبب ثقل الصخرة فانضممت إليهم أثناء جولتي، أجاب قائد الجند. هكذا علمنا أنّ الضريح خالٍ.

نظرت نحو فوّهة الظلال. لم أتمكّن من تصديق قصّة الجثّة المختفية. إذا تطلّب الأمر كلّ هذه الجهود لنقل الصخرة، فكيف تمكّن الساحر من ذلك بمفرده أثناء الليل؟ إطلاقًا. محال. ولجت الضريح دون انتظار. فعلت ذلك مكرهًا. ذهلت. لماذا نزعج الموتى؟

بعد ردهة قصيرة، قادنا الغار إلى غرفة حفرت في صخرها ثلاث طبقات، كانت كلّها خالية تمامًا. فوق واحدة منها فحسب، وجدنا آثار الساحر: شرائط ومراهم وبالخصوص كفنًا قدّ من نسيج عالي الجودة، متّسخًا بآثار جروح داكنة. كان مطويًّا بعناية على حافّة المرقد.

غير معقول. بالإضافة إلى اختفاء الجثّة، فانّ هذا النسيج المرتّب بهذه الدقّة غير منطقيّ تمامًا. من جرّده من قطع الجلد وقشور الجرح التي تبقيه ملتصقًا بالجثّة؟

ثمّ من تجشّم عناء ترتيبه بشكل هندسيّ دون فائدة؟ من له كلّ هذا الهوس الخارج عن الموضوع؟ هل كان الساحر على هذه الدرجة من العناية حتّى إنّه لمّا عاد حيًّا...

أمسكت ذلك الشيء وعصرته بأصابعي، كأنّني أستدرّ منه الحلّ. اختلط عليّ الأمر وراودني الفتور. جلست على المرقد لأتخيّل نفسي هناك، ميّتًا، ومحتجزًا الساعات بلا نهاية، في ظلام حالك سوى من بصيص شمس تسلّل عبر شقوق الصخور، في هذا العالم الخالي من النبات والأصوات. رأيت نفسي بشوع الفارع ذا الجسد النحيل ملقًى هنا بعد آلام الصليب. تسلّل شيء كالرصاص المصهور إلى رئتيّ. رزح صدري وكتفيّ تحت حمل كان يدكّني ويسوّيني بالأرض. رغبت في الاستلقاء. خارت قواي. خدر عجيب تراوح بين المتعة والحزن سلبني إرادتي وساقيّ على حدّ سواء. بغتة، أدركت ما جرى عندما لمحت كومة هائلة من الأعشاب المعطّرة، مزيج من المرّ والعود، وضعت هناك لتنقية الهواء لكنّها كانت تخدّرني.

انتزعت نفسي من الضريح وخرجت منطلقًا كالسهم. صفعني فيض من نور الشمس صفعة محبّبة. اطلعت إلى الكروم، وأشجار الكرز المزهرة، وأوراق الربيع الخضراء، هذا الكون المشبع عطورًا وألوانًا وزقزقة عصافير حتّى يجعلنا نشكّ في وجود الموت. عندما

عدت إلى حصاني، ألقيت نظرة أخيرة على الحرّاس الذين وقفوا ببلاهة. تحقّقت فورًا من حدقاتهم الواسعة وقدّرت أنّهم تحت تأثير المخدّرات. أبصرت قربتين من الجلد فوق العشب غير بعيد من هنا. فارغتين! عندما شممت عنقي القربتين، لم أستطع تبيّن أيّ مخدّر بين الروائح الخشنة والقويّة لخمور فلسطين السيّئة. رغم ذلك، وجدت شيئًا ذا بال: لقد تمّ تخدير الحراس. لذلك لم يتمكّنوا من رؤية مجموعة اللصوص أو سماعهم وهم يدحرجون الصخرة ثمّ يحملون الجثّة ويغلقون الضريح. إخراج مسرحيّ ممتاز: حتّى جمهور على درجة من الذكاء كان سينسب إلى الساحر قوى خرافيّة. عدت إلى القلعة واتخذت قرارات حاسمة: يجب اعتقال اللصوص والعثور على جثّة يشوع.

تعجّب أمنائي.

– يا سيّدي الوالي، لن نشغل أنفسنا بتدنيس تابوت يهوديّ. إنّ الأمر يهمّ الكاهن الأعظم وليس من صلاحيّاتنا.

– عليّ ضمان الأمن.

سلامة الأحياء يا بيلاطس، وليس سلامة الجثث، جثث يهود، ولاسيّما جثّة يهوديّ مجرم.

– لم يكن يشوع مذنبًا.

– لكنّك أمرت بصلبه.

ضربت الطاولة بقبضتي.

- أطيعوا الأمر فحسب. لو تركنا الناس يظنّون أنّ يشوع عاد حيًّا ودحرج صخرة ضريحه بمفرده، فإنّنا سنخوض أكبر فوضى يمكن تصوّرها على هذه الأرض المتعفّنة! سيتمكّن مرتكبو السرقة من خلق حركة دينيّة قويّة ليصبح اسم يشوع قريبًا على شفاه جميع بني إسرائيل حتّى يتمرّدوا علينا ولن يقرّ لهم قرار حتّى يطردونا، نحن الرومان، سبب عذاباته. ربّما تزداد الأمور سوءًا وتقلب موازين القوى هنا. لو ينجح عرض اللصوص، سيثيرون حفيظة الشعب ضدّ الفريسيين الذين كانوا يبغضون يشوع، وضدّ الصدوقيين الذين حاكموه، وحتّى ضدّ المتطرّفين لأنّه تمّ إطلاق سراح باراباس، ابنهم، في مكان يشوع. باختصار، إذا لم تعثروا هذه الليلة على المهرّجين الذين سخروا من الجميع، فإنّ بني إسرائيل سيتناحرون غدًا وسنغادر إلى روما، شرط ألّا يُقضى علينا قبل التحاقنا بميناء قيصريّة. هل هذا واضح؟

نفّذ بوروس تعليماتي وانطلق يبحث عن المذنبين. كانت لي فكرة دقيقة عن أسمائهم. بعد سويعات، ستنتهي هذه المهزلة ويستتبّ النظام. في الأثناء، أكتب لك، أخي العزيز، لأعلمك بالأمر أوّلًا ولأخفي نفاد صبري. لم ينفكّ الخدم عن حزم أمتعتنا للعودة إلى الثكنة، فأنا أثق في أنّ هذه القضيّة ستُحلّ سريعًا. سأكتب لك حول الأحداث حالما أصل إلى مقرّي في قيصريّة. كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

كانت الساعات الأخيرة مربكة. تحدّى الموقف منطقي الخاصّ، رغم أنّي لست من أولئك المتحمّسين الذين يحلمون بالحقيقة دون رؤيتها فعلًا، وينسبون إليها ألف خصلة، وألف كلمة غير منطوقة، وألف نيّة مستترة تكون سببًا في مواساتهم، وألف صمت يعبّر عن نفسه في سرور، لست البتّة من أولئك الذين يعشقون في خيالهم، لست من خالقي الطيبة والجمال، محبّي الكمال، الطوباويّين، صانعي البهجة والسرور. أنا أعرف الحقيقة، أو أسوأ من ذلك، أشكّ في أمرها. أتوقّع دومًا أنّها أقبح ممّا تبدو عليه، وأعتقد أيضًا، أشدّ تشعّبًا، مخاتلة، حقودة، أنانيّة، بخيلة، عدوانيّة، ظالمة، ومتغيّرة، باختصار شديد، مخيّبة للآمال. لا أتركها لحال سبيلها أيضًا، وإنّما أتعقّب هذه الحقيقة، أحاصرها، أرصد ضعفها وروائحها النتنة، وأستعجل ثمرتها القذرة.

يصقي صفاء ذهني طعمًا لاذعًا على وجودي، لكنّه يجعل منّي واليًا ناجعًا. لا يمنعني أيّ مديح أو كلام معسول مليء بالوعود من الوعي بما يحدث حولي. قليلا ما أخطئ لأنّ ذهني مشحوذ كسكّين. تعوّدت إغفال الرؤى المتفائلة وصرت أذهب رأسًا إلى هدفي وبسرعة.لكنّ الساعات الأخيرة منحتني شعورًا بمراوحة خطاي في حلقة مفرغة.

عثر رجالي في الظهيرة على آثار المريدين. لجأ المتشيّعون ليشوع إلى ضيعة مهجورة، غير بعيد عن أورشليم.

غادرت القصر مخفورًا بعشرين رجلًا. عندما عبرنا أبواب المدينة، تجاوزنا الحجيج القافلين إلى أقاليمهم، الذين احتال عليهم أصحاب الخانات، واستغلّهم التجار، وابتزّهم الكهنة، لكنّهم كانوا يحملون ملامح ليّنة وعيونًا راضية لرجال أتمّوا مناسكهم.

انتصبت أورشليم خلفنا، في قاع الوادي، تحيط بها الأسوار، مفاخرة بقلاع قصر هيرودس الأكبر، وشموخ المعبد بأبوابه الرخاميّة البيضاء التي زادها طلاء الذهب بروزًا. رفعت كتفيّ: لقد كانت عاصمة حقًّا، لكنّها عاصمة شرقيّة، مسرفة، متغطرسة، وخدّاعة، عاصمة للأكاذيب الدينيّة، عاصمة لاستغلال السجايا الطيّبة، عاصمة للتلاعب بالأنفس عبر ثنائيّة الذنوب والتوبة، معقل للابتذال أدانه الساحر الناصريّ بضراوة، وهنا أعترف بأنّي كنت أوافقه تمامًا.

عندما تجاوزنا القمّة، أشار بوروس بإصبعه إلى حظيرة غنم متصدّعة السقف بالأسفل.

– إنّهم يختبئون هنا.

نشرت الحرّاس بشكل يجعلنا نداهمهم من كلّ جانب حتّى لا يلوذوا بالفرار. ثمّ ركضنا، عند إشارتي، نحو البناية.

لم يتحرّك أحد داخل الجدران. كان علينا إخراج الأتباع واحدًا تلو آخر لأنّهم كانوا يرتجفون كالجراد.

اصطفّوا قبالتي. زكمت أنفي رائحة حيوانيّة انبعثت من

أجسادهم، رائحة الرعب، رائحة من ينتظر الموت. لقد ظنّوا أنني سأعتقلهم لأجعلهم يعانون مصير معلمهم نفسه. توقّعوا صلبهم وهم يتصبّبون عرقًا بعروق منتفخة وعيون جاحظة، وكان ردّ فعلهم أكثر غريزيّة من سيدهم.

لم أكن مخطئًا: كان عددهم كافيًا لدحرجة الصخرة ونقل الجثّة في صمت. لقد روي أنّهم فرّوا من أورشليم يوم اعتقال يشوع، وأنّهم لم يشهدوا إعدامه، خوفَ تكالب الكهنة على الأتباع بعد المعلّم. ربّما اختبأوا وقتَ الإعدام، ثمّ تولّوا، في غفلة من الجميع، سرقة الجثّة في مسرحيّة متقنة اضطرّتنا إلى تصديق اختفاء الساحر من تلقاء نفسه بفضل كراماته الماورائيّة. كان هذا الغموض يكفيهم ليعيشوا بضع سنوات أخرى بشعائر يشوع في ظلّ السذج.

- اين الجثّة؟

لم يجب أيّ منهم. لم يبدُ أنّهم فهموا السؤال.

- أين الجثّة؟

تفادوا نظرتي وقد ازداد رعبهم. كانوا خائفين منّي بشدّة جعلتهم يودّون إجابتي. جثا أحدهم على ركبتيه.

- الرحمة، سيّدي، الرحمة.

حذا الآخرون حذوه. ركعوا ملتمسين عذرًا.

- لقد صدّقنا يشوع. خدعنا بوعوده وكلامه المعسول، لكنّنا لم نؤذِ أحدًا، مطلقًا! هو من بعثر معروضات تجّار المعبد، وهو

من طرد الباعة والصرافة بضرب السياط! أمّا نحن فقد بقينا في الخلف، قابعين أسفل الباب، مندهشين من غضبه. هو من عارض السبت لا نحن. خطؤنا الوحيد أنّنا أنصتنا له كثيرًا. لكنّنا اليوم نادمون. منذ قضى نحبه على الصليب دون أدنى ردّ فعل مثل أيّ لصّ، أدركنا خطأنا. ونحن الذين تركنا أسَرنا وأعمالنا من أجله..

كانت لهم رؤوس تحمل فضيحة من تعرّض لخيانة. حسب جواسيسي، اتبع بعضهم يشوع منذ أربع سنوات، وقد لازموا بؤسه، إيمانه، كفاحه ورؤياه، والآن تحطّم حلمهم عند موت بطلهم في مقتبل العمر. تحطّمت منامتهم على صليب! اليوم أدركوا كم كانوا سُذّجًا. غدًا سيعاملون كحمقى. سيسخر منهم الجميع دون هوادة حتّى أيّامهم الأخيرة، والأنكى من ذلك أنّهم سيضطرّون إلى التهكّم من أنفسهم. كانوا يهوذا بؤساء، شبابًا من أبناء الشعب لكنّ قسوة الترحال والتعرّض لأشعّة الشمس، والاستجداء جعلتهم يبدون أكبر سنًّا من أترابهم الرومان. انبطحوا عند قدميّ كالقطيع.

– أنتم عشرة فحسب، لماذا؟

تذكّرت أنّ تقارير جواسيسي شملت اثني عشر متشيّعًا.

– انتحر أحدنا شنقًا.

– والثاني عشر؟

– لبث يوحنان شقيقنا في أورشليم.

مال بوروس عليّ وهمس لي أنّ يوحنان وجاكوب سليلا أسرة ثريّة نافذة تربطها علاقة وطيدة بالكاهن الأعظم قيافا.

-لقد غادرنا يوحنان هذا الصباح ليذهب إلى الضريح.

-وأنتم؟

-نحن، نحن سنعود إلى بيوتنا. لقد عرفنا خطأنا.

-أين كنتم هذه الليلة؟

-هنا.

بدوا صادقين. ما كان لهم أن يشعروا بالذنب لو أنّهم كذبوا. كانوا سيدلون بحججهم بكلّ قوة.

أمرت رجالي بتفتيش الحظيرة وما حولها. لم يعثروا على الجثة. لم يبد على الأتباع أنّهم وعوا ما كنت أبحث عنه، فقد واصلوا اتهام الساحر والدفاع عن أنفسهم. كان سيمون أشدّهم شراسة في إهانة سيّده السابق. كان عملاقًا، عريض المنكبين، مفتول العضلات، رقبته قويّة فيها عروق نافرة. كان يتنصّل من كلّ ما عبده في السابق بطاقة جعلتني أتخيّل حجم المبالغة التي عظّم بها يشوع وأحبّه في الماضي.

بدأت أشعر بالإرهاق جرّاء هذا الأمر. كان جليًّا أنّ هؤلاء الأتباع فقدوا كلّ شيء واقتنعوا بأنّنا قدمنا لاعتقالهم، وأنّ مصيرهم سيكون حتمًا سجن أنتونيا، محاكمة بمجلس السنهدريم والموت آخر الأمر. لو كانت لهم حجج أخرى يدافعون بها عن أنفسهم لقدّموها.

في تلك اللحظة، ظهر على الطريق شكل أبيض اللون. قدم من أورشليم ركضًا شابّ وسيم، ممشوق القوام في الثامنة عشرة من عمره، وقد بدا فريسة لانفعال شديد. لم يأبه لوجودي وأسرع نحو الأتباع صارخًا:

-اختفى يشوع من قبره!

ذهل أولئك اليهود حتى جعلنا جمودُهم نرتاب في سماعهم الخبر. كرّر الشابّ الخبر في حبور وهو مندهش من عدم استجابتهم. نظر إليّ الأتباع بأطراف عيونهم دون أن يستمعوا له، كأنّهم يحاولون إخباره بأنّني هناك.

التفت الشابّ اليافع وابتسم لي دون اضطراب.

- عمت صباحًا، بيلاطس البنطيّ. أُدعى يوحنان ابن زبيدي. قدمت لأعلمهم بأنّ جميع من في أورشليم يعلمون الآن بالأمر. لقد غادر يشوع قبره!

كان ليوحنان ما لأبناء العائلات النافذة من جسارة وقحة. لأنّني لا أطيق أن يوجّه إليّ الخطاب قبل أن أتكلّم أوّلا فإنّي لم أجب وأشرت إلى طاقمي بالتجمّع.

أشرفت على الأتباع من علٍ.

-لن أعتقلكم. عودوا إلى دياركم، ولا تطؤوا أورشليم مجدّدًا.

إثر كلماتي، انفرجت الأسارير كما تروى الأرض الجافّة عند هطول المطر.

نظر بعضهم إلى بعض مندهشين: صاروا أحرارًا!

انحنوا أمامي جميعًا إلّا يوحنان. أمّا سيمون، فقد دفعه العرفان إلى تقبيل قدميّ دون انزعاج من فرحته الممزوجة بالهوان.

أنبّهم للمرّة الأخيرة:

- عودوا إلى بيوتكم وأعمالكم، انسوا الساحر وكفّوا عن نشر خبر اختفاء جثّته. سنجدها بعد برهة، ونلقي باللصوص في السجن.

انفجر يوحنان ضاحكًا. لمحت أسنان الشاب الجميلة تسخر منّي في وقاحة. أمسكت سوطي لأجلده، لكنّه استوقفني قائلًا:

- أعرف من أخذ جثة يشوع.

بدا صادقًا. هل دفعته استجابتي إلى كم المشاعر المحترمة هذه؟ أصرّ وهو يتطلّع إلى عينيّ:

-أعرف من يكون.

أعدت سلاحي إلى حزامي ببطء. في نهاية الأمر، لم تكن هذه الحملة دون جدوى.

-كيف عرفت ذلك؟

-كان كلّ شيء مسطّرًا. كانت هناك خطّة.

-عظيم، كيف ذلك؟

-سار الأمر كما خطّط له.

- عظيم. ومن سرق الجثّة؟

- الملاك جبريل.

تأمّلت الصبيّ البائس طويلًا. كان يؤمن بما قاله بكلّ جوارحه. لعلمك، من حسن الحظّ أنّك تجهل كلّ هذه السخافات العبرانيّة. أعلم أنّ الملائكة اختصاص محلّيّ، تمامًا مثل البرتقال والتمر والخبز الخالي من الخميرة، هم رسل من الإله الواحد، مخلوقات نورانيّة تتخذ أشكالا آدميّة، لا جنس لها، تدخّلت مرارًا لتكتب تاريخ هذا الشعب. يهبطون من السماء ويصعدون إليها، يتّخذون سلالم لم أرها قطّ. إنّهم ضدّ الرومان اليوم كما كانوا معادين للمصريين قديمًا، لأنّهم يتضامنون مع اليهود في كلّ معاركهم. يطلب اليهود عونهم كلّما أعوزتهم الحيلة ويحدث هذا دومًا. لقد فسّر هذا الشابّ كلّ ما لم يستطع إدراكه على أنّه تدخّل من السماء، وليضفي مزيدًا من المصداقيّة على تفسيره فقد أخبرنا بلقب الملاك: جبريل، لأنّ هذه المخلوقات العجيبة، رغم أنّه لا أحد يدعوها، لها أسماء متشابهة تدلّ على خلقهم الإلهيّ. ميكائيل، رفائيل، جبريل. ستقدّر من خلال هذه السفسفة ما معنى أن تكون حاكم يهوديّة. لا أشهد يوميًّا حالات فوضى من خصام وانتفاضات وأعمال شغب فحسب، وإنّما فوضى أفكارهم أيضًا. تصيبني يهوديّة بالجنون مثل الخمر التي تذهب بكلّ الصفاء. إنّ المفارقة على هذه الأرض الجافّة الصحراويّة دون غيوم تكمن في الضباب الذي يصيب الفكر. أمرت جنودي بالعودة، وغادرنا الأتباع في صمت لأنّنا صرنا نعلم وجهتنا لاسترجاع الجثّة.

عندما علمت أنّ الأتباع لن يقدموا على فعل أيّ شيء من شدّة جبنهم، خمّنت فورًا موطن الحيلة. لا شكّ أنّه شخص نافذ يستطيع تجنيد فرقة لصوص مهرة، كتومين وصامتين، ثمّ يخفي الجثّة دون إثارة الشكوك. اتجهت إلى ضيعة الثريّ المحترم جوزيف الرامي. كيف لم أفكّر فيه من قبل؟

لا شكّ أنّ جوزيف كان الرجلَ الذي يتحكّم بكافّة الأحداث منذ يومين.

ظهرت الضيعة شرق أورشليم بعد بحر من الزياتين. حولها امتدّت الكروم على مرمى البصر. كان جوزيف من أثرى الأثرياء هنا بفضل الخمر التي كان يعصرها منها، وقد مكّنه ذلك من مقعد في السنهدريم، ذلك المجلس الذي يقيم العدل في القضايا الدينيّة، منها محاكمة الساحر. يضمّ السنهدريم ثلاث طبقات -الكهنة والفقهاء والعائلات الثريّة الكبرى- وعلى الأخيرة يعتمد جوزيف من أجل مقعد هنا، وهو يقدّم خطابًا معتدلًا، بعيدًا عن الغلوّ الدينيّ المعهود. لكنّه كان مهتمًا بيسوع. جاءني جوزيف ليلة الإعدام يطلب الإذن في إنزال يسوع عن الصليب وغسله ودفنه في قبر جديد هيّأه له.

كان يبدو منزعجا عند طلبه هذا، لذلك شككت أنّ تصويته في السنهدريم على إعدام يسوع كان من قبيل الانضباط فحسب، وأنّ المصلحة الدينيّة كانت أكبر ممّا بدت عليه. قبلت اقتراحه بدفن يسوع دون تردّد، شرط العجلة في الإنجاز قبل مغيب الشمس، وقبل أن يمنع شباط والفصح كلّ نشاط. علاوة على ذلك، احترمت جوزيف

دومًا، تاجر حكيم، أب مثاليّ، وعضو معتدل بالمجلس الذي أحاول جاهدًا السيطرة عليه.

في تلك الآونة، لم أتخيّل أنني وافقت على حيلة كبيرة.

تجاوزنا بوّابة الضيعة وألفيناها في حالة عجيبة. كانت الأبواب والنوافذ مفتوحة ولم تكن بها نساء يتنادين؛ والحظيرة مفتوحة على مصراعيها، وقنّ الدجاج مزارب، لكن لا يوجد أيّ أثر لراعٍ، أو سائس خيول أو مزارعة. تقدّمنا عبر وسط جامد، يبهرنا الصمت. أكوام من التبن منتشرة على الأرض، ومعدّات ملقاة، وعصيّ منتصبة مغروسة في الدبال.

ترجّلنا واكتشفنا مزيدًا من الغرابة داخل منزل الضيعة: كانت الخزائن خالية والأكياس مبقورة، والثياب مبعثرة، والأثاث مقلوبًا، والأسرّة رأسًا على عقب، والحشايا ممزّقة والستائر ممزّقة. لا مجال للشكّ: الضيعة نهبت.

لكن، أين ساكنوها؟ خشيت الأسوأ. أرجو ألّا نعثر على جثث!

أمرت رجالي بتفتيش الحظيرة والإسطبل وما جاورهما. جُلت في البيت رفقة بورّوس.

ولجت الحجرة الرئيسيّة، حجرة جوزيف وزوجته. كان كلّ شيء رأسًا على عقب لكن لا وجود لآثار دماء. جحظت عيناي عندما لمحت الفراش، إذ نثرت فوق الملاءات المجعّدة محتويات خزانة من الحليّ والأساور والخواتم وسبائك الذهب..

كيف يمكن تأويل هذا؟

زار اللصوص منزل جوزيف ولم يحملوا شيئًا إذن؟ هل تركوا هذه الثروة مخافة العقاب؟ عمّ كانوا يبحثون؟ عن شيء آخر؟

- القبو! علينا التوجّه إلى القبو! تبعني بورروس دون أن يفهم. عندما اقتربنا من البوّابة الثقيلة، تناهت إليّ آنات وعلمت أنني على حقّ: كان كلّ من في الضيعة من نساء ورجال، وأطفال وشيوخ، مقيّدين ومكمّمين وسط الجرار والبراميل.

خلّصت جوزيف من أغلاله بنفسي وساعدته على الخروج من القبو. كان وجهه يحمل تجاعيد بارزة وواضحة، تحيط كالشمس بعينين زرقاوين شاحبتين، وتلخّص نزاهة حياة كاملة. كان كلّ شيء متناسقًا ما عدا حاجبيه الكثيفين.

- ماذا حدث يا جوزيف؟

- رجال أتوا يبحثون عن الجثّة.

التفت نحوي وندّت منه ابتسامة ساخرة.

- لقد فكّروا مثلك.

- من هم؟

- كانوا ملثّمين.

فهمت من كلام جوزيف أنّ الرجال كانوا ملثّمين خشية أن

يعرفهم، وذلك لأنهم من أورشليم، ومَن مِن أورشليم يريد أن يجد الجثّة ليمنع أيّ عبادة بعد موت يسوع سوى رجال السنهدريم؟

غمغمت في اهتمام:

قيافا؟

لم يجب جوزيف الرامي، كانت الطريقة المشرّفة الوحيدة التي يكشف بها يهوديّ سرًّا الروماني.

– هل عاد قيافا بخفّيّ حُنين؟

تطلّع إليّ جوزيف الرامي مطوّلًا.

– أجل. إذا لم تصدّقني، أذهب وأسأله. لقد اتهمتَني بأشياء لم تخطر لي على بالٍ. لحسن الحظّ، لأنني سعيد بأنّي شهدت الأحداث دون أن أحرّك ساكنًا. والآن لا نملك سوى الانتظار.

– ماذا ننتظر؟

– التحقّق من سرقة الجثّة. يجب أن تبرهن أنت وقيافا على ذلك.

– ليس علينا إثبات أنّ جثّة مختفية هي جثّة مسروقة: الدليل قاطع.

– لقد صار أقلّ وضوحًا. أخشى أن يصبح الدليل مع كلّ يوم يمرّ هو جبريل الملاك.

كنّا داخل المطبخ الظليل، حيث تدلّت التوابل من العارضة،

ومعها ثلاث دجاجات تنتظر نتف ريشها. تحلّقت النسوة حول خادم نحيف وطويل أصيب أثناء مقاومته الرجال الملثّمين.

– لم يكن يشوع رجلًا عاديًّا، تابع جوزيف. لم تكن حياته مألوفة، ولن يكون موته عاديًا أيضًا.

– لماذا صوّتَّ على موته إذا كنت تراه هكذا؟

جلس جوزيف ودَعَك جبينه. لقد سأل نفسه السؤال الذي وجّهته إليه ألف مرّة. صبّ لنا بعض النبيذ.

– يرى قيافا، كبير كهنتنا، أنّ الأمور بسيطة دومًا. يميّز الخير من الشرّ بوضوح. يكون قاطعًا حيث تتردّد بعض العقول البسيطة. هذا ما يجعله يستحقّ الريادة. أنا أرى الأمور معقّدة دومًا. كان يشوع يأسرني ويصيبني بحيرة. تدهشني معجزاته ويبغضها هو. لقد كره قيافا يشوع وكان يؤاخذه على تجديفه، والأسوأ من ذلك أنّه يجدف والناس يصفّقون له. لم يكن ما قاله يشوع يتعارض مع نصوصنا، لكنّ قيافا كان يرى في يشوع خطرًا على المعبد. فلم يتوانَ عن إدانته بكلّ ما أوتي من قوّة.

– إذن فقد أذعنت لقيافا عند المحاكمة؟

– إطلاقًا، لقد أذعنت ليسوع.

– عفوا؟

– لحظة التصويت، كنت عازمًا على إنقاذه، لكنّ يسوع نظر

نحوي، كأنّه يسمع ما يدور بخلدي. قالت لي عيناه بوضوح: «جوزيف، لا تفعل ذلك. صوّت على موتي مع الآخرين». لم أشأ الانصياع له، لكنّ كلّ ما صرخت به نظراته بقي يتردّد بقوّة في ذهني. لم يتركني البتّة، كنت فريسته. استسلمت أخيرًا وصوّتّ على موته.

- لم تكن هناك حاجة إلى الإجماع؟

– إطلاقًا، كانت الأغلبيّة تكفي.

– إذن؟

– هذا ما أراده يشوع.

هكذا فهم جوزيف، تمامًا مثل زوجتي كلوديا بروكولا، أنّ يسوع أراد الموت بشدّة. إنّ الإعجاب يجعلنا نخطئ حساباتنا. كان جوزيف وكلوديا معجبَين بيشوع، ولم يستسيغا فكرة موته المجّاني، فقد ظنّا أنّ يشوع عجّل بنهايته. لن يظلّ بطلهما لو أنّه لم يتمنَّ موته ويتحكّم في مصيره. يا لها من فكرة معوجّة وسخيفة! لماذا لا يواجهان الحقيقة! كان على جوزيف وكلوديا أن ينفخا في صورة الساحر باستمرار حتّى يحفظا اعتدادهما بنفسيهما.

تركت جوزيف. التفتُّ إليه عند تجاوزي للبوّابة.

– لا أريد أن أحلّ مكانك، جوزيف. كان يشوع فريدًا، ملهمًا، لكنّه كان رجلًا شجاعًا لم يسئ إلى أحد، ولم يستهدف روما قطّ. فعلت ما في وسعي لأنقذه من الإعدام. لم أرضخ إلّا

تحت ضغط الحشود بعد أن غسلت يديّ من دمه أمام الملإ. ضميري مرتاح. لكن أنت، في حرم السنهدريم، والحال أنك كنت تستطيع أن تصوّت ضدّ الإعدام، دون ضغط مسلّط عليك من الأغلبيّة، كيف استطعت أن تدين بريئًا؟ لقد أعدمت شخصًا محقًّا. لم يؤثّر خطابي في جوزيف وأجابني ببساطة:

أدنت رجلًا محقًّا لو كان يشوع رجلًا حقًّا، لكنّ يشوع لم يكن بشرًا.

– من كان إذن؟

– ابن الربّ.

كففت عن المحادثة وقفلت عائدًا إلى أورشليم. هل ترى المأزق الذي أتخبّط فيه أخي العزيز؟ في أرض تعجّ أنهجها بأبناء الربّ، وسط الشمام والبطيخ، حيث يدان أبناء الربّ أولئك ويعدمون على الصليب تحت شمس حارقة! الطريقة المثلى لنيل رضاء الربّ دون شك!

على أيّة حال، ها أنا دون خيط جديد، محتجزًا في أورشليم ألهث خلف جثّة تتحلّل، يجدر بي تسليمها رسميًّا إلى دود الأرض قبل أن يعفّن اختفاؤها الأذهانَ في فلسطين. تمنَّ لي حظًّا طيّبًا وكن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

لقد استقلت زوجتي كلوديا كلّ تفاتش روما إلى أعماق فلسطين. تمكّنت هنا من تنظيم مآدب عشاء تزيد الحياة عذوبة إذ ينساب الزمن في سرعة جرعات الخمر في الخناجر وإذ تلعب المحادثات بالرؤوس من فرط طلاوتها وتنوّعها، مثل تلك الليالي المتألّقة والمسكرة التي تُقضّى بين ضفاف نهر التيبر والنجوم التي تجعلنا نشعر بأنّنا مركز الكون وتمكّننا من عشق روما وتجعل كلّ حياة خارج أسوارها منفى.

استغلّت كلوديا البارحة بقاءنا بالقصر ونظّمت إحدى الحفلات التي لا يعرف سرّها سواها. يخال كلّ مدعوّ نفسه ضيف الشرف. كلّ طبق يبدو صنفًا جديدًا. كلّ عادثة تبدو شيّقة. كلّ هذه الأوهام التي تلقيها سيّدة البيت مثل أوراق اللعب. هي تعلم كيف تعلي من شأن أيٍّ كان وتجعله يفصح عن مكنونه وهو مشدوه، وتجعل الآخرين يعجبون ويدهشون. تختار ضيوفها مثلما تختار أطباقها: فريدة، متنوّعة، مليئة بالبهارات. تثير الأفواه والعقول بلمسات سريعة، لأنّها لا تتباطأ مطلقًا، تمرّ الأطباق مثل المحادثات بينما تتحكّم هي بخيوط اللعبة. على سبيل المقارنة، كم بدت لي حفلاتنا زمن طفولتنا سيّئة يا أخي العزيز.. هل تذكر؟ طبق واحد، عادثة واحدة! لم يوجد أبسط من ذلك! ينتهي كلّ شيء عندما يخلو الطبق أو يرهقنا الحديث.

كانت الحياة أمرًا مملًّا إذ علينا أن نأكل لنكتسب طاقة وأن

تتحدّث لنحلّ مشاكلنا. بفضل كلوديا، جرّبت الضحالة وأنا ممتنّ لها بخروجي من براثن المنفعة لأتذوّق لذّة التحذلق.

احتوى القصر البارحة كلّ ما ملكت أورشليم من زوّار مضحكين: مارسلوس، شاعر أصلع، حدّثتك عنه دون شكّ، اشتهر رسميًّا بقصائده الغنائيّة حول نهر التيبر، ويعرف بصفة شبه رسميّة بأبياته الإباحيّة؛ ومؤرّخ إغريقيّ، وتاجر من كريت، ومصرفيّ مالطيّ، ومجهّز سفن من مرسيليا، وفابيان، قريب كلوديا، الثريّ الخليع، من الذين يستحقّون لقب «زير نساء». كانت وسامته مزعجة. تزعج وسامته النساء وينزعج منه الرجال... لوسامته أيضًا. رأته النسوة عشيقًا مثاليًا واعتبره الرجال غريمًا في الحال. يبثّ فابيان جوًّا من الاجتياح والصراع والتواطؤ المسموم. على الرغم من ذلك فقد ألفيته مختلفًا ليلة أمس. لأوّل مرّة، لم يبثّ تأثيره المألوف؛ لا لأنّه لم يبدُ رائعًا، لكنّه بدا لي منشغلًا. ستفهم ذلك لاحقًا.

تحدثنا عن أعياد الفصح. زعم الشاعر مارسلوس أنّ جميع الأديان، في روما، أثينا، قرطاج أو أورشليم، ابتكرها القصّابون.

– قرابين! قرابين طوال الوقت! من يستفيد من الجريمة؟ القصّابون! من يسمح لهم بالعمل طيلة الأعياد المقدّسة؟ القصّابون! إنّ كلّ حفل دينيّ على كلّ ضفاف بحرنا لهو دومًا من تآمر القصّابين الذين ينقّبون الأحشاء ويريقون الدماء. إذا كان القصّابون على درجة من الغباء لم تؤهّلهم لابتكار الآلهة فإنّهم خالقو الطقوس دون شكّ.

- ماذا ينحر اليهود في عيد الفصح؟ تساءل فابيان.

- خرفانًا، أجبته.

- إطلاقًا، لم تعد الخرفان تفي بالحاجة. لقد احتاجوا هذا العام إلى التضحية برجل.

كان المصرفيّ المالطيّ من تفوّه بالأمر. تطلّع إليه الجميع مشدوهين. كان يملك وجهًا مالطيًّا سمجًا، بشرة داكنة، ملامح حادّة، وعينَي ثعبان. شرح بتجرّد، وهو يأكل، كيف إنّ اليهود احتاجوا إلى التضحية بأحدهم، كاهن منحرف، وأنّ الأمر كان جيّدًا بغضّ النظر عن ذلك الشابّ، لأنّ موت كبش فداء يهدّئ شعبًا كاملًا، ولمدّة طويلة، خذها من رحّالة مثلي!

شحب وجه كلوديا، لكنّها تصرّفت كمضيّفة مثاليّة والتفتت إلى قريبها فابيان.

- فابيان، أيّ رياح طيّبة ألقت بك في أورشليم؟

ألقى فابيان إليها قبلة بعينين ساخرتين كناية عن إجابة. لوهلة، رجع إلى عادته القديمة، تفوح منه رائحة المخادع، كمَن قضى ظهيرته في المضاجعة.. كان ذلك جليًّا في شفتيه المرسومتين بعناية والمنفختين طبيعيًّا، وفي لامبالاته، وبالخصوص في بشرته المتألّقة اللينة التي تبعث على المداعبة والقبل.

تردّد قبل الإجابة. أصرّت كلوديا لأنّها شعرت برغبته في الظهور.

– شؤون القلب، ربّما؟

– تعلمين جيّدًا أنّني لا أملك قلبًا عزيزتي كلوديا. أو لعلّه ينبض بخفوت.

انفجر الجميع ضاحكين.

– مهما يكن من أمر، لن تصدّقيني !

– لقد جُبلنا على تصديق كلّ شيء، ولاسيّما ما لا يصدّق، قالت كلوديا.

– سيبدو لك الأمر تافهًا.

كان يتظاهر بالتردّد. لم يجبه أحدٌ، لكي يتورّط في الأمر.

– فليكن، قال فابيان. لقد أتيت لأنّ...

لم يجد الوقت ليستطرد. تدحرج ثلاثة من خدمي إلى القاعة كأنّهم دُفعوا دفعًا. خلفهم تمامًا، ظهر رجل فارعٌ، عريض المنكبين، متوعّدًا. كان شعره مجعّدًا يغطّي جسدَه وبرٌ كثيف وملابس رثّة وقد أشهر هراوة مهدّدًا.

– بيلاطس! مُر خدمَك باحترام الفلسفة!

قفزت فرحًا. من خلال الرجل المتوحّش، تعرّفت إلى كراتيريوس، كراتيريوس عزيزنا، الذي كان معلّمنا بروما، أخي، عندما كنّا في العاشرة.

– كراتيريوس! أنت في أورشليم!

ارتمى أحدُنا على الآخر، أو بالأحرى أحدُنا في حضن الآخر من شدّة حرارة عناق كراتيربوس. ذهل خدمي. كان حاكمهم الأمرد الحليق دومًا، المنتوف الشعر، المهووس بالنظافة، قد تعلّق بحضن قرد عظيم متوحّش تزلزل قهقهتُه الأعمدة.

- أدّب طاقمك يا بيلاطس. أخبر هؤلاء الحثالة أنّنا نعرف الرجل من رجولته لا من ديونه لدى الخيّاط! هيّا انقشعوا أيّها الصراصير.

فرّ الخدم دون انتظار إشارتي.

قدّمت كراتيربوس إلى ضيوفنا في سعادة. تهلّلت الأسارير عندما شرحت أنّه كان فيلسوفًا كلبيًّا من طلّاب ديوجين. ذكّرتهم بأنّ والدي، الذي شدّه ما يتقاضاه كراتيربوس من أجرة لم تتعدّ مأكله، قد أوكل إليه مهمّة تعليمنا لبضعة أشهر قبل أن يطرده طبعًا مع وابل من الشتائم. نخر كراتيربوس من متعة هذه الذكرى.

- لشدّ ما افتخرت بطردي من قبل الأولياء الذين يشغّلونني. ذلك دليل على نجاحي في جعل أطفالهم أحرارًا.

- هل أنت جائع؟

- هل تظنّني آتي لولا الجوع؟

استمتعت كلوديا بما في هذا الفيلسوف الغاضب من مظهر فظّ: لمحت بعض الطيبة أسفل خصلاته.

- اجلبوا الطعام، أمرت كلوديا. لا شيء مطهيًّا من فضلكم، خضراوات نيّئة ولحوم نيّئة.

فيلوكاريوس، المؤرّخ الإغريقيّ، لم يستسغ، كشأن العديد من مواطنيه، هذا الانحراف الوقح للسقراطيّة. واستوقف الخدم بإشارة واحدة ثمّ أعطى كراتيريوس وعاءً قمامة.

- مادام أتباع الفلسفة الكلبيّة يتّخذون الكلاب قدوة فإنّ بعض العظام تكفي.

ثمّ أفرغ الوعاء عند قدميه بوقاحة.

تفرس كراتيريوس المؤرّخ من رأسه حتّى أخمص قدميه. انتظرت جولة أخرى دامية. عوضًا عن ذلك، اقترب كراتيريوس من المؤرّخ في هدوء وغمغم:

- إنّه على حقّ.

أقعى، تشمّم الفضلات، حرّك مؤخّرته امتنانا ثمّ استوى واقفًا أمام الإغريقيّ، حرّك أسماله بين فخذّيه ثمّ أخرج منها قضيبه.

- كيف نسيت هذا؟

ثمّ راح يتبوّل فوق رأس المؤرّخ بهدوء شديد. توقّف الزمن. استمع الجميع في ذهول إلى صوت دفق لا ينتهي يلطخ لباس الضيف المشدوه وبطنه وفخذيه. تبوّل كراتيريوس بقوّة دون توقّف، وانفرجت ملامحه وهو يفرغ مثانته. عندما فرغ، هدهد قضيبه ليتخلّص من قطرات البول الأخيرة، ثمّ خبّأه واستدار.

- تعاملني ككلب: اتخذ إذن سلوك كلب.

تمدّد قرب المنضدة المجاورة وبكلتا يديه أمسك الطعام الذي قدّمه له الخدم مرتجفين. كادت كلوديا أن تنفجر من الضحك، لكنّها تمالكت نفسها. أشارت إليّ أنّها ستحمل فيلوكاريوس إلى جناحها. كان هذا الثاني غاضبًا جدًّا وقد فقد القدرة على الكلام.

فكّرت بك، أخي العزيز، وبدهشتنا أمام سلوك كراتيريوس الذي بدا لنا غريبًا قبل أن ندرك منهاجه العنيف. كان كراتيريوس يأكل ويتجشأ ويسرد رحلته الأخيرة.

- طردني ذلك الأبله سولبيسيوس كأنّني أرمد من الإسكندريّة. لم ينجح لقاؤنا منذ البداية. عندما لمحته مارًّا من الجادّة الرئيسة، متبرّجًا مثل عاهرة رخيصة، متمدّدًا داخل عربة مذهّبة يحملها ثمانية من العبيد، تعجّبت قائلًا: «لا يلائم القفص هذه الدابّة!» دعاني إلى قصره. ظننت أنّه سيلقي بي في السجن، لكنّه كان قد سمع عنّي، علم بنوادر وقاحتي تجاه طغاة آخرين، وعاملني بودّ متحلّيًا دور النبيل المتحرّر الذي يدرك كلّ شيء ويغفر كلّ شيء. طاف بي أرجاء قصره متكلّفًا ومتصنّعًا، وهو يشير إلى الأحواض وأعمدة المرمر والأشياء المذهّبة. عندما لزمت الصمت، كان يعبّر عن حماسة شخصين في آنٍ واحد. شخصين؟! بل قل عشرة! فجأة، أراني حديث النعمة هذا مربّعات جليز زرقاء. في تلك اللحظة صدرت حشرجة من حنجرتي فصاح بي السمج: «

لا تبصق على الأرض. الأرضيّة نظيفة!»، فبصقت على وجهه عندئذ مضيفًا «اعذرني، إنّه المكان القذر الوحيد الذي وجدته». فنفاني الوقح من الإسكندريّة.

ضحك كلّ واحد منّا ملء شدقيْه.

– لقد خرجت سالمًا يا كراتيريوس، قلت له. أيّ شخص مكانك كان سيعدم.

– لا يخاطر أيّ طاغية بالتورّط في قتلي. لا أحد يقتل ضميره. لكن دعنا من أمري. أظنّ أنّني قطعت محادثة مّا. أين توقّفتم؟

عادت كلوديا وأخبرتنا بأنّ المؤرخ خيّر الانسحاب والتفتت نحو فابيان الوسيم:

– كان قريبي فابيان الذي يحيا سعيدًا في روما ويعيش فوقه في هدوء سيشرح لنا سبب رحلته إلى أراضينا. هيّا فابيان، لا تشوّقنا أكثر.

نظر فابيان حوله ليتحقّق من استئثاره بانتباه الجميع:

– حسن، في الحقيقة، ما أتى بي من مصر وجعلني أمرّ اليوم بيهوديّة وسيحملني قريبًا إلى بابل هو... النبوءة!

– النبوءة؟

خيّم صمت مريب من حولنا.

- في الواقع، واصل فابيان، تملّكتني دومًا فضول المتنجّمين والعرّافين والسَّحَرة. باختصار، يهمّني المستقبل وعلومه.

- فكرة غبيّة! صرخ كراتيريوس. عوض القلق ممّا سيحصل غدًا، يجدر بالرجال التساؤل عمّا يفعلونه اليوم.

- لا شكّ أنّك على حقّ، كراتيريوس، لكنّ الرجال جبلوا على النظر أمامهم عندما يمشون، ولا يخطون خطوة وهم ينظرون إلى أقدامهم. باختصار، لطالما استشرت منجّمين مختلفين، واليوم توافقت توقّعاتهم. إنّ العالم يسير نحو عهد جديد. سيتغيّر. العالم يهوي.

نظر إلى الضيوف وهم مندهشون من حديثه.

- الآن، سيحلّ عصر جديد. أجمع على ذلك كلّ الفلكيّين من الإسكندريّة وأرض الكلدانيّين وحتّى من روما.

- إلامَ ترمي؟

- سيظهر ملك جديد. حاكم جديد. رجل شابّ سيصبح سيّدَ العالم. سيمتدّ عرشه على كامل الأرض.

- أين سيظهر؟

- في هذه الربوع. أجمعت التوقّعات على هذا أيضًا. سيخرج هذا الرجل في آسيا. يذكر بعض المنجّمين فلسطين، ويقول آخرون كيليكيا وأشوريا. على أيّة حال، سيظهر شرقيّ بحرنا.

تشاور الضيوف فيما بينهم، منبهرين.

- هل من علامات أخرى؟ تساءلت.

- أجل. إنّ الرجل من مواليد برج الحوت.

ارتجفت ملامح كلوديا، كأنّ سحليّة قلقة تتحرّك تحت جلدتها. كانت عيناها متّسعتين وداكنتين. كانت الأفكار تعصف بها. أعلم أنّ زوجتي تميل إلى كلّ ما هو غير منطقيّ، وخشيت أن يكون فابيان استمالها بشلّة وخفت من عواقب خطابه. حاولت إنهاء الحديث.

- ما من إمبراطوريّة سوى روما. لا ملك سوى تيبريوس حاكم كلّ العالم الذي نعرفه.

ندّت ضحكة ازدراء عن فابيان.

- أوّلًا، ليس تيبريوس من مواليد برج الحوت. ثمّ، جلّنا نعلم أنّه يحكم العالم الذي آل إليه، وتعلم أنّ اللهو والمجون لا يصنعان السياسة. أخيرًا، تيبريوس في أرذل العمر.

- عفوًا؟

- أجل. جمعت معلومات من فلكيّين دقيقين وخلصت إلى أنّ هذا الرجل المقدّس ولد من التقاء زحل والمشتري في كوكبة برج الحوت. هكذا تمكّنت من حساب سنة مولد هذا الملك.

-يعني.

- لقد ولد سنة 750.

- مثلي تمامًا، صرخت على أمل إضحاك الجمع.

- مثلك يا بيلاطس. وهو اليوم في الثالثة والثلاثين مثلك.

حدثت ضجّة كبرى جعلتنا نقفز من مكاننا: سقط الكأس من يدي كلوديا. غمغمت بكلام غير مفهوم.

- قد ذعرت زوجتي، قلت باحثًا لها عن أعذار. لقد ظنّت لوهلة أنّني المقصود.

- لا يا بيلاطس، لقد فكّرت بأمر آخر أشدّ خطرًا.

قبل أن تنهي جملتها، أمرت الخدم بتنظيف بقع النبيذ على السجّاد.

التفت فابيان نحو جميع الضيوف متفرّسًا ملامحهم.

- لو أنّ هذا الرجل تجاوز الثلاثين لشرع حتمًا في عمله. هل سمعتم بأحد مثله؟

أجاب كراتيريوس أوّلًا.

- أعرف عددًا لا بأس به من الأوغاد الذين يحلمون بسيادة العالم، بعضهم يملك مدينة أو مقاطعة، لكنّني لا أرى أحدًا منهم قادرًا على تحقيق حلمه، حلم أراه غبيًّا دون شكّ.

بدت الريبة على الشاعر الأصلع والتاجر الكريتيّ ومجهّز السفن من مرسيليا والمصرفيّ المالطي. كلّهم التقوا أشخاصًا أشاوس وطموحين، لكن لا أحد منهم كان يبدو قادرًا على تحقيق هذه النبوءة.

- وأنت يا بيلاطس؟ سألني فابيان. هل اعترضك أبطال قادرون على غزو العالم؟

تطلّعت إليّ كلوديا كأنّها كنت أملك جوابًا. رفعت كتفيّ.

– ليست يهودية مكانًا مناسبًا لنجد رجلًا مثله. هنا، يسعى المخالون إلى التخلّص منا، لكنّهم يهود متزمّتون في تديّنهم. يظنّون أنفسهم شعبًا مختارًا، ولا يعبؤون بغزو العالم. هم يبغضون الآخر ولا يهتمّون بغير أنفسهم. إنّ اليهود شعب غريب، منغلق ومكتفٍ بذاته. ستجد هنا زعماء محلّيّين، لكن ما من إمبراطور بحجم العالم. ثمّ إنّه، وأخشى أن أخيّب أملك، لو قام إسكندر آخر لقاومته وأفنيته، فأنا أدافع عن روما.

– روما ليست خالدة.

– بِمَ تهذي، فابيان؟ لديك سلوك طفل مدلّل.

– طوال حياتي، أتيت أمورًا دون طائل، لهوت وضاجعت وأنفقت وخرجت منها بملل كبير. أظنّ أنّ حياتي ستكون أكثر نفعًا لو لقيت هذا الرجل.

التفت نحو قريبته الشاحبة، كأنّ الدماء غادرت شفتيها.

– يبدو أنّ حكايتي شدّتك يا كلوديا.

– أكثر ممّا تتصوّر، فابيان. أكثر ممّا تتصوّر.

عاد بنا التاجر الكريتيّ إلى النقاش حول الفضيحة الأخيرة لمنجّمة من دلف، سيّدة شابّة أوهمت الناس بأنّها ملهمة قبل أن يفضح أمرها ويكتشف الجميع أنّ الجنرال تريباركوس هو من كان

يهمس لها الأجوبة لكي ينفّذ سياساته، وعاد النقاش إلى وتيرته. كنت أراقب كلوديا بطرف عين، وكانت صامتة، ساهمة، وشاحبة ولم تلعب دور المضيّفة للمرّة الأولى، وتركت أمواج الحديث تتكسّر على ضفاف سريرها.

عندما رحل الضيوف، اقتربت منها، قَلِقًا.

– ماذا يحدث كلوديا؟ لست على ما يرام؟

– هل سمعت ما تفوّه به فابيان؟ لقد توافقت رؤى المنجّمين. يتحدّثون عن شخص نعرفه. لقد فاجأني أنّك لم تلاحظ الأمر.

عمّن؟

شعرت بأنّني أزعجت كلوديا. كانت تقضم أظافرها لكيلا تشتمني ونظرت إليّ باستعلاء وبرود.

– بيلاطس، النبوءة تتحدّث عن يشوع.

– يشوع؟ الساحر؟ لكنّه مات.

– له نفس السنّ المذكورة في النبوءة.

– إنّه ميّت!

– إنّه يجرّ الجميع خلفه، دون سلاح ولا طعام، لقد كوّن جيشًا من المخلصين.

– إنّه ميّت!

– لا يخاطب اليهود فحسب، بل السامريّين، والمصريّين،

والشاميّين، والأشوريّين، والإغريق والرومان، يخاطب الجميع.

- إنّه ميّت!

- لقد ذكر مملكة كونيّة دعي إليها الجميع عندما وصف ملكه.

- إنّه ميّت، كلوديا، هل تسمعين، لقد مات!

صرخت. تردّد صوتي في أرجاء القصر الذي امتصّ غضبي من قاعة إلى أخرى ومن عمود رخاميّ إلى آخر. رفعت كلوديا عينيها نحوي. أخيرًا، سمعتني. أخذت شفتاها ترتجفان.

- لقد قتلناه يا بيلاطس. هل تعي ذلك؟ لعلّه كان المقصودَ ونحن من قتله؟

- ليس هو ما دمنا قتلناه.

أطرقت كلوديا. كانت الأفكار سهامًا ترتطم برأسها. ثمّ انهارت بين ذراعيّ وانتحبت طويلًا.

بينما أكتب إليك، ترتاح كلوديا غير بعيد عنّي. تستطيع المرور من حالة إلى نقيضها: تتتاه بشدّة ثمّ يغلبها النعاس، لا أتحلّى بهذا المدّ والجزر، مزاجي معتدل وبطيء، دون تقلّب من حالة إلى أخرى. استيائي أقلّ وراحتي أقصر. لا أقوى على الغضب الشديد ولا النوم العميق، أمشي على خشبة ضيّقة، مريحة نسبيًّا، بين بين.

أحيانًا، أشتهي القيام بخطوة خاطئة.

في الأثناء، أقبّلك بكلّ ودّ، أخي العزيز. سأنقل إليك أخبار كراتيريوس الذي ينوي الإقامة بأورشليم، فطالما أنّي لم أحلّ لغز الجثة المختفيّة، سأجد مناسبات أخرى لرؤيته وتدوين شذوذه وحماقاته.

كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

وددت لو لم أعش هذا اليوم. لأوّل مرّة في مراسلتنا، تمنّيت ترك الصفحة بيضاء، بسبب شقائي في إعادة تجربة الأحداث وأنا أسردها عليك. غير أنّي أشعر بأنّني لو مررت عليها مرور الكرام، فلن أكتب إليك مرّة أخرى، بعد غدٍ ستجفّ دواتي وينقطع صوتي وستفقد أخاك. رغم اشمئزازي سأتحامل على نفسي لأروي لك أحداث اليوم، حتّى لا أقطع حبل المراسلة، لأنّ هذا الحبل المشدود من أورشليم إلى روما هو حبل صداقتنا.

عند الفجر، دعا المقاتل بورّوس إلى عقد اجتماع. تمنّيت أن يعلمني باكتشاف جثّة الساحر. كنت قد أمرت بتفتيش كلّ بيوت أورشليم تلك الليلة، ألم أخبرك بذلك؟

كان على رجالي كتمان ما بحثوا عنه، لأنّ ذلك سيغذّي إشاعة اللغز. كان عليهم فتح كلّ صندوق، وكلّ خزانة، وكلّ فتحة أرضيّة يمكنها أن تخفي جثّة.

لم يجد بورّوس وقتًا للاستحمام، فقد مثُل أمامي بسرعة، شعره مليء بالغبار وجفناه حمراوان. لم يكن يحمل الجثّة لكنّه عثر

على خيط. عثر صدفة على حرَسين من حرّاس الضريح في حانة يسكران في صفاء وقد وضعا ثلاثين دينارًا أمامهما. كان مبلغًا كبيرًا، ما يعادل راتبيهما لعدّة أشهر، وقد أثار ذلك اهتمام بورروس. لقد تمّ دفع أجرتيهما. ليأتيا أمرا مّا؟ أو لكيلا يأتيانه؟ لكي يقولا شيئًا؟ أو ليصمتا؟ كان علينا التحقيق معهما.

هبطت رفقة بورروس إلى المحكمة حيث أوقدنا المشاعل، لأنّ ضوء النهار كان خافتًا، ثمّ أدخلنا اليهوديّين، أو بالأحرى تمّ جرّهما نحوي لأنّهما لم يدركا وجودهما في حضرة الوالي من شدّة الثمل.

– من أين حصلتما على هذه الأموال؟

– من أنت؟

– صديق.

– هل لديك شراب؟

– من أعطاكما هذا المال؟

– ...

– لماذا؟

– ...

– هل ستجيبان، بحقّ جوبيتير!

– أليس لديك شراب؟

من شدّة سكرهما، لم نحصل منهما على شيء سوى رائحة عرق

حامضة. قدّمت لهما إناء خمر فارتميا عليه بلهفةٍ بعير قضى أسبوعين في الصحراء. كنت أقدّر ثقل أكياس المال لمّا التمعت في ذهني فكرة. ثلاثون دينارًا! ذكّرني ذلك بأمر مّا. نعم! كان ذلك ثمن الخيانة والوشاية التي تعيش أورشليم على وقعها. منذ أيام، عثر رجالي على المبلغ نفسه، كاملًا، بحوزة شخص نفّذت فيه عقوبة الشنق، يهوذا، أمين مال يسوع، الذي وشى بمعلّمه إلى قيافا مقابل هذا المبلغ.

دنوت من الحرّاس الثملين.

– لقد دفع لكما قيافا؟ هل تريدان مزيدًا من الخمر؟ إنّه قيافا، أليس كذلك؟

أومأ إيجابًا. أمسكت الكيسين.

– إمسكا. يمنح قيافا كليكما ثلاثين دينارًا إضافيّة لكي تسردوا كلّ شيء على مسمعي.

ترنّح الرجلان سرورين. لم يدركا أنّني أمنحهما مالهما.

– هيّا، أخبراني.

– المشكلة هي أنّنا لا نعلم شيئًا.

– هل تسخران منّي؟

– إطلاقًا، لم نشهد شيئًا سيّدي. كنّا نائمين. أيقظتنا النسوة صباحًا لكي نفتح التابوت. عندما تحقّقن من فراغه، صرخن وقلن إنّها معجزة، وإنّ ابن الجليل حمله الملاك جبريل. كان

إيمانهنّ بذلك قويًّا. وصدمنا عند استيقاظنا. وهكذا، عندما أتى قيافا، قبل الرومان بكثير، يا سيّدي، خيّرنا أن نعيد ما قالته النسوة، وأقسمنا أنّنا رأينا الملاك جبريل صحبة يشوع بأمّ أعيننا. كان ذلك أيسر من قول إنّنا لم نرَ شيئًا إذ كنّا نشرب بدل المراقبة. هنا، شعرنا بأنّنا أتينا خطأً كبيرًا، لأنّ قيافا تملّكه غضب شديد كاد يقطع شرايين عنقه. صرخ قائلًا إنّنا كنّا نهذي، وإنّه كان علينا الصمت، وإنّنا سنرجم لو ذكرنا الملاك جبريل أمام أيّ كان. كنّا نرتعد خوفًا، فنحن نعلم أنّ الكاهن الأعظم يفي بوعده دومًا عندما يبشّر بالمصائب. ثمّ هدأ وابتسم لنا ومنحنا المال بعد أن لقنّنا ما يجب علينا قوله، أو بالأحرى كتمانه.

- الحقّ أنّ قيافا دفع لكما من أجل كشف الحقيقة.

- هذا هو.

- والحقيقة هي أنّكما لم تشهدا شيئًا.

- لا شيء، سيّدي.

أعدت إليهما كيسَي المال. انصرف الغبيّان يرقصان وهما يظنّان أنّ كلّ واحد منهما يملك ستّين دينارًا.

ثمّ اعتكفت في مجلس الشورى لأفكّر بعمق. حيّرني غياب قيافا منذ يوم الأحد. لماذا لم يأت الكاهن الأعظم رأسًا للقائي؟ لو كان يبحث عن الجثّة هو أيضًا، أو كان من مصلحته مثلي ألّا يرتبط أيّ

استيهام دينيّ باختفاء الجثّة، فلماذا لم يقترح عليّ البحث عن الجثّة سويًّا؟ لم يعوّدني قيافا بهذا القدر من الكتمان. إنّه يدين لي بتنصيبه على رأس مجلس السنهدريم ويغدق عليّ هداياه مقابل خدماتي. إنّه أفضل حالًا من صهره، «آناس»، الكاهن الأسبق الذي عزلناه. هو يدرك وضعه جيّدًا ويتعاون مع روما. بوصفه سياسيًّا محنّكا كان يخشى الساحر قدر خشيته ردّة فعلي من قضيّة يشوع، يخاف أن تزيد شعبيّة يشوع من انزعاجي وتدعم سلطتي. أثناء المحاكمة، سعى إلى ضمان النظام «من الأفضل أن يموت رجل واحد من أجل الشعب وألّا تفنى أمّة بأسرها». لماذا قبع قيافا خلف جدران المعبد دون أن يطلب عوني أو يعرض مساعدته منذ سرقة الجثّة؟

كان يقود تحقيقًا موازيًا. كان أسرع منّي، ويسبقني في كلّ مكان، عند الضريح وعند جوزيف الرامي.. لماذا يفعل ذلك بمفرده؟

لم ينضمّ قيافا إلى حليفه الوحيد الاعتياديّ عند أصعب اللحظات! ترى ما الذي يخفيه هذا؟ اقتربت من النافذة وتطلّعت إلى أورشليم. في الأفق، رمتني مدرّجات المسرح البيضاء بسهم من الحنين. هذا الصرح المهجور لم يتمّ استغلاله كثيرًا، فاليهود لم يحبّوه رغم الفِرَق والمسرحيّات التي جلبتها إلى هنا، عند مشاهدته أفكّر بروما في ألم وأندم على الرحيل. لمحت ثوبًا أبيض يتحرّك على خشبة المسرح، وتعرّفت مارسلوس، ضيفنا البارحة، الذي كان يطوّح بذراعيه أمام المقاعد الحجريّة الخالية. كان يلقي إحدى قصائده، يزن وقع كلماته وتبض أبياته. لعلّه يتمرّن على فنّ التراجيديا؟ وهنا

التمعت الفكرة في ذهني: كان قيافا يمثّل! يعرف حقّ المعرفة أين توجد الجثّة لأنّه تولّى إخفاءها بنفسه.

كيف فاتتني الفكرة؟ لقد رتّب قيافا كلّ شيء. الخطّة بسيطة. كان عليه وضع حرّاس على ضريح يشوع، لكنّه يخدّرهم في الأثناء. ينام هؤلاء الحرّاس. يأتي عسس آخرون، يدحرجون الصخرة، يسرقون الجثّة ويغلقون القبر. من الأفضل أن نحترس مرّتين: بإبعاده الجثّة، وتحقّق قيافا من تجنّب قيام أيّ شعائر بعد موت يشوع. لكنّ الأمور لم تجر كما خطّط لها لأنّ النساء المقرّبات من يشوع سيعدن فتح القبر ويكتشفن اختفاء الجثّة ويشرعن في الهذيان ذاكرات الملاك جبريل. والكارثة أنّ هؤلاء المســـ سيعيدون الحماقة نفسها! سيخرس قيافا الغاضبُ الجميعَ ويرشوهم. لكنّ الإشاعة ستنتشر ويصعد الخبر إليّ راشا.. وسأشرع في التحرّي.

من بيلاطس الى العزيز تيتوس

هذه اليهودية الفارعة ذات الأظافر الحادّة، يلتمع حليّها كأنّها تحمل أوسمة حرب، جميلة لكنّها كثيرة التبرّج، هيروديا هذه، جسدها متّقد ونظراتها سهام وتقضي على كلّ من يعوق طريقها. لقد اعتقلت يوحنان المغطّس في حصن ماشرونت. لكنّ هيرودس رفض إعدامه، لأنّ هذا الرجل التقيّ ظنّ أنّ سجينه نبيّ. فانخرطت هيروديا[1] في حرب استنزاف وأخرجت من جعبتها سلاحًا آخر،

(1) ابنة ارسطوبولس أحد أبناء هيرودس الكبير، تزوّجت هيرودس بن هيرودس الكبير.

أقوى وأنجع: ابنتها سالومي[1]. كانت سالومي ترقص أمام زوج أمّها رقصًا مستفزًّا ومثيرًا حتّى وعدها هيرودس بتحقيق كلّ أمانيها. همست لها أمّها أنْ طالبي برأس يوحنّان، ووقع هيرودس في الفخّ فجزّ رأس النبيّ ليهديه إلى سالومي في طبق فضّيّ. منذ ذلك اليوم، تغيّر هيرودس، أحسّ بوخز الضمير، انزعج كثيرًا وغلبه ندم عنيف ولئيم، واعتزل الناس خوف انتقام الربّ. استغلّت هيروديا هذا الخوف طبعًا لتتلاعب بالحاكم العجوز وتسيطر عليه. لا أعلم إلى أيّ مدى سيصل طموح هذه السيّدة، لكنّني أخشى عاقبة وخيمة. فهيروديا تعشق السلطة في حدّ ذاتها وتنتشي بها، وهذا ما يجعلها اليوم قويّة، لكنها ستختنق بها يومًا. اقترح عليّ قيافا زيارة سالومي.

كان عليّ اختراق حشد كبير للوصول إلى قصر هيرودس الصغير. هناك، تجمّع عديد المتفرّجين، وتصاعدت حماقاتهم كالطنين، وتجشّم حرمي الشخصيّ عناء شقّ طريق بينهم. رفع رجالي أصواتهم وشرعوا يدفعون اليهود. خشيت من قيام أعمال شغب. أمرتهم بانتظاري وشققت طريقي دون حراسة، بمعيّة قيافا، أغالب المرافق وأرفس الأقدام وأشدّ المعاطف. تجاوزنا البوّابة المزدانة بنقوش باذخة، في ذوق رومانيّ شرقيّ يبعث على الاشمئزاز، أعدّت

لكنّها طلّقته وتزوّجت أخاه. فأخذ يوحنّا المعمدان يوبّخها ويندّد بعملها إلى أن حرّضت ابنتها سالومي على طلب رأسه من زوجها، فقتله زوجها.

(1) ابنة هيروديا زوجة هيرودس فيلبس، هي التي رقصت في حفلة عيد ميلاد هيرودس أنتيباس عمّها غير الشقيق، فسرّته، وأقسم أنه يعطيها ما تطلب، وبناء على مشورة أمّها طلبت رأس يوحنّا المعمدان على طبق؛ لأنّه كان يوبّخ هيرودس أنتيباس، قائلًا له إنّه لا يحلّ أن تكون له زوجة أخيه.

لتعجب تيبريوس لو رام يومًا زيارة هيرودس. هنا، أسلمنا أنفسنا للزحام يتقاذفنا. حملنا التيّار إلى منتصف الباحة. فوق مسطبة، كانت صبيّة يافعة تشاهد الحشود بعينين كبيرتين زادهما المخدّر اتّساعًا، عينين شاخصتين، تتوّمان كعيني كاهنة دلف.

- هذه الأميرة سالومي؟ قلت متعجّبًا.

أومأ قيافا إيجابًا. خاب ظنّي.

- لا تبدو كما وصفتها لي.

- هذا ما يظنّه الناس أوّلا.

بدت سالومي في السادسة عشرة. لم تكن امرأة بعد. كانت صورة امرأة. بدت كلّ مفاتنها: خصرها، أردافها، وصدرها، ضامرة لكنّها كانت أيضًا مدوّرة وخصيبة، تثير حرقة كالتي نشعر بها عند تباشير الربيع... عند رؤيتها على هذا الحال، بريئة ومثيرة، نحيفة وثقيلة في ثيابها الشفّافة، نظنّ أنّها لو تجرّدت من كلّ ثيابها فلن تكون سوى رمز للعراء.

لم أدرك ما يربط هذه الصبيّة بسمعتها كحسناء فاتنة. كانت سالومي تلائم ذائقة اليهود دون شكّ، وليس ذائقة الرومان. ظننتها هادئة لكنّني اكتشفت أنّها كانت تروي أمرا مّا.

كان على الرجال والنساء الاقتراب منها، أسفل المسطبة ليصغوا إلى كلمات تخرج كالأنفاس وتنساب كنغم من بين شفتيها الجامدتين تقريبًا. تمتم قيافا أنّ حياءها لا يعدو أن يكون تكلّفًا. يقع

الرجال في الشرك حالما يشتمّون عطرها أو يقفون في حضرتها. ألمّ بي دوار زاده عبق المسك شدّة، وعيناي متعلّقتان بكاحليها الهزيلين كقبضة عازف قيثارة، تحيط بهما جلاجل تحدث رنينًا. رفعت رأسي لأنهل من قصّتها الغريبة التي تعيدها إلى ما لا نهاية. كانت تتحدّث عن نفسها كأنّها تشاهد حياتها في ذهول.

- دخلت سالومي الى القصر الكبير المظلم. عادت سالومي من المقبرة حيث بكت موت الكاهن. سالومي حزينة، والمساء بارد، والأرض مظلمة. في البداية، لم تتبيّن سالومي الرجل في الشرفة. لكنّ الصوت استوقفها «لماذا تبكين يا سالومي؟» كان الرجل فارعًا ونحيفًا، وقد غطّت الظلال رأسه. وسالومي لا تجيب الغرباء عادةً، لكنّ الصوت لم يتركها. «أنت تبكين يشوع، أعلم ذلك، وأنت مخطئة». «هذا ليس من شأنك. أبكي من أشاء!» اقترب الرجل فاضطربت سالومي بشدّة. «ليس عليك أن تحزني من أجل يشوع. لقد مات بالأمس واليوم بعث!». كان الرجل يقف قريبًا جدًّا. ذكّرها صوته وعيناه بأمر مّا. لكنّ عتمة القصر أصابت عينَي سالومي. «من أنت؟» عندئذ، نزع الرجل قبّعته فتعرّفته سالومي وخرّت على ركبتيها. «انهضي يا سالومي. لقد اخترتك لتكوني الأولى. لقد أتيت ذنوبًا عديدة يا سالومي، لكنّني أحبّك، وقد غفرت لك. انطلقي وانشري الخبر السعيد بين الناس. هيّا!» لكنّ سالومي كانت تبكي بشدّة أقعدتها، ولمّا مسحت دموعها كان الرجل قد رحل. غير أنّ سالومي

سمعت الخبر الطيّب: يشوع يحبّها. لقد عاد. لقد بعث من جديد. ستعيد سالومي الخبر السعيد على مسامع الرجال.

ما لمحته كمشهد من بعيد، بدا لي الآن اعترافًا. أظنّ أنّ سالومي تمايلت وتحدّثت من أجلي. سالت من عينيها دموع سوداء مدرارة، وفتحت ذراعيها العاريين، وتمايلت دون حياء تحت ردائها، وبدا صوتها كحبّة خوخ تغري بقضمها في قيظ الصيف. كان يمكن أن أتحمّل سماع روايتها ثانية وثالثة، لكنّ حشود النّظارة الجدد دفعتنا جانبًا.

على الطريق مجدّدا، تريّثنا لبضع خطوات، لكنّ أفكارنا علقت بتلك الساحة وظلّت مثبّتة على سالومي.

– في نهاية المطاف، ليست سيّئة، قلت لقطع حبل الصمت المزعج.

تفل قيافا أرضًا.

– سيسوء الأمر لو كانت أجمل.

مشينا خطوات أخرى دون حديث. أنسانا جمال سالومي، إذ تمكّن منّا، سببَ مجيئنا لسماعها. توقّفنا قرب نافورة. هدّأنا ظلّ شجرة الدلب وخرير المياه وأنعشا أفكارنا.

– ما الذي روته؟ تساءلت.

– زقزقة مفكّكة مفادها أنّها رأت يشوع حيًّا. لم تتعرّفه بادئ الأمر. أخبرها شيئًا جميلًا: إنّه يحبّها.

- من يهتمّ؟

- لا أحد. سيفد الجميع على القصر لكن لا أحد سيهتمّ. يأتون لرؤية سالومي ولسماعها. يأتي الرجال ليمتّعوا أنظارهم وتفد النساء لتغتابها. لا شيء غير ذلك.

- هل تظنّ أنّ أحدهم يتلاعب بها؟ سألت قيافا.

- إطلاقًا. وهذا ما يطمئنني. ربّما لا توجد خطط وراء كلّ هذه الظواهر. ربّما لا يوجد رابط مباشر بين الجثّة المسروقة وهذيان سالومي. هذه الفتاة مجنونة بكلّ بساطة. إنّها مجنونة آل هيرودس. كلّ يملك مثلها في أيّ بيت وأيّ قرية. لن تنتشر شائعة البعث.

شعرنا بالاطمئنان. إنّ ممارسة السلطة تجعلنا في حيرة، لأنّها تتطلّب استباق الكوارث، وبعد مضيّ سنوات تنحت فينا ميلًا إلى ترقّب الأسوأ دومًا. اعتقدنا صباحًا أنّ الوضع خرج عن سيطرتنا، وبعد لقائنا سالومي، عاد لنا هدوؤنا. لم يمنع هذا من ضرورة العثور على الجثّة وتوحيد جهودنا في البحث.

- عندما نجد جثّة يشوع، صحت قائلًا، سأعرضها عند أسوار المدينة، كما يفعل الإغريق، و سيحرسها جنودي، وسأتركها تتعفّن لأسبوع، الزمن الذي تستغرقه الأمور لتعود إلى نصابها.

لحظة افتراقنا، أمسك قيافا ذراعي لكي يشير إلى تجمّع أخذ

يتشأ في ركن الساحة. قدمت سيّدة على ظهر حمار، سيّدة ناضجة وجميلة جدًّا، رقيقة الشفتين، نقيّة التقاسيم، صاحبة ملامح متقنة التفاصيل. همس قيافا باسمها: «مريم المجدليّة». تفرّستها بإعجاب. كان لها شيء من النبل في جبينها النقيّ. كان شعرها الأسود الكثيف ملقًى على كتفها. كانت، وهي تعتلي حمارها، تجسّد سيادة مملكة. أبلغني قيافا أنّها بغيّ من الحيّ الشماليّ. كانت النسوة يسرعن بين يديها تجذبهنّ القوة التي تشعّ منها.

- رأيته! رأيته! لقد بعث حيًّا.

قالت ذلك بصوت خفيض ودافئ ومغرٍ كعينيها السوداوين وأهدابها المندهشين.

ترجّلت عن دابّتها وقبّلت رفيقاتها.

- ابتهجن. لقد بُعث حيًّا. أين والدته؟ أودّ أن أخبرها بذلك.

وسّعنا لها الطريق. خرجت مزارعة من بيت من القرميد. كان وجهها المسنّ يرزح تحت وطأة سنوات من الكدّ وشظف العيش ويحمل تورّمًا من أثر الأحزان الأخيرة. لم تزل هذه الأمّ التي فقدت ابنها إثر عذاب مهين قادرةً على اعتراض من يأتي لزيارتها بالأحضان.

خرّت البغيّ تحت قدميها.

- يا مريم، ابنك حيّ! لم أتعرّف فورًا. الصوت مألوف وكذا العينان. لكنّه كان يضع قلنسوة. اقتربت من ذلك الغريب

لأنّ كلّ ما ذكره لي لامس شغاف قلبي. عندها، حدّدت هويّته. قبّلني وقال لي: «اذهبي وانشري الخبر السعيد بين الناس جميعًا. لقد مات يشوع من أجلكم جميعًا، ومن أجلكم بعث حيًّا». ابنك حيّ يا مريم! إنّه حيّ!

تسمّرت الثكلى. كانت تنصت لكلمات المجدليّة في صمت وعوض أن يبدو عليها الارتياح، بدت مرهقة، واعتقدتُ أنّها ستنهار. ثمّ سالت دمعتان ببطء على جفنيها المحمرّين. سينهمر الحزن أخيرًا. لكنّ شهقة واحدة لم تبدر منها. تغيّر نور عينيها وعاد إلى الحياة، والتمع وسط هذا القناع من التجاعيد حبّها الرائع، الباهر والكبير لابنها، وكان مشرقًا كطلوع الفجر في عرض البحر.

ضغط قيافا على مرفقي بشدّة حتّى خلته يعضّني.

- لقد قُضي علينا!

لم أقوَ على الردّ. تركته هناك وعدت راكضًا إلى البلاط.

أمر مّا أثّر فيّ لدى تلك الساحة ولم أستطع قوله له ولن أبوح به لسواك: في عينَي هذه العجوز اليهوديّة لمحت، لوهلة، نظرة أمّنا.

سأواصل الحكاية لاحقًا.. مادامت الذكرى قد أحكمت قبضتها عليّ.

لك كلّ عاطفة أخيك، وكن بخير.

من بيلاطس الى العزيز تيتوس

يبدو لي منصب والي يهودية أشبه بمنفى. يقود الحنين جهودي وسعيي لفرض احترام روما أكثر مما يفعله الواجب. يشدّني الحنين إلى روما حيث أطمح إلى العيش مجدّدًا. أحيانًا تزيد هذه الرغبة من هشاشتي حتّى صار كلّ أمر غريب ومختلف يصدمني ويبدو لي همجيًّا؛ وأرغب في التقوقع، دافنًا رأسي بين فخذيّ وإبهامي بين شفتيّ، وبالعودة إلى مدينة الذئبة[1]. غمرتني هذه الموجة التي جعلتني أعود في الزمن حتّى إنّني قطعت حكايتي، والشوق إلى مدينتي وإلى أمّي ينهشني، إحداهما حيّة والأخرى ميّتة، لكن كلاهما غائبتان.

أيقظت طبيبي سرتوريوس ليهدئ من روعي، فدلّكني مطوّلًا. تضوّعت رائحة تين جافّ من إبطيه، والغريب أنّ هذه الرائحة الحامضة طمأنتني. جعلني أتحدّث عن قلقي وأنصت لي بملامح مهدّئة يملكها العلماء. عيناه ضيّقتان وشفتاه حازمتان ورأسه يومئ تأمينًا وتشجيعًا. لسرتريوس موهبة احتواء مشاكلي. كان يهتمّ كثيرًا لكلّ ما أتفوّه به وقادرًا على إضفاء معنى على أيّ تفصيل تافه. لقد روّح عنّي وخفّف توتّر جسدي. عند انصرافه، لاحظت بداية صلع أعلى رأسه وتهدّلًا في كتفيه، وخمّنت أنّ طبيبه خضع، هو أيضًا، لإرادة الزمن، وزاد ذلك في اطمئناني.

---

(1) تقول الأسطورة إنّ التوأم ريموس وروميولوس، مؤسّسي مدينة روما، أرضعتهما ذئبة بعد تخلّي والديهما عنهما.

تناولت ريشتي مجدّدًا لأروي لك أحداث هذا اليوم المرهق.

غادرتُ قيافا عند دخول مريم المجدليّة لأورشليم كي تزعم أنّ يشوع بُعث حيًّا. منذ تلك اللحظة، لم أعد أتوهّم. لو تغاضينا عن رواية سالومي لوحدها، فإنّه كان لتأكيد مريم المجدليّة أن يغذّي الإشاعة. طافت الحكاية بأورشليم من لسان إلى لسان ومن امرأة إلى أخرى. في الواقع، لم تتناقل الحكاية سوى النساء وذلك ما نزع عنها مصداقيّتها، لكنّه ضمن لها في الوقت نفسه انتشارًا سريعًا. ذلك المساء، عندما انتهى إلى أورشليم رجلان يؤكّدان رؤيتهما يشوع، أدركت أنّ الداء استفحل وأنّه كان عليّ جمع قواي كلّها للقضاء على العدوّ الذي قام بهذه المؤامرة.

اعتكفت ببرج قلعة أنطونيا حيث جلب لي عيوني خطاب الرجلين. صفّفت العناصر جنبًا إلى جنب بعناية. مثّلت كلّ الأحداث علاماتٍ؛ بين السطور، كان عليّ إيجاد الفكرة التي تنظّمها وتنصب لي هذا الفخّ.

تحدث الحاجّان مثل سالومي ومريم المجدلية تمامًا. عند مغادرتهما أورشليم عقب أعياد الفصح، في طريق عودتهما ليلًا، وعند اقترابهما من ايمايوس، اعترضهما رجل يضع قلنسوة ويجلس على قارعة الطريق. انضمّ إليهما. لم يكونا على معرفة به لكنّ أمرا مّا عند هذا المسافر بدا مألوفًا. تحدّثا وعبّرا عن آمالهما التي أودعاها يشوع وعن خيبتهما من جرّاء إعدامه. هنا رافقهما المسافر إلى خان ايمايوس وأعلمهما بأنّهما في حلّ من الشعور بالحزن والخيانة لأنّ

يشوع لم يزل بينها. تعرّفاه على ضوء فوانيسهما. وطلب منهما يشوع العودة إلى أورشليم ليذيعا الخبر السارّ. ثمّ اختفى دون أن ينتبها. ما بدا لي مريبًا أوّلا، كان التشابه الهائل بين هذه الروايات كلّها. أخي العزيز، أنت مثلي تعلم طبيعة البشر...: نعلم جيّدًا أنّ الشهود لا يرون أبدًا المشهد نفسه وبالخصوص لا يقدّمون التقرير نفسه. أرى التنوّع والتفرّد وحتّى تناقض الإفادات الضامن الوحيدَ لمصداقيّتهم. في هذه الحالة، كان التطابق التامّ للروايات يتضوّع كذبًا. أحدهم درّب شهود الزور بعناية تامّة وأراد إضفاء وهم الحقيقة عبر هذا التطابق. لم يتبقَّ لي سوى اكتشافه. عزيزي تيتوس، هنا تجلّت عبقريّة أخيك. عندما قارنت الإشارات، لمحت اليد الخفيّة. زعمت سالومي أنّها رأت يشوع عند عودتها إلى قصر هيرودس. ولقيته مريم المجدليّة في بساتين يسميث، وهي مزارع تملكها أسرة هيرودس، وإليها يأتي هيرودس للصيد عند إقامته بأورشليم. قرب ايمايوس يوجد البيت الصيفيّ الذي يحبّه هيرودس. هيرودس، هيرودس، هيرودس! كان يحرّك خيوط المؤامرة. دون تردّد، رافقت ثلّة من الجنود إلى قصر هيرودس الصغير. لم يخفِ أمين قصر، شوزا أنّه فوجئ وانزعج حال رؤيتي. عضّ على شفتيه حتّى حبس عنهما الدم والتمس عذرًا ليمنعني من الدخول.

– جلالتها نائمة. لقد عادت من الصيد. احتفلت وثملت كثيرًا.

– شوزا الطيب، أشكّ كثيرا أنّ هيرودس يشرب النبيذ الآن.

أيقظه، اسكب الماء على وجهه -إنّه لا يطيق الماء- وأدخلني.

اختفى شوزا. تناهت إلى سمعي دمدمة وصراخ من داخل القصر، ثمّ ظهر شوزا أخيرًا متأفّفًا وفتح الأبواب البرونزيّة الكبيرة المؤدّية إلى قاعة الاجتماعات.

- بيلاطس! صديقي بيلاطس! أجل.. في كامل الإمبراطوريّة!

في آخر القاعة، كان هيرودس شاحبًا جدًّا، مستلقيا على كومة من الوسائد مثل صدفة مفتّحة ويخاطبني بإشارات من ذراعيه.

- بيلاطس! بيلاطس! رائحتك ذكيّة تضاهي رائحة سيّدة! بشرتك أنعم من بشرة أيّ مومس! لا بدّ أن تيبريوس يحبّك كثيرا!

كنت معتادًا على إطراء هيرودس، ذلك النفاق الصوتيّ المشبع بصيغ مبالغة وإيحاءات جنسيّة، ذلك النفاق البارز المليء ثرثرة شرقيّة. صار هذا التزلّف بمرور الزمن يمثّل صراحته، وطريقته في التعبير عن سروره بلقائي واستقباله لي عن طيب خاطر.

- انظر يا قاهر القلوب هذا! حليق، أملس الشعر قصيره، منتوف الساقين والذراعين، جسده مدهون ومعطّر بالطيب. قالوا لي إنّك تستحمّ يوميًا يا بيلاطس البتطي! كلّ يوم، هل يمكنك هذا حقًّا؟ يا للرقّة والكياسة! لا شكّ أنّ زوجتك الجميلة كلوديا بروكولا سعيدة بزوج أملس مثل حصاة! من حسن حظّها أنّها لم تتزوّج أحدًا منّا. كان سيغمى عليها من رائحتنا

النتنة. ولاسيّما أنا الذي يبغض الماء. اسأل هيروديات، قردتي الهرمة!

انفجر ضاحكًا. لقد تعلّمت ألّا أنتبه إلى ألفاظه الفاحشة التي تفوح من خطابه؛ كان عليّ حملها على مزاجه المرح.

نظرت من حولي وانتبهت إلى بعض الجواري عاريات وممدّدات على سرر أخرى. علّق هيرودس على تطرقي المتفحّصة:

- آه لو لم تُحط بي الأجساد الشهيّة من كلّ جانب لشعرت أنّني أسكن قبري من الآن. أنا في الستّين، هل تعلم، لي بضع شعيرات وفقدت كلّ أسناني. هل نفقد شهيّتنا بمجرّد فقدان قدرتنا على القضم!

-أعرفك وَرِعًا.

اكفهرّ وجهه، وبإشارة واحدة طرد أمين قصره وكلّ الشهود الآخرين.

أوصدت الأبواب دوننا ونامت الجواري.

- لا أستطيع لمسهنّ. في شبابي كنت أكسر الجوز بقضيبي. كان صلبًا كخشب الزيتون يا بيلاطس. أمّا اليوم فلا أقوى على إيذاء حبّة تين متعفّنة. ماذا عنك؟

اكتفيت بالضحك كردّ على سؤاله. كنت أعلم أنّ أيّ محادثة مع هيرودس ستستهلّ بالفحش.

-ماذا عنك؟ أصرّ قائلًا.

- لم آتِ لأحدّثك عن مآثر ما بين فخذيّ يا هيرودس.

- مآثر؟ إذن كلّ شيء على ما يرام! هنيئًا لك. سألتك لأنّي أظنّ أحيانًا أنّ عجزي سببّه السلطة أكثر من تقدّمي في السنّ. لكن لو تسألني.. وتيبريوس؟ إنّه أكبر منّي سنًا ولديه سلطة أقوى! حسب علمك، يعني حسب علمك، هل مازال قادرا على..

- لا أدري يا هيرودس.

كذبت طبعًا. نعلم جميعنا أنّ تيبريوس كان مضطرًا إلى إقامة حفلات عربدة ومجون صاخبة ليستثير رغبته، لكنّني لم أتردّد في مجانبة الحقيقة لكي يغيّر هيرودس الموضوع.

- يعني بالطبع، هذا ما روي لي يا هيرودس.

- إذن؟ سألني في شوق.

- لقد بقي تيبريوس... شبقًا جدًّا.

سقط رأس هيرودس على صدره اشمئزازا. بدا كمن انتزع منه آخر أمل لديه.

- أنت محقّ يا بيلاطس. لا يزال تيبريوس قادرًا على الإنعاظ. لهذا يبقى تيبريوس تيبريوس وهيرودس لا يعدو أن يكون مجرد هيرودس.

أطلق شخيرًا فأخافتني سمعته بوصفه سكّيرًا من أن يشرع في

البكاء على سوء حظّه. غيّرت دفّة الحديث فورًا بعدما قدّرت أنّ فترة التمهيد قد انتهت.

– هيرودس، لقد أتيت لأحدّثك عن يشوع.

– ما الذي يمكن قوله؟ إنّها مسألة منتهية. امسك، اشرب كأسًا. أنصحك بنبيذ شالاس، إنّه أكثر حلاوة من نبيذ لاسوم، لكنّه أسهل هضمًا من نبيذ كالزار الأبيض.

– نحن ثعلبان يا هيرودس، والثعالب لا يخدع بعضها بعضًا طويلًا. أعرفك جيّدًا. منذ رحيل والدك، قُسّمت فلسطين على أربع. أنت الوحيد الناجع والجدير بين الإخوة الأربعة. تحكُم الجليل، مقاطعتك، بقبضة من حديد. وحدك تستحقّ لقب رئيس الربع. هل أذكّرك برأيي في أخيك الأكبر؟ أعاني من عدم كفاءته في يهوديّة. أمّا إخوتك الباقون، وهذا ما لمسته قبلي، فلن يصبحوا سوى أشباه ملوك بلا حول ولا قوّة. وحدك تملك موهبة التربّع على العرش، علاوة على شرعيّة نسبك.

قاطعني هيرودس مقهقهًا:

– من إطرائك إيّايَ على هذا النحو، أشعر أنّك تخفي عنّي أمرًا جللًا. أنا متشائم.

– صبرًا يا هيرودس، صبرًا. أنتم اليهود خضتم قرونا من الغزو والاحتلال والاستعباد. تاريخكم سلسلة من الخضوع المتكرّر.

هل تعلم السبب؟ ليس لأنكم ضعفاء، بل على العكس، لا تنقصكم القوّة والشجاعة. إطلاقًا، السبب هو أنكم متفرّقون كثيرًا. حتّى إيمانكم بربّكم الأوحد تعيشونه بطرق مختلفة تجعلكم تتخاصمون. أنت نجل هيرودس الأكبر، أنت الوحيد خليفته، أعلم بما تحلم: وحدة وطنك تحت راية ملك واحد وعقيدة واحدة. لقد اخترت نفسك ملكًا. أمّا بالنسبة إلى العقيدة، فقد اخترت يشوع، أو بالأحرى دين يشوع. ومع هذا تقرّر أن تطرد كلّ غريب عن أرضك، وأوّلهم أنا دون شكّ.

نظر إليّ هيرودس مبتسمًا.

- بيلاطس، هل أنهيت؟

- ليس بعد !

- سأجيبك بعد أن تتمّ موعظتك إذن. هلّا سمحت لي باحتساء كأس عوض تدوين كلامك؟

- لقد اهتممت كثيرًا بالمتنوّرين الذين جابوا بلادك. يزعم بعضهم أنّ مردّ ذلك إلى ورعك وتقواك، لكنّني أشكّ أنّ في الأمر حسابات سياسيّة. تبشّر توراتكم بقدوم رجل، المسيح كما تسمّونه، ينحدر من صلب داود، سيوحّد كامل شعب بني إسرائيل. وقدم يوحنان الغطّاس على ضفاف نهر الأردن، أرضك. اهتممت به، طمعت في استغلاله، ثمّ اكتشفت أنّه ليس طيّعًا بما يكفي وأنّه يبغضك أنت وهيروديا،

فأعدمته. ثمّ ظهر يشوع بعد ذلك. أعلمني جواسيسي بأنّك لقيته وتحدّثت إليه. على خلاف يوحنان الغطّاس، سمحت له بإلقاء مواعظه وتجميع الرجال. قلت: «سمحت له» لأنّ الأمر وقع على أرضك، في الجليل. إشارة واحدة منك ويختفي يشوع مثل يوحنان. على عكس ذلك، أذنت له بالتجوال وتعبئة الأتباع خلفه. لقد لاحظت أنّ هذا الرجل كان أكثر ثوريّة وشعبيّة من أي نبيّ آخر. غيّر حديثُه الناسَ، تبعه الناس صاغرين، وترك رجالٌ راشدون مِهَنَهم وساروا معه وعاشوا على الصدقة. لقد أدركت أنك ستوظّفه من أجل انتفاضة اليهود.

- روايتك آخّاذة يا بيلاطس. إنها تفيض خيالًا واسعًا. أتساءل كيف ستنهي حكايتك.

اجتذب يشوع عددًا كبيرًا من المؤمنين على أراضيك، لكن كان عليه القدوم إلى هنا، إلى أورشليم، ليُتمّ دعوته. لسوء الحظ، لم يره كهنة السنهدريم، ولاسيّما قيافا، رؤيتك له. لقد تصدّوا ليشوع. شعرت بالخطر فقدمت إلى أورشليم.

- آتي إلى هنا كلّ سنة.

- ليس بمناسبة عيد الفصح بالضرورة. وليس لما تضطرّك أعمالك إلى البقاء في الجليل. لكنّه كان يفترض أن تبقيك حرائق طبريّة هذا العام على أراضيك. غير أنك أتيت على الرغم من ذلك. أردت أن تدعم يشوع. عند أبواب المدينة،

سألته الرحيل وكشفت له مؤامرة الكهنة ضدّه. كان عنيدًا ورفض الانصياع لك. علمت حدوده وأدركت أنّه لن يكون حليفًا ملائمًا لك، لكنّك لم تَرُم المنديل. أردت إنقاذه لكي تستخله فيما بعد. لكنّ خيانة أمين الصندوق، يهوذا، مكّنت الكهنة من اعتقال يشوع ونصب محاكمة له في المساء نفسه. تلك الليلة، كنت مضطربًا، وحاولت التدخّل. أخبرت الكهنة بأنّ مجلسهم لا يملك سلطة التنفيذ حتّى بعد إصدار حكم الإعدام. وهكذا، لجأ إليّ السنهدريم وسلّموني إيّاه. عندها، أرسلت إليّ شوزا، أمين قصرك، الذي ذكّرني بأنّ يشوع أصيل الجليل وأن تواجدنا بأورشليم يجعل القانون يفرض علينا تسليمه لك أنت، هيرودس، رئيس الربع بالجليل. تخلّصت من يشوع مسرورًا وأرسلته إليك. استرجعت يشوع. تمّ إنقاذه وقد يكتب لمخطّطك النجاح. تظاهرت بالتحقيق معه ثمّ رددته إليّ زاعمًا أنّه غير خطير. لم تضع في الحسبان إصرار قيافا الذي تحيّن عودة يشوع إليّ وتحريره الوشيك، فضغط عليّ مجدّدًا وطالبني بتنفيذ حكم السنهدريم. كلّنا نعلم النهاية. قضى يشوع نحبه على الصليب.

– أجل، صلب يشوع. انتهت قصّتك الألمعيّة نهاية سيّئة، لكنها انتهت.

– إطلاقًا. ألا تعترف بالهزيمة. لقد سرقت الجثّة ليلًا وخبّأتها

هنا دون شكّ، في بلاطك، وهو والمعبد المكانان الوحيدان اللذان لم يفتّشهما رجالي، ثمّ قرّرت إطلاق أسطورة يشوع.

نهض هيرودس غاضبًا وقد اختفت كلّ سخريته وغطرسته.

- ماذا! أيّ أسطورة؟

- هلا انتهيت من ادعاء البراءة يا هيرودس. ترهق نفسك وترهقني. خضت تحقيقًا واسعًا حتّى علمت أنّك مصدر الإشاعة.

- أيّ إشاعة؟

- تلك التي همست بها في آذان سالومي ومريم المجدليّة وزوج الحجّاج من ايبايوس. لا شكّ أنّ الأمر كلّفك ثروة من الذهب.

- أيّ إشاعة؟

- أنّ يشوع بعث حيًّا.

- هل هذا ما يقال؟ حقًّا؟

شحب وجه هيرودس ومال إلى الاخضرار، ودارت عيناه الجاحظتان في محجرَيهما، ورفع يديه إلى عنقه كأنّه يختنق، وارتعشت شفتاه وهو يلهث.

- بعث يشوع؟ لقد قتلت يوحنان الذي بشّر به.. ثم قتلت يشوع نجل الربّ..

انهار على سريره مطلقًا حشرجة وتجمّع الزبد حول شفتيه.

– ويلي من عذاب الآخرة. أنا ملعون..

تشنّجت أطرافه بعنف كأنّه كلب يرى كوابيس. استحييت من هذه المسرحيّة فأنهيتها حازمًا.

– هيرودس، توقّف عن هذه الخزعبلات. أنا لست أحمق ولست جمهورك. سأعود إلى حصن أنطونيا لكي أحرّر تقريرًا إلى تيبريوس. سأنتظرك إلى الغد حتّى تنهي هذه الخرافة. وإلّا، سوف يقرّر تيبريوس بنفسه نوع عقابك على عصيانك. وداعًا.

واصل هيرودس ارتجافه على الوسائد كأنّه لم يسمعني. في البداية، أعجبتني حيلته، لكنّني وجدته مثيرًا للشفقة فيما بعد.

عدت إلى القصر. وبطبيعة الحال، لم أشرع في كتابة تقريري إلى تيبريوس، لأنّني كنت واثقًا أنّ هيرودس سيكون عند وعده، وسيسلّمني الجثّة، وأنّ الأمور ستعود إلى نصابها.

عندها، سأنجز مهمّتي دون إزعاج الإمبراطور.

وحدك تعرف البؤرة التي أشتغل فيها. أنت فقط من يشكّ في نفاق من أحدّثهم، ومتاهة الحيل التي يضطرّونني إلى استعمالها. لتحافظ روما على مكانتها، لا تستعمل أسلحتها. لدينا الذكاء والسلاح؛ القوّة والحكمة. هنا، الجميع مراوغون وسلاحهم الإشاعة؛ بصيص أمل في الضباب.

رغم رضائي عن أداء مهمّتي على أكمل وجه تلك الليلة، فأنا

أشعر بأنّني مدنّس من أثر المراوغة التي سلكتها لأحقّق مبتغاي. غدًا أكتب إليك لأؤكّد استجابة هيرودس، ولأعلمك، وآمل ذلك، بعودتي إلى قيصريّة. في الأثناء، كن بخير.

من بيلاطس الى العزيز ليتوس

شدّ ما ساءتني أحداث اليوم التي أتهيأ لسردها عليك وأزعجتني، لكنّها تنتهي دومًا على نحو لا أجرؤ حتّى على رجائه. أتشوّق إلى منحك الخاتمة رغم أنّه لا قيمة لها دون الاستنتاجات التي خلصت إليها.

تعلم جيّدًا حالتي ليلة أمس. كنت أظنّ أنّني كشفت ألاعيب هيرودس المعقّدة. هدّدته برفع الأمر إلى تيبريوس وانتظرت توبته اليوم علمًا، أنّ ذكاءه يفوق شجاعته.

طلب المقاتل بورّوس لقائي فجرًا. كان وجهه محتقنًا عندما سألني بصوت خفيض:

– هل يمكن أن يكون ذلك المسجيّ القابع، في باحة القصر، أحد ضيوفك؟

عبر النافذة، أشار إلى كراتيريوس وهو ممدّد نصف عار في أسماله البالية.

– طبعًا، كان كراتيريوس معلّمي قبل أن أصير رجلًا. إنّه فيلسوف ذو خطر كبير.. ألا تعلم؟

احمرّ بورّوس أكثر.

- هذا، لا أشكّ في قوّته. يكفي أن تنحني قليلًا لترى بنفسك.

- إلامَ ترمي؟

تمعّنت المشهد في الأسفل بانتباه ولم أقوَ على كبت صرختي. نزلنا السلالم بسرعة وانضممنا إلى كراتيريوس.

- أهلا بيلاطس، اليوم جميل!

كراتيريوس متبرّم في العادة، لكنّه استقبلنا بابتسامة عريضة. نزع الجلود التي كان يرتديها، وتمدّد في ضوء الشمس الصباحيّ. لم يكن حلمًا. كان قضيب كراتيريوس الهائل منتصبًا في العراء، وكان يهدهده في قلب باحة القصر. لم يغيّر وجودنا ولا ذهولنا من إيقاع حركة يديه على قضيبه.

- أخالني سأبقى برهة في أورشليم، تابع كراتيريوس، تحدّثت أمس إلى زوجتك، كلوديا بروكولا -سيّدة راقية- وشرحت لي الديانة اليهوديّة التي وجدتها، لعمري إنّها تستحقّ الاهتمام، بل وعجيبة أيضًا. هل تعلم أنّها الأقرب إلى الفلسفة بين جميع الأديان التي خبرتها!

إنّها، مثل معلّمينا الإغريق، تتحدّث عن إله واحد أوحد.

كان كراتيريوس يتحدّث بجدّية ورزانة كأنّ يده لم تكن مشغولة بأسفل بطنه. لكنّني لم أقوَ على الإنصات له، كنت أرى ذلك التحرّر بين ذهنه وأعضائه التناسليّة ضربًا من المستحيل.

أشرت إلى موقع الحركة وسألت كراتيريوس:

قل لي، كراتيريوس، هل تأتي تمرينًا فلسفيًا؟

– فلتقل علاجيًّا. علاجيًّا ونفسيًّا! علاجيًّا لأنّ الجسم يمتلئ منيًّا، كما أشار أبقراط، وعلينا مساعدته ليتخلّص من مائه. ونفسيًّا، لأنني أعتزّ بحرّيتي في التفكير والعمل، ولكيلا أصبح عبدًا لخصيتيّ، فأنا أحرص على إفراغهما كلّ صباح، خشية أن يتراكم المنيّ ويصعد إلى رأسي فأجنّ وارتكب بعض الحماقات.

– ما الذي تراه حماقة حقًّا؟

– أن أصبح عاطفيًّا! أن أتعلّق بأيّ فتاة ممتلئة الخصر والفخذين، وأحمل عنها جرّتها، وأتهوّر وأشبعها إطراء، وأطلق وعودًا. والحال أن لا شيء من هذا القبيل سيصيبني لو أتيت شهوتي بمفردي كلّ صباح. أنصحك بهذا السلوك بيلاطس. ألم أحدّثك عنه فيما مضى؟

لم أجبه ونظرت إلى العضو المذنب. هل سببه الحديث عن الخادمة؟ بدت لي اليد في اشتغال تامّ وقد قربت النشوة.

– يعتبرني الناس شهوانيًّا، قال وقد زاد من إيقاع قبضته، والحال أنّي أبغض الجسد، أبغض الجنس، أريد التخلص. امم.. من هذه القذارة.. اه!

أنهى كراتيريوس رياضته الصباحيّة برعشة النشوة، ومسح مخلّفاتها بالجلود التي يرتديها.

- أين كنّا؟ اه أجل، بيلاطس، لهؤلاء اليهود ديانة ذات فائدة. كما سبق وقلت لك، يدعون إلى ربّ واحد، وهذا ما بدا لي الذكاء بعينه. من اناكساغوراس إلى سقراط، هذا الطريق الذي سلكه فكر الحكماء. إذا وُجد الإله فهو واحد. لا تصوّر الإله إلّا واحدًا، مطلقًا، بديعًا، مصدرًا للوحدانية، وسببًا للوجود. أليس مدهشا أنّهم يتقاسمون بكلّ عفوية النظرية ذاتها التي أتى بها كبار فلاسفة الإغريق؟ مصادفة غريبة! التوحيد، لقد اكتشفه المفكّرون تدريجيًّا بإعمال العقل؛ لكنّ اليهود أوحي إليهم منذ بداياتهم! علاوةً على ذلك، كما تقول كلوديا بروكولا -سيّدة استثنائية، يا بيلاطس وأرجو أن تنتبه إلى ذلك- فإنّ اليهود يؤكّدون أنّ أوجههم قادم وليس من الماضي، هل تتصوّر؟ بينما تتطلّع الديانات، وحتّى الفلسفة، إلى لحظات تأسيسهم في حنين، يتقدّم اليهود ويتطوّرون! يضعون أملهم في السعادة بين أيدي المستقبل، ينتظرون، يأملون، كأنّ التاريخ لا يمثّل لهم حلقة دائريّة، وإنّما حركة إلى الأمام، سهمًا يتّجه نحو هدفه. هذا ما شرحت لي كلوديا بروكولا أمس وقد ذكرت كتابين. هي في الواقع سيّدة مذهلة، تسمو عاليًا على طبقتها الأرستقراطيّة، أتساءل ما إذا كنت تستحق فعلًا زوجة مثلها.

وافقت كراتيريوس تمامًا في هذا الشأن: لم أفهم يومًا كيف اختارتني كلوديا بروكولا من بين عشرين آخرين أوفر مالًا واطلاعًا ومجدًا.

- لزوجتك إحدى الخصال النادرة لدى النساء: الاستقلالية. لها ذوقها الخاصّ وأفكارها الخاصة وأحكامها الخاصة. تتنقل كما تشاء. ولا ترى أنّ زواجها قد يعيق حرّيتها. ستهجرك لو خيّبت ظنّها يا بيلاطس. هي إلى جانبك لأنّها تحبّك، وتحقق كلّ صباح من دوام حبّها لك. لقد حدّثتني عن فيلسوف أصيل هذه الربوع يدعى يشوع، كان يدعو إلى عقيدة لم تشذّ كثيرًا عن عقيدة ديوجين العظيم. حياة بساطة وزهد، ازدراء الجبابرة، إجلال المرأة واحترام الرجال الجديرين بالاحترام. سأسأل عن هذا الحكيم.

- حسن، اسأل. لكن، رجاء يا كراتيريوس، تجنّب تدريباتك العلاجيّة والنفسيّة أمام الملإ. خلافًا لما تعتقد فإنّ اليهود لا يشاطرون الإغريق إجلالهم للفلسفة ولا حتّى فضول الرومان. لا يحترمون سوى شريعتهم، يبدون حياة شديدًا ويعاقبون كلّ فاحشة بقسوة. يتهدّدك الموت رجمًا قبل أن أتمكّن من التدخّل لصالحك.

رفع كراتيريوس كتفيه، واتجه نحو المطبخ لكي يقتات من البقايا.

ثمّ قدم رسول من هيروديات ليخبرنا بأنّ الملك هيرودس يحتضر. ربّ عذر أقبح من ذنب. كان هيرودس يريد ربح الوقت بشتّى الوسائل. انطلقت إلى بلاطه متبوعًا بعشرين مقاتلًا. نشرت رجالي حول القصر، ثمّ طرقت أبواب هيرودس. أسرعَ شوزا، أمين قصره، وخرّ أمامي على ركبتيه.

- هيرودس يحتضر يا سيّدي.

شدّ ما أزعجني هذا الأنين وهذه المبالغة التي تميّز الشرقيّين، فتجاوزت شوزا وفتحت الأبواب وصولًا إلى قاعة الاحتفالات. كان هيرودس ممدّدًا على فراش كبير كأنّه ميّت معروض في تابوت. اقتربت من الثعلب الذي كان يفتعل نومًا عميقًا ليتجنّب التحدّث إليّ. دنوت من وجهه المليء دهونًا حيث تساقطت مساحيق التجميل، وقد خثّرها العرق، في شكل قشور فوق بشرته المجعّدة الهرمة. راقب سرتوريوس، طبيبي الذي أحضرته، أنفاسَ هيرودس المنتظمة.

- إنّه نائم.

- أيقظه.

حقنه سرتوريوس في ذراعه بغلظة. لم يتحرّك جسده. ولم ترتعش حتّى جنيات أنفه. قاطعنا صوت ارتفع من أعماق القاعة:

- لو كان نائمًا لندّ عنه شخير.

كانت الملكة هيروديا تقف بين شمعدانين ضخمين، يحيط بقوامها فستانٌ فخم وقد لطّخت وجهها المساحيق. شدّ ما قاومت أثر الزمن حتّى استبقته تمامًا. لقد زادت مساحيق الزينة والشعر المستعار من سنّ سيّدة أربعينيّة جميلة. تقدّمت نحوي وهي تتغنّج في مشيتها دون حياء.

- ليس ميتًا، لكنه انخرط في سبات عميق.

- هل ذلك خطير؟

-أرجو ذلك. تزوّجت هذا القذر التي على أمل أن أصير أرملته. إنّه يعلم ذلك. أليس كذلك هيرودس؟ ألا أبغضك وأنتظر أن يتعفّن جلدك؟

لم يطرف جفنا هيرودس الرخو. ولم أتمالك عن الضحك من سلوك هيروديا.

- أرى أنّك لازلت تحبّينه.

- دومًا، أجابت هيروديا في دعة.

فحص طبيبي هيرودس واستنتج أنّ رئيس الربع لا يشكو شيئًا خطيرًا، لكنّه تعرّض لصدمة حادّة جعلته يفقد الإحساس بنفسه. إنّه معرّض للتخلّص من هذا الخدر أو للبقاء على حالته فحسب.

- سيفيق، جزمت هيروديا، يفيق دومًا. لقد فعلها معي سابقًا عندما استلم رأس يوحنان على طبق. بعد أيّام ثلاثة، رجع إلى عاداته المقرفة. فعلت به زيارتك بالأمس ما فعل به جزّ رقبة الكاهن القذر. ما عساك قلت له؟

رويت لها، في نبرة صارمة لكي أبهرها، كيف فوّضت مخطّط هيرودس، وكيف أمرته بإخماد كلّ الشائعات التي نشأت حول نبش القبر. أنصتت لي هيروديا في اهتمام، بعينين برّاقتين وملامح شاخصة. صمتت برهة طويلة قبل أن تردّ:

- أنت مخطئ يا بيلاطس. ألمعيٌّ استنتاجك هذا الذي يهدف إلى اتّهام هيرودس، لكنّه مفرغ بامتياز. ذلك القذر ماكرٌ

جدًّا، وأنت لا تولي اهتمامًا لما يلي: هيرودس متشبّع بعقيدة أجداده ولا يحيد عن الشريعة أبدًا لأنّه تقيّ جدًّا. لم يتقبّل أنّني انتزعت منه موت يوحنان المغطّس؛ كان يراه نبيًّا حقًّا، وقد خاف كثيرًا لأنّه اغتال كاهن الربّ. لم يكن يعاشرني منذ زمن بعيد، وبعد هذا الحادث، لم يعد يتحدّث إليّ أيضًا. عندما ظهر يشوع، وقد بشّر به يوحنان المغطّس على أنّه المسيح الحقيقي، علّق عليه هيرودس أملًا كبيرًا. ودّ مساعدته وعرض عليه مالًا ليشرع في دعوته. لكنّ يشوع سخر منه. لم يشعر هيرودس بالإهانة. كان يرى النبوءات تتحقّق واحدة تلو أخرى وتثبت هويّة يشوع. عندما أعلن الناصريّ عن رغبته في الذهاب إلى أورشليم، بمناسبة عيد الفطير، لكي يتمّم دعوته، حزم هيرودس حقائبنا لكي نشهد نصره. ولمّا أعتقل يشوع، لم يخف هيرودس لحظة واحدة، إذ كان واثقًا أنّ يشوع سيقضي على خصومه بوضع سدّ من اللهب بينه وبين القضاة، أو أنّه سيقوم بأيّ معجزة أخرى. لقد عوّدنا يشوع بشفاء الكثير من المرضى. عندما علم هيرودس من جواسيسه أنّ السنهدريم لم يقف إلى جانب يشوع، وأنّ أعضاءه استاؤوا من سلوك يشوع العنيد، وصوّتوا على موته بالإجماع، تدخّل واستعمل ثغرات في القانون ليرسل إليك الناصري. وتلك الليلة..

توقّفت برهة، مرعقّة عمّا سترويه لي. رمت برأسها إلى الخلف، ثمّ عالجت رأس أحد خواتمها بحركة خاطفة، وسحبت منه ذرّة من

مـــحوق وضعته على لسـانها وعلى جفنـيها المغلقين، وبدت في كامل قواها مجدّدًا.

- لا شيء يسير وفق المتوقّع، يا بيلاطس، لا شيء. استقبل هيرودس يشوع بكلّ لطف، وأعلمه أنّه سينقذه. أجابه يشوع أن لا أحد كان يستطيع إنقاذه، وبالخصوص هو، هيرودس؛ كان عليه أن يعيش قدره. كان عليه أن ينقذ الناس وليس هو من يجب إنقاذه. لم نفقه شيئًا. كان يشوع يتمنّى الموت، وقال إنّ موته محتّم. بدا لنا منهارًا، منحطّ المعنويات. كنّا حالمين ورجوناه أن يثوب إلى رشده ويأتي شيئًا من معجزاته. كان له جواب وحيد: كتب عليه الاحتضار والموت في ظروف فظيعة. ظننت دومًا أنّه كان محتالًا، لكن هيرودس أدرك، تلك الليلة ولأوّل مرّة، فكرتي. انخرط في غضب رهيب، وشرع في شتم يشوع مطالبًا إيّاه بإتيان معجزة في حضرتنا. لم يحرّك الناصريّ ساكنًا، وبقي واهنًا، خائر الكتفين كأنّه لصّ قُبض عليه. حرّض هيرودس القصر بمن فيه من عسس، وخدم، وعبيد؛ هاج الجميع على يشوع يشتمونه ويسخرون منه. بالغنا في استفزازه طمعًا في ردّة فعله. عوضًا عن ذلك، بقي الناصريّ رخوًا كدمية من القشّ وترك الجميع يدوسونه، ويشتمونه، ويلطخونه، ويجسّونه، ويقبّلونه، وقد حملت عيناه خضوعًا حزينًا ضاعف من غضب جميع المشاركين. أخيرًا، من شدّة اشمئزازنا وخيبة أملنا، أخيرًا، أرسلناه إليك يا بيلاطس، على تلك الحال التي تعلمها،

قذرًا، ممزّق الأسمال، تكسوه حمرة قانية، لسخر من زعمه تأسيس مملكة، ولتعلم أنّ الأمر يتعلّق بمحتال بغيض. بالمناسبة، وجب عليّ القول إنّنا كنّا سنمزّقه شرّ ممزّق ونقتله تلك الليلة لو لم نتّفق مسبقًا على ردّه إليك.

تنهّدت مطوّلًا. تحسّرت على تأخير إعدامه. كانت هذه المرأة الغريبة مهووسة بالقتل.

- إذن يا بيلاطس، بعد أن علم هيرودس بإشاعة بعثه حيًّا، رأى نفسه يقتل رسول الربّ ثانية. أظنّك تفهم الرعب الذي تملّكه وأرسله في سبات إلى مجاهل خالية ومطبقة، يلتجئ إليها عندما يفقد الشجاعة على الحياة.

تطلّعت إلى عينيّ في حزم.

- هل تؤمن بهذا البعث؟

- إطلاقًا بطبيعة الحال.

- ولا أنا أيضًا.

التفتت وسارت نحو تمثال من الذهب والعاج وداعبته مطوّلًا بيديها ذواتا الأظافر الرائعة. كانت تفكّر، وشعرت أنّنا لم نعد نتقاسم الغرفة ذاتها من شدّة تأمّلها. بغتة، تجعّد جبينها وتوقّفت عن لمس المنحوتة، ثمّ حدّقت فيّ بعينين نصف مفتوحتين، كأنّها تفتّش عن الحقيقة في أعماق بؤبؤ عينيّ.

- هل خامرك شكّ في نسخة شبيهة منه؟

- ماذا؟

- ما صدمني في كلّ الشهادات هو أنّ النساء و الرجال لم يتعرّفوا يشوع فورًا. كان الرجل يعتمر قلنسوة لم ينزعها إلّا قليلًا ثمّ توارى عن الأنظار. قد يكون نسخة بنسبة تشابه ضعيفة.

- لم يكذب الشهود إذن، وإنّما وقعوا في شراك نسخة من يشوع.

- بطبيعة الحال. لا شيء أكثر هشاشة من شاهد زور. والحال أنك تجد الشاهد النزيه، والشاهد الذي وقع ضحيّة خدعة مسرحيّة، والشاهد الذي تعرّض للتعذيب، يصدحون كلّهم برؤيتهم يشوع حيًّا.

أدركت فورًا مغزى هذه الفرضيّة. تركت هيروديا، ثمّ وجدتني مجبرًا على عرض خدمات سرتوريوس عند مغادرتي.

- هل تودّين أن أترك لك طبيبي لكي يسهر على صحّة هيرودس؟

عبست هيروديا في ازدراء.

- لا فائدة في ذلك! فهيرودس ثابت وراسخ ومعمّر مثل عشبة ضارّة لا تنتظر الربيع لتزهر.

كشّرت هيروديا إثر هذه الكلمات. لا شكّ أنّها كانت تبغض هيرودس بشدّة. عبرت أورشليم مفكّرًا في اقتراحها. من الممكن أن يبرّر انتحال الشخصيّة هذا الإيجاز الشديد الذي أحاط ظهور

يشوع بهالة من الغموض. كان الرجل الذي يلعب دور يشوع يظهر في الظلام بحذر كبير، متخفّيًا تحت قلنسوّته؛ ويشرع بالحديث مع ضحيّته ليختبر مدى حزنها، ومن ثَمّ ميلها المحتمل إلى تصديق عودة يشوع؛ وعندما تبتلع السمكة الطعم ويصبح المصلوب محطّ انشغالهم، ينزع الرجل قلنسوّته.

رغبت في أن أشاطر قيافا هذه النظرية، فبعثت رسولًا إلى المعبد، فقدِم الكاهن الأعظم، دون إبطاء، يجرّه الغضب.

– انزل إلى السوق وأنصت لهم يا بيلاطس: لا تنبس شفاه النسوة بغير اسم يشوع. هذا ما ينتظرنا لو تقاعسنا معهنّ: نسوة يفكّرن، ونسوة يبدين آراءهنّ! لِمَ لا نجد نسوة في السلطة أيضًا؟! يتجمّعن في الساحة العامّة ويطالبن ببداية عهد جديد! ليت موسى يشهد هذا! علاوة على ذلك، أيّ نسوة شهدن ظهور يشوع؟ سالومي؟ مريم المجدليّة! شبقيّة لا تكتفي وأخرى عاهرة! كلتاهما بارعتان في فنّ ما تحت البطن! متحمّستان تهتديان وتمرّان من البغاء إلى التصوّف! من نشوة إلى أخرى!

– ألا تزال مريم المجدليّة هذه تمارس مهنتها؟

– تزعم هذه الآثمة أنّ يشوع أبعدها عن الرذيلة. سهل جدًّا! لقد فهمت أنّها أدركت أرذل العمر. سافلات، كلّهن سافلات!

تركت قيافا يواصل توبيخه، ثمّ اغتنمت أخذه نفسًا، فعرضت

عليه نظريّتي الجديدة. أنصت لي منزعجًا في البداية، ثمّ باهتمام وأخيرًا بارتياح:

- أنت محقّ طبعًا يا بيلاطس: إنّ يشوع يتعقّن في مكان مّا بينما انتحل آخر دوره. لكن من؟

فكّرنا سويًّا. عبر النافذة، رأيت ضوء النهار يخفت. اصطبغت السماء بلون أرجوانيّ، واختفت ظلال الأجساد من الطريق. كانت اللحظة المبهمة التي ينقضّ بها الليل والنهار أحدهما على الآخر دون أن ينتصر كلاهما. شعرت بخمود تلك اللحظة الساكنة.

لم يستطع أحدنا أن يظفر بشبيه ليشوع في ذكرياتنا، لأنّ يشوع لم يكن يحمل ملامح متميّزة. لم نتذكر أيّ ميزة معيّنة. لم أستحضر سوى نظرة واحدة، نظرة تحمل حدّة مريبة.

تركني قيافا وقد وعدني بالتفكير في الأمر واستشارة أعضاء السنهدريم. لكنّني لم أجد الطريقة ناجعة: ربّما أتى الشبيه من مكان آخر، من الجليل مثلًا، ولم نكن نعرفه. لا، كان عليّ القبض عليه متلبسًا، لكن كيف السبيل إلى توقّع ذلك؟ فحصت أماكن ظهوره وتوقيتها لأعثر على طرف خيط. لم أجد شيئًا، سوى.. سوى مخاطرة أكبر. لقد استهلّ هذا المحتال مسرحيّته مع سالومي التي لم تكن تعرف يشوع كثيرًا! ثمّ واصل مع حجيج ايمايوس الذين اتبعوا يشوع لأسابيع عديدة. ثمّ شجّعه نجاحه وتجرّأ على الاقتراب من مريم المجدليّة التي ألفت الناصريّ منذ سنوات.. لا شكّ أنّه يعتزم الظهور على المقرّبين من يشوع. من سيختار أوّلًا؟ أتباع يشوع؟

أسرته؟ سيفضّل العائلة حتمًا لأنّ أتباع يشوع حُجّرت إقامتهم بأورشليم. لو استطاع إقناعهم، فقد قضي الأمر.

دعوت أربعة رجال فحسب، من ضمنهم بورّوس. طلبت منهم التخفّي في معاطف التجّار وحملتهم ليلًا إلى ساحة النافورة، حيث قدمت مريم المجدليّة تذيع الخبر السارّ على مسامع أمّ الساحر.

انتشر رجالي عبر الظلال ليترصّدوا حول بيت القرميد الصغير.

لن أزيد من تشوّقك أخي العزيز. أثناء دورة الرصد الثالثة بعد منتصف الليل، ظهر في الشارع ظلّ رجل يحمل قلنسوة. كان يخطو بحذر شديد، ولا يكفّ عن الالتفات. كان يحترس مثل لصّ. حبسنا أنفاسنا. بدا متردّدًا. هل حزر مكمننا؟ لم يحرّك ساكنًا لوهلة. ثمّ اقترب من بيت مريم مطمئنًّا إلى الهدوء من حوله. أمسكت رجالي. ارتبك مجدّدًا، التفت، ثمّ طرق الباب. عندها، انقضّ عليه رجالي، طرحوه أرضًا وشلّوا حركة يديه ورجليه وألصقوا رأسه بالبالوعة القذرة. دنوت منه ونزعت عنه قلنسوّته فتراءى لي وجه تلميذ يشوع الأصغر سنًّا وقد تغيّرت سحنته.

يوحنان ابن زبدي، هو نفسه، الذي هرول من قبل عائدًا إلى رفاقه ليخبرهم باختفاء الجثّة، هو نفسه الذي تمنّى عون الملاك جبرائيل، قد حلق لحيته ودهن جفنيه بالفحم حتّى صار يشبه سيّده تقريبًا... أخذته المفاجأة أكثر من الرعب، فلم يقاوم. تلقّفتني أحاسيس متباينة، شعرت بارتياح عند اعتقاله، وأصابني اشمئزاز من هذه المؤامرة، حتّى إنّني لم أنبس ببنت شفة. حملناه إلى حصن

أنطونيا ورميا به في زنزانة بالقبو. إنّه يجثم تحت قدمي الآن. سأحقّق معه أثناء فترة الحراسة الرابعة، عندما يخفت اشمئزازي من هذا السلوك المخادع.

هل تذكر سقطتي في سنّ الثامنة عندما كنّا نلهو فوق سطح البيت وقد علقت قدمي بلبنة؟ لقد نجوت منها بأعجوبة. لم أخف ساعتها، لكنّني خفت فيما بعد. أمضيت ساعات طويلة مرتجفًا وخائفًا من الميتة التي تفاديتها. الليلة، عشت الموقف ذاته: بدل الاحتفاء بنهاية القضيّة، انتفضت مفكّرًا بكلّ المخاطر التي تجنّبتها.

غدًا، أطلعك على تفاصيل استجوابي.

في الانتظار، كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

ما المفاجأة؟ حدث غير متوقّع يثير فينا الحزن أو الفرح؛ سريعة هي المفاجأة؛ ويمحى منّا أثرها دومًا، سارّة كانت أو سيّئة. لكن ماذا نسمّي مفاجأة بلا نهاية؟ هل هي سهم يستقرّ في ارتباكنا؟

نزلت إلى الزنزانة ليلة أمس. لم يكن هناك سوى يوحنان وبرفقته الليل. كان الفتى ملقًى على بطنه، ذراعاه متقاطعتان ووجهه إلى البلاطة. عبر قضبان النافذة تسلّلت حزمة أشعّة أطلقها قمر خافت. كان طويلًا، مثل يشوع. كان لباسه الأبيض يلائم منكبيه العريضين وخصره الرفيع وردفيه القويّين وساقيه الطويلتين.

تجوّلت مطوّلًا في أرجاء الحصن الساكن. تجمّدت بردًا. لا

أحبّ ليالي الربيع الباردة التي لا تفي بوعود دفء النهار. تأمّلت يدي يوحنان دون أن يراني، كان باطنا كفّيه ملتصقتين بالأرض وبداه ناعمتين كزغب الخدود.

– اقترب يا بيلاطس ما دمت تشتعل رغبة في الحديث إليّ.

اختلجت. تردّد صوته أسفل السقف المقبّب دون أن يحرّك ساكنًا.

– اقترب.

ابتسمت. بالغ يوحنان في محاكاة بشوع حتّى صار يتكلّم مثله بهذه النبرة القاتلة المتخفّية خلف قناع من الرقّة، هذه الألفة الغريبة التي لا تفرّق بين راعٍ وإمبراطور.

تقدّمت من القضبان وهمست:

– وضعيّة غريبة للصلاة.

– كان على هذا الوضع عندما قضى نحبه على الصليب، مثل أيّ مجرم. سأصلّي هكذا من هنا فصاعدًا. منذ قليل، تخيّلت المسامير مدقوقة في قبضتيّ.

لملم أطرافه بغتة، ثمّ استدار وجلس قبالتي. أحاطت ذراعاه بركبتيه والتمعت عيناه السوداوان بينما اصطبغ شعره الطويل بزرقة في ضوء القمر الباهت.

– أردت أن أشبهه إلى أقصى حدٍّ ممكن، وأن أقلّده ما دمت حيًّا.

جعلتني نبرة الصدق التي تردّدت في صوته أشكّ في جنونه.

هل كان يرى في نفسه معلّمه يشوع؟ هل خدع الشهود رغمًا عنه، دون نيّة سيّئة ربّما؟ لعلّه لم يكن يعي أنّه يغالطهم؟

كان عليّ الشروع في استجوابه.

- مهما قالوا عنه في السنهدريم، اعتقدت دومًا أنّ يشوع رجل صادق وعادل.

- هل تلقّيت حتّى أنت نور كلماته يا بيلاطس؟

كم أبغض هذه البلاغة الخاصّة باليهود، تلك الصور المتحمّسة، ذلك الخبز اليوميّ لفكرهم الضبابيّ. أعدته إلى حجمه.

- إطلاقًا. لأنّني ببساطة تلقّيت تنشئة إغريقيّة وحافظت على فضولي إلى الحكماء.

- لكنّ يشوع ليس حكيمًا!

- بلى، حكيم أخرق، حكيم عنيد، مثل سقراط الذي مات لأنّه لم يشأ الإنكار.

- يشوع ليس حكيمًا!

خلت أنّني تملّقته بهذا الإطراء الهائل -قارنت معلّمه بسقراط- لكنّني فشلت في تقليص المسافة بيننا، وأقام ذلك جدارًا من الصمت. انغلق الفتى تمامًا.

- لماذا تنتحل شخص يشوع؟

نظر إليّ دون أن يفهمني وقد بدا ذاهلًا حقًّا. شرعت أتساءل

عمّا إذا كان الناس يرون يشوع في يوحنان دون أن يدرك هو ذلك.

- اسمعني يوحنان. كان هناك شبه طفيف بينك وبين يشوع وقد حلقت لحيتك لتغذّي هذا الشبه. فكرة جيّدة. سوّدت جفنيك بالفحم لتبدو مرهقًا وأكبر سنًا. أخفيت وجهك بقلنسوة، وحاكيت صوته، وعندما كنت تجد محادثك جاهزًا للوقوع في الالتباس، كنت تكشف وجهك للحظات وسط العتمة.

- إطلاقًا.

- بلى. إذن، لماذا قمت بذلك وأنت يهوديّ ورع؟ لا يحلق يهوديّ تقيّ لحيته!

انفجر يوحنان ضاحكًا.

- لم أحلق لحيتي لأتشبّه بيشوع، وإنّما لأراوغ حرّاسك. لقد نهيتنا، نحن أصحاب يشوع، عن دخول أورشليم. لكنّني كنت أعلم أنّ أشياء كثيرة ستحدث هنا. تجاوزت منعك وقرّرت الاختفاء. لبست قلنسوة لهذا الغرض. نعم، لقد اختفيت وعشت في السرّيّة، لكنّني لم أنتحل شخص يشوع.

- لماذا ذهبت إلى والدته؟

- كان يشوع يحبّ أمّه حبًّا جمًّا وأنا واثق أنّه سيأتي ليبلغها الخبر السارّ. وددت الحضور لأنزوي في ركن وأشهد ظهوره من جديد.

حيّرني هذا الفتى. كان يؤمن إيمانًا عنيفًا بكلّ ما قاله ولم يكن قادرًا على الكذب.

– أتوسّل إليك يا بيلاطس. دعني أذهب إلى بيت مريم. لا أريد أن يفوتني الأمر.

أمسك بيدي ونظرته تتوسّل إليّ.

– بعد ذلك يا بيلاطس، سأقبع في السجن قدر ما تريد، يمكن لك حتّى صلبي. لا يهمّ، ما دمت سأرى يشوع. دعني انتظره في بيت مريم.

ابتعدت لكي يفلتني. خرّ أرضًا وهو يتوسّل. طالما أنّ هذا الفتى لم يكن يكذب، فإنّ عليّ التثبّت من صحّة فرضيتي الثانية: لم يكن مخادعًا متعمّدًا وإنّما كان مخادعًا دون وعي منه.

– هل تنفي انتحالك شخص يشوع؟

– طبعًا.

– هل لاقيت سالومي ابنة هيرودس مؤخّرًا؟

– أجل.

– ومريم المجدلية؟

– أجل.

– وحاجبيّ ايبايوس؟

– طبعًا.

كان يعترف دون دهاء. كان يجهل أثره عليهم.

- ما رأيك في شهاداتهم؟

- أنا أحسدهم. بيلاطس، أرجوك، دعني أنضمّ إلى يشوع في بيت والدته. لا أحتاج إلى رؤيته بعينيّ لكي أصدّق، لكنّني سأكون سعيدًا جدًّا بلقائه. اتركني لحال سبيلي. أعدك بتسليم نفسي فيما بعد.

تركته يصرخ، ثمّ صمت. أدرك أنّني سأبقيه في الزنزانة، فانبطح أرضًا على شكل صليب، وشرع في الصلاة مجدّدًا. رأيته يهدأ وعاد تنفّسه إلى انتظامه.

ألقى الفجر بألوانه الشاحبة على قضبان النافذة. خمّنت أنّ من الأجدر أن أرتاح قليلًا قبل مواجهة يوم جديد. نهضت لأغادر السجن.

- أحبّك يا بيلاطس.

نطق يوحنان بهذه الكلمات حين رآني منصرفًا. تسمّرت في مكاني.

- أحبّك يا بيلاطس.

التفتّ نحوه وكلّي رغبة في شتمه لكي أخرسه.

- توقف عن التحدّث مثله!

- لقد علّمني ذلك بنفسه.

- كيف تزعم أنّك تحبّني؟ احتجزتك في السجن؛ سأسلّمك

للسنهدريم بعد سويعات؛ قد لا ترى نور الشمس مجدّدًا؛ وتزعم أنّك تحبني؟ تحبّني أنا، أنا الذي أعدمت معلّمك!

– لقد طالبنا بأن نغفر لك و هو على الصليب.

– أنا؟

– أنت و الآخرون. لقد همس لنا: «أبانا، اغفر لهم لأنّهم لا يعلمون ما يعملون».

دون وعي منّي، ارتقيت على القضبان، وجذبته وشرعت أهزّه في عنف.

– ليس أنا، أتسمعني، ليس أنا. لست مضطرًّا إلى أن تحبّني! ليس عليك أن تغفر لي! لا أريد ذلك!

– لا تكن متكبّرًا. كان يشوع يحبّك.

طفح الكيل. كان يوحنان يهدّدني وهو في زنزانته. صار هو القنّاص وصرت أنا الطريدة. تراجعت إلى العتمة لكي أحتمي من طيبته التي لا تطاق.

– أنتم مجانين! مجانين! قياقا على حقّ: يجب إلجامكم. علينا إعدامكم جميعًا!

– ألا ترغب في حبّي لك؟

– إطلاقًا، لا أرغب في حبك. أفضّل اختيار من يمنحني حبّه، ومن أمنحه حبّي. هذه ملكيّة خاصّة.

- أنت محقّ يا بيلاطس. ما هو مصيرنا لو أنّنا جميعًا أحببنا بعضنا بعضًا؟ فكّر بهذا بيلاطس. ما هو مصيرنا في عالم يفيض حبًّا؟ ما هو مصير بيلاطس، والي روما، الذي يدين بمنصبه للاحتلال وكره الآخرين وازدرائهم؟ ما هو مصير قيافا، كاهن المعبد الأعظم، الذي يتزلّف إليك بالهدايا ويعزّز سلطته بواسطة الخوف الذي يزرعه؟ هل سيوجد يهود وإغريق ورومان في عالم يسوده الحبّ؟ أقوياء وضعفاء كالعادة، أثرياء وفقراء، رجال أحرار وعبيد؟ أنت محقّ يا بيلاطس عندما تتوجّس خيفة: سيهدم الحبّ عالمك. لن تشهد مملكة الحبّ إلّا على أنقاضك.

هل أستطيع أن أعترف لك بهذا، أخي العزيز؟ هربت من مواجهة كلّ هذا القدر من الجنون. غادرت حصن أنطونيا قاصدًا بلاطنا. تسلّقت السلالم المؤدّية إلى جناحنا مسرعًا وهناك، كما يجد التائه في الصحراء بئرًا، ارتميت في فراش كلوديا. كانت نائمة على جنبها فالتصقت بها، وداعبتها لتفيق. ابتسمت لرؤيتي وصاحت في سرور:

- بيلاطس، لقد وددت أن أقول لك...

أطبق فمي على شفتيها. كنت أفيض حنانًا، وبنوع من البهجة المتوحّشة، ورغبة شديدة في ضمّ زوجتي ومداعبتها ومضاجعتها. تقلّبنا في فراشنا. أرادت المزيد من الحديث، لكنّ فمي منعها. استسلمت أخيرًا والتصق أحدنا بالآخر تمامًا ومارسنا الحبّ مطوّلًا بكلّ عنف.

عندما فرّقتنا النشوة، استلقينا جنبا إلى جنب، ثمّ نهضت كلوديا وجاءت لتجلس أمامي.

– بيلاطس، لديّ أمر على غاية من الأهمّية سأقوله لك.

– أنك تحبّينني كلوديا؟

– هذا ما قلته لك منذ لحظات.

تبادلنا القبل مجدّدًا.

– بيلاطس، لديّ أمر آخر سأقوله لك، أمرٌ لا يصدّق، مزعج.

ثمّ صمتت. قبّلتها في عنقها لتشجيعها.

– نعم؟

– لقد رأيت يشوع هذه الليلة. لقد ظهر لي. لقد بعث حيًّا.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

كيف أنهيت رسالتي إليك ليلة أمس؟

ما عدتُ أعلم.

أفكّر بصعوبة.

تتحدّى الوقائع كلّ منطق، وترتع وتتّخذ مسارات مجهولة وتهرب عبر الخلاء. تصرّ كلوديا عليّ أن أتتبّع تلك الوقائع، وأن أستنبط منها أفكاري. لا أقدر على ذلك. لا أستطيع التخلّي عن المنطق السويّ، الذي يتمسّك باحتمالين لا غير، الحياة أو الموت،

وليس الاثنين معًا. هذه الأيّام، كما سبق أن قرأتَ، أكثرت من استعمال الحيل حتّى أحافظ على ثقتي.. في التفكير المنطقيّ. كنت أنتهي إلى الفشل كلّ مرّة وتصفعني الحقيقة، حقيقة عنيدة، عبثيّة، غير مقبولة، لا تخطر على بالٍ، مرعبة ومذهلة.

لم ترَ كلوديا يشوع، أمّا أنا فكنت أحتجز شبيهه في زنزانة بحصن أنطونيا فحسب. لقد ظهر يشوع لأنه أيضًا ثمّ لشوزا، أمين قصر هيرودس، في الليلة ذاتها، وزفّ لكليهما ذلك «الخبر السارّ».

لا أفهم ما لذي يكونه هذا الخبر السارّ. قدّرت أوّلًا أنّ الأمر يتعلّق بخبر بعثه، إذ من البديهي أنّ العودة بين الأحياء مبهجة جدًّا، لكنّ كلوديا أكّدت لي أنّ الأمر لا يمكن أن يحصر في مجرّد فكرة شخصيّة وأنانيّة. حسب كلوديا، لم يعش يشوع من أجل ذاته فحسب، ولم يمت من أجل نفسه، ولذلك لن يعود من أجل نفسه أيضًا.

وهي واثقة من أنّه اختار الظهور أمامها، هي الرومانية. رغم أنّه اصطفاها، فهي غير قادرة بعدُ على فهم الرهان ولا تزال مقتنعة بأنّه سيرسل إشارات أخرى.

تخيّل موقفي.. قد أشكّ في كلّ الشهادات إلّا شهادة كلوديا بروكولا. بظهوره لزوجتي، وهو ما أشكّ فيه، فإنّ يشوع كان يقصدني أنا. كان يريد إقناعي. لكن بماذا؟

لماذا يظهر ثمّ يختفي في الوقت ذاته؟ لماذا هذا المزيج من الحضور والغياب؟ لو كنت مكانه، متّهمًا زورًا، ولو عدت من الموت بمعجزة،

ماذا كنت أفعل؟ أفرّ من جلّادي إلى بلد آخر. أو أُفيد من المعجزة لأظهر بكلّ جرأة وأحتمي خلف سمعة الحصانة. سأختار موقفًا واضحًا. أختفي أو أظهر للعيان. لا يتّبع يشوع هذا المنطق. إنّه يتحايل، يخادع، يراوغ ويبثّ البلبلة ويحيط نفسه بالغموض. كيف أطارد خصمًا لا أستطيع فهمه؟

حاولت عبر استنطاق كلوديا وحثّها على تقديم تفسير، لكنّها كانت مضطربة مثلي، لأسباب أخرى طبعًا، وتعبت في إثارة دواخل الناصريّ.

– علينا فهم نصوص الشريعة اليهوديّة، كانت تقول لي.

ذهبت لاستشارة نيقوديموس، عضو مجلس السنهدريم، العالم، الخبير بأدقّ تفاصيل الفقه المتشعّب.

رجتني كلوديا اصطحابها. تخفّينا في معاطف الحجيج لأنّ زيارة والي روما وزوجته الى نيقوديموس قد تكون غريبة، واتجهنا صوب حيّ الخزّافين، ملفوفين، مقنّعين، وتجاوزنا ساحة الأبرياء ثمّ طرقنا الباب. أبطأ نيقوديموس في فتح الباب. عندما تفحّصنا من كوّة الباب، رفعت رأسي قليلًا لكي يتعرّفني. تحرّكت المزالج فأدخلنا وأحكم إغلاق الباب خلفنا. لم أتصوّر بيت فقيه على هذا الشكل: تخيّلته مليئًا لفائف ومخطوطات، لكنّني لم ألمح سوى رفوف خالية وجرّة محطّمة. حزّر نيقوديموس دهشتي.

– لقد صادروا كلّ ما أملك. لامني قيافا على إتصالي ليشوع، ومحاولتي تجنيبه المحاكمة، وعلى حمل جثّته إلى القبر أيضًا.

لقد صبّوا جام غضبهم عليّ منذ ظهوره للعيان. حوّلني عجزهم القاهر إلى كبش فداء.

كان الرجل يبتسم.

– تركوا لي بيت أبي إلى حدّ الآن. أظنّ أنّهم سيفتكّونه بعد أسبوع أيضًا وسأسلَب كلّ شيء.

لم تبدُ عليه علامات التأثر. كان سعيدًا وصبّ لنا الماء فيما تبقّى له من أقداح.

– نعيش لحظة فارقة؛ فضلٌ مبين أن نشهد الربّ الخالد في الدنيا. يا له من شرف عظيم! لمَ نحن؟ الآن وهنا، لماذا؟ حمدًا للرب! كان موسى أوّل من بشّر بمقدم نبيّ وإرساله عهدًا جديدًا. ثمّ داود، حزقيال، اوزيوس، وخاصّة جيرميا، كلّهم تنبّؤوا عن طريق الوحي ببعث المسيح. ثمّ ظهر يشوع. وعلى خلاف كلّ الأنبياء الحقيقيّين الآخرين أو منتحلي صفة المسيح، فإنّه حقّق كلّ النبوءات واحدة تلو أخرى. أوّلًا، قيل إنّ المسيح سيولد في بيت لحم، وقد ولد يشوع هناك. وإنّ أوج دعوته سيتمّ بأورشليم، وقد تسبّب يشوع في شغب كبير بها. عندما بلغ سنّ الرشد، تعرّف إليه يوحنان المغطّس، آخر نبيّ قبل مجيء المسيح، وسط حشد كبير، وجثا أمامه وأعلن أنّه ظهر بأرض فلسطين. تسارعت الأحداث إثر ذلك وأخذ يشوع يحقّق النبوءات. «ابتهجي كثيرًا يا بنت جبل صهيون! أطلقي صيحات الفرح يا بنت أورشليم! هذا مليكك قد أتاك عادلًا،

مظفّرًا ومتواضعًا، يركب حمارًا، حمارًا يافعًا». مثلما توقّع حزقيال تمامًا، فقد دلف يشوع إلى أورشليم يركب أتانًا لم يسبق أن وضع عليها سرج؛ تعرّف الناس العلامات، ففرشوا الطريق عباءات، ووضع آخرون أغصانًا وسعفًا جلبت من الغابة؛ كان الناس الذين يمشون في المقدّمة والذين يتبعون على حدّ سواء يصيحون «أوصنا! مبارك الآتي باسم الربّ!» هنا، على جبل الزيتون، حسب زكريّا، سيتجلّى الربّ يوم القيامة. كان كهنة المعبد حانقين يأمرون الأطفال بالصمت، وكان يشوع يردّ عليهم «لم تقرؤوا الكتاب المقدّس إذن: ألم يتصاعد الثناء من أفواه الأطفال!» طبعًا، زعم البعض أنّ يشوع كان يستغلّ معرفته بالكتاب المقدّس لكي يجهّز ردوده وتنقّلاته. لكن طالما أنّه متحيل، فلماذا يخاطر بتوقّع المستقبل؟ هل تذكرون غضبه في الهيكل، عندما قلب المناضد والأوضام وكلّ ما يحبس الثيران والنعاج، وعندما طرد التجّار بسوطه. برّر فعلته مستعملًا الكتاب المقدس: «سيدعى بيتي بيتَ الصلاة لكلّ الأمم، وأنتم جعلتم منه حانة للصوص»، ثمّ غامر هو أيضًا بنبوءة «اهدموا هذا الهيكل، وسأشيّده في ثلاثة أيّام». لم يفهم الكهنة شيئًا وانخرطوا في الضحك. «تطلّب بناء هذا المعبد ستًّا وأربعين سنة، لتأتي أنت وتقيم صرحه في ثلاثة أيّام!» وهذا ما فعله حقًّا، وما أدركناه سوى هذه الساعة. إنّ الهيكل الذي كان يتحدّث عنه هو جسده. جسده الذي بعث حيًّا بعد أيّام ثلاثة! ثلاثة أيّام!

حتّى هذا الإقرار القاطع على التلميح إلى وجود تلاعب بالألفاظ، لكنّ كلوديا استوقفتني بضغطة على يدي.

– هل اقتضت النبوءة أيضًا إعدام المسيح على صليب مثل أيّ لصّ وضيع؟

– طبعًا. لقد حذّرنا أشعياء «سينجح عبدي، قال الربّ، سيصعد وسيتجلّى ا ذهل الجمع لأنّه كان مشوّهًا حتّى صار لا يشبه بشرًا. سيعتقل وسيحاكم ثمّ سيعدم ويدفن مع الكفّار. ظلِمَ ولم يفتح فاه. كشاة تساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازّيها فلم يفتح فاه».

أنتم معشر الرومان والإغريق لن تتخيّلوا أحد آلهتكم يدعي في هوان مماثل، أنتم تخلطون بين القداسة والجسارة. والحال أنّ بإمكاننا استخلاص معنى من العذاب.

رضي المسيح بالموت من أجل خلاصنا. لم يحمل على الصليب آثامه فحسب، وإنّما آثام الأمّة. «حمّله الربّ ذنوبنا جميعًا، قال أشعياء. لقد جعل من حياته قربانًا للتكفير عنّا. كان يحمل خطايا الجميع ويشفع للمخطئين». لقد تكبّد كلّ آثامنا لأنّه خبر العذاب وتكفّل بنا. إنّه يسألنا أن نعترف بسيّئاتنا ونكفّر عنها. آه لو تعلمون، لقد تحقّقت كلّ التفاصيل في الكتاب المقدّس، حتّى الصغيرة منها. قلنا «لن يحطّم عظم واحد من عظامه»، وأنت يا بيلاطس، لم تبتر أوصاله ولم تمزّقها؛ لقد أنزلناه سليمًا من فوق الصليب، أنا أشهد بذلك، كنت هناك رفقة يوسف الرامي. يقول الكتاب المقدس: «سينظرون

إلى الذين طعنوه»، بينما يقف جنودك أسفل الصليب. «ستنبع أنهار من قلبه»، وأشهد أنّه عندما يغرز جنديّك رمحه في صدره، فإنّ الماء الممزوج دماء سينبع من صدره. أليس كلّ ذلك خارقًا؟ على الرغم من ذلك، انتابني الشكّ ذلك المساء. أنا أيضًا، مثل قيافا، مثل الكهنة ومثل الجميع، انتظرنا مسيحًا أوفر مجدًا، رجلًا قويًّا، قائدًا عظيمًا أو ملكًا جليلًا. دراستي للفقه جعلتني أنتظر ما قيل حرفيًّا. عندما قال داود إنّ المسيح سيخلّص الأمّة من أعدائها، فكّرت أنّه سيخلّصنا من الرومان أوّلًا. لم أدرك حينها أنّ خطايانا هي الأعداء الذين سيخلّصنا منهم يشوع.

لم يكن عليّ مواصلة المحاورة. لقد تعمّقت كثيرًا في هذه الحماقات اليهوديّة، لكنّني اصطدمت بأمور لا أظنّني أقبلها: الإيمان بهذه النصوص التنبّئيّة التي وضعها ملتحون مسعورون على مدى قرون في أرض فلسطين المضطربة أو أن أفكّر لحظة أنّ يشوع الذي بعث حيًّا قد يكون المبعوث الإلهيّ الذي بشّرت به هذه الحماقات.

- ما الذي ستفعله، نيقوديموس؟

- سأذهب إلى أورشليم. عند العشاء الأخير مع رفاقه، في الأسبوع الذي سبق موته، قال لهم: «بعد أن أبعث حيًّا، سأسبقكم إلى الجليل». نعلم إذن أنّه سيظهر ويتحدّث على الطريق إلى الجليل. ليس نحن من ينتظر المسيح الآن وإنّما هو من ينتظرنا. عليّ إيجاد عمّة.

- لماذا؟

أشار نيقوديموس إلى وركه.

- لا أقوى على المشي أو على ركوب دابّة. لن أقطع المسافات الطويلة إلّا ممدّدًا. ووضعي المادّيّ لا يسمح بعد أن سلبني السنهدريم أموالي. لكنّني سأجد صديقًا يساعدني..

استمتعت بإعاقته في شماتة. بعد كلّ هذه الضبابيّة الدينيّة المنهمرة، سرّتني رؤية نيقوديموس يدلي بتفصيل ملموس.

- عجيب، نيقوديموس. لماذا لم يحاول يشوع علاجك عندما التقيته؟

- لأنّني لم أسأله ذلك.

أجابني نيقوديموس بصدق. اغتظت فصفقت الباب دونه وعدت إلى البلاط.

حلّ الأصيل.

حلّ الليل ولم أهدأ بعدُ. حمل الأفق حزمة الضوء الأخيرة وترك لي قلقي. نظرت عبر النافذة إلى الهضاب، تلك الكتلة الداكنة من المرتفعات التي يحتضنها الظلام. آلمني السكون الصامت والنائم عن الأسرار. إنّه يخفيهم عنّي.

أكتب إليك على متن هذه الأوراق الشاحبة التي تشبه أفكاري. أنا لا أفكّر. أنتظر فحسب. أرفض الخيار بين خطاب حكيم وخطاب أحمق. أنتظر عودة ذهني إلى صفائه. أنتظر من المنطق أن يرتّب الوقائع.

منذ قليل، احتجت فجأة إلى الحديث مع كلوديا، اشتهيت تقبيلها. تسارع الدم في صدري. بدا لي أنّني سأتأخّر عن موعد دعيت له. صعدت إلى مخدعنا، وهنا أدركت سرّ انقباض قلبي. لقد رحلت كلوديا. تركت لي رسالة واضحة فوق الفراش. كان هناك غصن ميموزا يمنعها من التطاير في الهواء. «لا تقلق. سأعود قريبًا». كما تعلم، ألفتُ هذه القصاصات التي تعلن حلول وحدتي الاضطراريّة. كانت كلوديا متعوّدة على هذا الهروب، أعلم أنّها لا تستطيع كبح جماح شطحاتها وأنّني لن أحافظ عليها لو قرّرت عدم تحمّلها.

تمدّدت على الغطاء الحريريّ. كانت الغرفة غامرة بحضورها، رائحة عطرها من العنبر، وذوقها الراقي في اختيار ملابسها النادرة، والمقاعد المنحوتة والمرصّعة أحجارًا ملوّنة، ورؤوس التماثيل العجيبة التي جلبناها من أسفارنا. أينما حللنا، تبعًا لطبيعة عملي، لم أكن أشعر بالراحة في غير فراش كلوديا المشبع برائحتها. هذه المرّة، كنت أعلم أين توجد. لم تذهب في أثر قافلة، أو لتؤنس أبناء أمّ مريضة، أو لتقضيَ بضعة أيّام على شاطئ البحر مريحة رأسها على صدفة باحثة عن أسرارها ومنهمكة في تأمّلاتها التي تحرمها الأكل والشرب. لقد انطلقت إلى الناصرة هذه المرّة.

سأتركها تواصل توهّمها وسأبحث عن حلّ هنا. الغريب في الأمر، أنّني أشعر أنّ الأمور عادت إلى نصابها. لقد شطرت نصفين. بقي جسمي وقوّتي وحكمتي هنا في حصن أنطونيا، أمّا نصفي

الحالم، الحسّاس، الذي يمكنه الرضوخ لسراب الأوهام، فقد رافق كلوديا على طريق الجليل المملوء حجارةً. لثمت غصن الميموزا، وأنا لا أشكّ في وصول قبلاتي الساخنة إلى زوجتي أينما حلّت.

أين أنت أخي العزيز؟ أين ستقرأ رسالتي؟ لا أعلم شيئًا عن الناس الذين سيحيطون بك، ولا عن الأشجار والبيوت التي ستسكن إليها، ولا حتّى لون السماء عندما تفكّ شفرة رسالتي. أكتب إليك لأضمّ صمتي إلى صمتك، أكتب لأقلّص المسافات، وأنتقل من وحدتي إلى وحدتك. نعم، الأمر الوحيد الذي نتساوى به، ويفرّقنا ويجمعنا في آن واحد.

كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز نيتوس

وجدتها.

عاد شقيقك إلى ما كان عليه. آلت الغلبة إلى المنطق. استعاد ذهني صفاءه ولم يتبقَّ لي سوى فرض النظام في البلد.

اختفى كلّ ما هو غيبيّ. لم تعد الأحداث تتعارض مع المنطق، وإنّما على العكس، صارت تساعد في فكّ خيوط مكيدة مراوغة، ماكرة، ذات بأس شديد، مؤامرة شرقيّة حتّى قد تصنع سعادة أيّ شاعر. لم نتخلّص بعدُ من الخطر كلّه في فلسطين، لكنّ خطر فقدان عقولنا يتزايد شيئًا فشيئًا. عندما تنهي رسالتي، ستكتشف أنّ لغز يشوع لم يوجد قطّ؛ لم تتبقّ سوى قضيّة يشوع. إنّها مسألة سويعات.

أسعفني كراتيربوس بالحلّ دون وعي منه. لم يمتثل لأوامر جنودي وظلّ يأكل جالسًا القرفصاء وسط الباحة، بينما كان جنودي يصرخون:

«كلب! كلب قذر! اذهب إلى قاعة الطعام! إلى المطبخ». أمّا هو فقد واصل التهامه وأجابهم في هدوء: «أنتم الكلاب! تحيطون بي عندما أحضر طعامي».

وصلت في اللحظة التي كان سيشتبك فيها مع بورروس، واتجهنا إلى الحمّامات. كان الرخام يتضوّع بخارًا.

- أحب الحمّامات، فهنا يتساوى الرجال، في العري على الأقلّ، فلا أثواب ولا ألوان للتعالي على الآخرين.

وجد كراتيربوس بطبيعة الحال سببًا لافتعال فضيحة مؤنّبًا الشباب ذوي الأجساد اللامعة المنهمكين في تمارين رياضيّة من مصارعة ورفع أثقال.

- مَثَل الرجال الوسيمين دون معرفة كمثل جرّار الرخام المليئة خلًّا. أنتم تثيرون شفقتي! تمضون وقتكم في التمرّن لتصبحوا رُماة وعدائيّين بدل أن تصيروا رجالًا شرفاء. ماذا سنكتب على شواهد قبوركم؟ كان مفتول العضلات؟

ثمّ هاجم صبيًا متخنّثًا كان ينظر إلى الرياضيّين باهتمام كبير.

- ولدت رجلًا. وتودّ أن تصير امرأة؟ لماذا؟ لتتفاقم أزمتك؟

تمكنّا أخيرا من الحديث عندما عزلته في حجرة البخار. أعاد

عليّ فكرة اهتمامه المتزايد بيشوع الذي كان يحسبه فيلسوفًا من الدرجة الأولى، تلميذًا لديوجين، طالما أنّه كان يجوب الطرق ليثير فكر الرجال ويزعزع يقينهم.

– لقد تخلّى عن ماله و أهله مثل ديوجين. عاش رحّالة يقبل الصدقات. هدم جميع العادات والأعراف، ولم يعترف بالقوانين السائدة، وجعل من الفضيلة ثروته الوحيدة. اسمع يا بيلاطس، مثلي ومثل ديوجين، اختار هذا اليهوديّ طريق الكلب.

– كيف تفسّر موته على صليب؟

– لا شيء يستحقّ التفسير. الحكيم الحقّ لا يخشى الموت لأنّه لا يمثّل له شيئًا. لا يؤنّبه ضميره لأنّه اختفى بطبعه. يتعفّن الفكر والخوف والرغبة في جثّة تتعفّن. علينا أن نرى الموت نعيمًا يخلّصنا من كلّ أشكال العذاب، أن نرى الموت فرحة هي السبيل الوحيدة إلى الحكمة.

رويت له بقيّة الحكاية، اختفاء الجثّة، ثمّ البعث من الموت، وظهور يشوع المتعاقب. فرفع كتفيه.

– مستحيل!

– هذا ما قلته أنا أيضًا. لكن كيف تفسّر وجوده إذن؟

– بسيطة : لا يزال حيًّا لأنّه لم يكن قد مات على الصليب.

لم ألمس تماسكًا في وثوق كراتيريوس. ينقصه تفصيل، تفصيل

غريب. بلغتنا أصوات محتجّة من القاعة الوسطى. ذهبت هناك واكتشفت مجموعة من الشبّان يشتمون شيخًا، أو بالأحرى هيكلًا عظميًا يكسوه جلد مترهّل، كان يغطس في الحوض المبلّط. جسده يحمل آثار حروق وقشور جروح لا تزال تحوي قيحًا. طلب الشبّان منه المغادرة بدعوى تلويثه للماء بجروحه المفتوحة، لكنّ القيدوم لم يكن ينصت لهم، إذ انهمك يغطو داخل الماء القاسي البرودة.

عندها، استرجعت صورة لم تمرّ بذهني خلال الأيام الماضية، واليوم صدمتني كقبضة قويّة في بطني: عند زيارتي ضيعة يوسف الرامي، لمحت رجلًا فارعًا، شاحبًا ومصابًا تحلّق الخدم حوله.. ماذا لو كان يشوع؟ يشوع يتماثل للشفاء، ولم يتعرّفه رجال قيافا ولا حتّى أنا ما دمنا نبحث عن جثّة؟

غادرت الحمّام لأفكّر في هذه الفرضيّة وهذا ما سأكشفه لك الليلة، أخي العزيز، بعد التمحيص كلّه.

يشوع حيّ. يتحدّث. يمشي. يتنفّس مثلنا لأنّه ببساطة لم يمت.

لنعد إلى يوم صلبه. أرسلت ثلاثة مدانين، لصّين ومعهما الناصري، إلى الجبل عند الظهيرة. كان يشوع آخر من وُضع على الصليب؛ ثُبّتَ بمسامير بعد نصف ساعة. لكن بعد خمس ساعات، قدم يوسف الرامي إلى البلاط ليعلمني أنّ يشوع نفَق وأنّ بإمكاننا دفنه. كان ذلك في صالحي لأنّ عرض الأموات طيلة أيّام الفصح اليهوديّة الثلاثة كان ممنوعًا. أرسلت بوروس ليتحقّق من موت يشوع، فأكّد لي ذلك. أعدم اللصّان الآخران فأذنت بإنزال الجثث لدفنها.

لكنّ رأي طبيبي قاطع: الموت بتلك السرعة غير ممكن.

شرح لي سرتوريوس أنّ المصلوب لا يموت من جرّاء جراحه رغم آلامها، ولا حتّى بسبب ما تحدثه المسامير التي تثبته إلى الأخشاب من نزيف.

إطلاقًا، ليس الصلب إعدامًا وإنّما كرب عظيم، إذ يلفظ المصلوب أنفاسه ببطء. اقترح القضاة طريقة الإعدام هذه لأنّ الاحتضار الطويل يمكّن المجرم من إدراك سوء أعماله. حسب رأي سرتوريوس المعجب بالتفاصيل الطبيّة والقانونيّة، فإنّ للصلب فضائل على الرجم الذي يمارسه اليهود. طبعًا، يُمكّن الرجمُ بالحجارة أولئك القرويّين من إرضاء انتقامهم أو تنفيس ضغائنهم، لكنّ العملية تتمّ بسرعة، صدمة على الرأس تؤدّي فورًا إلى الموت. لكنّ الصلب يعادل حرق الزاني بحياته، أو سكب الرصاص المصهور في الحناجر، رغم أنّ هذه الطريقة تمكّن من الحفاظ على الجثّة لعرضها فيما بعد. حسب خبرائنا، يملك الصلب فوائد ثلاثًا: فهو يطيل العذاب ويؤدّي إلى الموت ويضمن عرضًا يروّع النظّارة ويثنيهم عن الوقوف ضدّ السلطة. لم يدّخر سرتوريوس ثناءه على فوائد الصلب الرمزيّة: يعاقب المجرم بتثبيت يديه التي استعملها في السرقة وقدميه اللتين ساعدتاه على الفرار بمسامير. باختصار، كان الصلب عادةً رومانيّة لا يهوديّة.

كيف يموت المصلوب؟ اختناقًا. يضغط ثقل جسده على ساعديه فيعتصران صدره وتتشنّج عضلاته. ينسحق، يتنفّس بصعوبة ثمّ يختنق ببطء.

- كم يستغرق اختناقه حتّى الموت عادة؟

- في المتوسّط؟ لا أدري.. يجب أن نضع النزيف في الحسبان، والتهاب الجروح، وحرارة الرأس من جرّاء الشمس.. لا تنسَ أنّ سرعة احتقان الرأس والرئتين تختلف من شخص إلى آخر.. في نهاية المطاف، يمكننا القول إنّ المصلوب يموت عمومًا في غضون ثلاثة أيّام.

- ثلاثة أيّام؟

- يقال إنّ بعض الأشخاص الأشدّاء طالت حشرجتهم عشرة أيّام قبل أن يسلموا الروح، لكنّ هذا استثناء.

- مدّة خمس ساعات من الصلب لا تكفي إذن؟

- قصيرة جدًّا. شهدنا أشخاصًا يتعافون إثر فصلهم عن الصليب بعد يوم كامل وتماثلوا للشفاء تمامًا، باستثناء بعض المخلّفات. ربّما كان هذا سببًا لابتكار طريقة كسر الساق.

بحث الطبيب بين معدّاته وجلب جسمًا من الشمع مثبّتًا على صليب. لم يتجاوز ارتفاع النموذج فخذي. علّق سرتوريوس الصليب على مسمار في الجدار ثمّ أمسك بفأس.

- انظر إلى هذه الدمية التي صنعتها من أجل التدريس. يستند المصلوب على قدميه المثبّتين بالمسامير فيريح ذراعيه من تحمّل ثقل جسده. سيبقى معتمدًا على فخذيه ويتنفّس طالما احتفظ ببعض قواه. هكذا يترجّب قطع ساقه لو أردنا التعجيل بموته.

ثمّ حطّم ساقَي المجسّم بضربة فأس. فاكتفت الدمية المشدودة من قبضتيها المثبّتتين بالارتخاء.

– يتمّ الاختناق بسرعة. تُكسّر الساقان كتدبير أمنيّ قبل نزع الجثّة من الصليب.

دعوت بورّوس، المقاتل الذي أنيطت بعهدته مهمّة التحقّق. روى أنّه قطع سيقان اللصين اللذين كانا آنذاك على قيد الحياة ويطلقان الشتائم، لكنّه لم يبتر كاحلي يشوع لأنّه كان ميّتًا.

– كيف أمكنك الوثوق؟

– غُرز رمحٌ في صدره و لم يتحرك.

– لم يكن ليتحرّك أيضًا لو كان فاقدًا للوعي فحسب.

– طبعًا، لكنّ الرمح غُرز في قلبه تمامًا و كان ذلك كفيلًا بقتله.

ارتاب سرتوريوس مثلي تمامًا. ليس كلّ جرح قاتلًا، خضنا ما يكفي من الحروب لندرك ذلك.

دعوت الجنديّ المسؤول إلى مختَبر الطبيب. كان رجلًا من مرسيليا، قصيرًا وسمينًا كثيف الحاجبين.

– هل تريان ما قمت به.

أمسك الرجل الحربة وطعن الصدر. قاوم الشمع قليلًا لكنّ الجنديّ غرزها بعنف، مأخوذًا بلعبة إعادة تمثيل الأحداث. تنفّس الصعداء.

- لقد غرزت الرمح بسهولة أكبر. يعني.. طعنته في القلب.

حانت مني التفاتة إلى طبيبي.

- ما رأيك؟

- أوّلا، أظنّ أن القلب يقع في الجانب الآخر.

ابتعدنا ضاحكين. راح إرهاق الأيّام الماضية يتبخّر مع كلّ قهقهة. كلّما ضحكنا، زاد انعتاقي.

اكفهرّ وجه جنديّ مرسيليا وقد ضمّ قبضتيه، وبدت صحته ضيّقة وجبهته أصغر من جبهة قرد.

- أستطيع تمييز ميّت، على أيّة حال!

- حقًّا؟ قال طبيبي في مقت. كيف تميّز شخصًا ميّتًا؟ حتّى أنا معرّض للخطأ إذا لم أقم بفحص شامل.

- ثق أنني غرزت رمحي بقوّة. وبعمق. والدليل أنّ سائلا مّا قد تدفّق منه.

- تدفّق؟ كرّر الطبيب. بالضبط، الجثّة لا تنزف أبدًا. على أقصى تقدير، سينضح منها دم كثيف، داكن، يسيل بصعوبة لكنّه لا يتدفّق! نستنتج إذن أنّ المصلوب لم يكن ميّتا، وظننت أنّك متحقّق من موته.

- لكنّ طعنتي كانت كفيلة بالقضاء عليه.

- طعنة رمح لا تكفي. قُصّ علينا بدل ذلك كيف كان جسده

عندما فصلته عن الصليب؟ هل كان ساخنًا؟ دافئًا؟ باردًا؟ هل كان ليّنًا أم جامدًا؟

صار جنديّ مرسيليا قرمزيّ اللون وشرد ببصره إلى الأرض. أخذت الكلمة عن الطبيب وأمرت الجنديّ بالإجابة فورًا.

– حسن... يعني... كان صعبًا علينا التفطّن إلى الأمر لأنّنا كنّا ننزل الجثث الأخرى في أثناء ذلك.

– ماذا! لم يكونوا جنودي الذين فصلوا المعلمين!

– لم يكن للآخرين شخص أو أسرة، بينما كان الشخص الذي توسّطهما، الناصريّ، محاطًا بكثير من الناس تطوّعوا للاعتناء به... ومنهم ذلك الشخص الذي زارك.

– يوسف الرامي!

– أجل، لأنّنا كنّا على عَجل...

أخي العزيز، لا يمكنني إخبارك ما إذا كنت غاضبًا أو مرتاحًا. لعبت دور الغاضب وزججت بأولئك الرجال في زنزانة بحصن أنطونيا، فالوالي مضطرّ إلى عقاب كلّ من تقاعس عن تنفيذ أوامره.

قد أتحمّل ضياع هيبتي، أمّا عقلي فلا؛ انتابني شعور بالارتياح بعد الفهم. إضافة إلى ذلك، عندما أقرّ الجنود بعدم لمسهم جثّة الناصري، انبرى أحدهم، محتجًّا وفخورًا بصنيعه، ففتح بصيرتي أكثر:

– لقد فصلنا جثّتين، أمّا اليهود فقد فصلوا واحدة فحسب. بدوا غير معتادين. احتاجوا إلى ثلاث محاولات لفكّ المسمار الكبير في القدمين. نحن مقدامون ولدينا خبرة مع اللحم الميّت. أمّا هم فكانوا يتصرّفون كما لو كانت الجثّة تشعر بشيء مّا.

تلك الليلة، علمت أنّ لي عدوًّا بأرض فلسطين، عدوًّا لم أرتب منه، يتلاعب بقيافا، وبي، وبالسنهدريم، وبرفاق يشوع، وحتّى بيشوع نفسه: إنّه يوسف الرامي الذي يتوقّع ويستبق الأحداث ويضلّل مسار التحقيق. كان يعلم أنّه لا يسمح بعرض أيّ مصلوب أثناء أيّام الفصح اليهوديّة الثلاثة، فنوى استعمال هذه الحيلة منذ البداية: اعتقل يشوع ليلة العيد ثمّ حوكم وأدين، لكنّ الوقت لم يسمح بموته على المشنقة. ساعده أحدهم على حمل الصليب في طريقه إلى العذاب، ليدّخر قواه دون شكّ، أو ليهمس له بالمخطّط كلّه. بعد ساعات خمس، تظاهر يشوع بالموت ونطّ يوسف الرامي إلى البلاط لإخباري. ثمّ جرّر الرجل المحتضر رفقة شركائه وحمله إلى قبره بعناية، وخدّر عسس قيافا لكي يسترجع الجريح ليلًا. أخفاه بين خدمه ثلاثة أيّام ليتعافى. ثمّ شرع في إظهاره للعيان بمقدار ضئيل لأنّ المصاب كان بعدُ ضعيفًا. لكنّ يوسف خشي موت الناصري، فكثّف اللقاءات هذه الأيّام، ثمّ ذهب يخفيه في الجليل حفاظًا على سلامته وزيادة في الغموض. صحّة الناصريّ متدهورة، لذلك سيطلق يوسف قريبًا إشاعة مفادها أنّ يشوع سيظهر مرّة أخيرة قبل أن يلتحق بملكوت الربّ.

سوف يشيع يوسف أنّ يشوع هو المسيح إن لم أسبقه. لو رسّخ فكرة البعث في الأيّام القليلة القادمة، فإنّ ملامح العالم ستتغيّر، سيقضي على جميع الأديان الأخرى، وسوف تغمر العقيدة اليهوديّة البحر واليابسة. هذه الليلة، جاب رجالي كامل فلسطين للقبض على يوسف المحتال وشريكه يشوع. سيصبح ما ظننته قضيّة تافهة من الجليل مؤامرةً تستهدف العالم بأسره...

اطمئنّ فقد ثاب شقيقك إلى رشده. عندما تصلك رسالتي، تكون الأمور قد عادت إلى نصابها. كلّي شوق إلى تأكيد ذلك لك.

في الأثناء، كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

– أعرف سبب سيطرة روما على بقيّة العالم.

كان هذا ما ختم به قيافا، في إعجاب، بعدما قصصت عليه استنتاجي. ثمّ شربنا في سعادة نخبَ حلّ اللغز. بعد كؤوس عديدة من نبيذ لسبوس، ضحكنا من الفخاخ التي نصبها لنا يشوع: يشوع الحليق، الذي لم يتعرّفه أحد، تعالجه النسوة أمام أعيننا بينما كنّا نبحث عن جثّة؛ يشوع الذي ظهر في مناسبات قصيرة لأنّه كان يتعافى، ومنح ظهوره المقتضب طابع معجزة. تسلّينا خاصّة بهذا التفصيل من المكيدة: الكفن والضمائد المتروكة في الضريح. عندما قدم يوسف لحمل الجريح من قبره الزائف، طالب دون شكّ بأن يرتدي يشوع ملابسه كي لا يتمّ التعرّف عليه في أزقّة أورشليم؛

توقّع أيضًا أنّ أصحاب العقول البسيطة الذين سيعثرون على أشياء الناصريّ الدنيويّة سيخلصون بسهولة إلى أنّ الساحر تلاشى بغموض نحو السماء.

عادت الكتيبة الأولى من ضيعة يوسف وأقرّوا فراره. كان قد ترك البيت خاليًا، وترك أغنامه وكرومه لثلاث عجائز هزّهنّ جنودي هزًّا ليعترفن أخيرًا بأنّ يوسف رحل رفقة أهله إلى الناصرة ليلتحق بيشوع.

أمّا الكتائب الباقية فقد جابت طرق الجليل.

الأمر الوحيد الذي اختلفتُ فيه مع قيافا كان تواطؤ يشوع. اقتنع قيافا بذلك ولم أقتنع أنا. كان قيافا يرى يشوع دجّالًا يقظًا، ماكرًا وانتهازيًّا، يغتنم رغبات الناس وضعفهم. يقوم منهجه برمّته على تعبئة غوغائيّة لمؤيديه. كان يعلم ثقل الاحترام اليوميّ الصارم الذي يوليه اليهود للشريعة: تنصّل بمهارة من طاعة الأحكام العمياء وأطلق شعاره: «لقد خلق السبت من أجل البشر وليس البشر من أجل السبت». كان يعلم مدى تحمّل النساء لحصرهنّ في وظيفة الإنجاب بالمجتمع اليهودي: فلامس وجدانهنّ بخطابه المستمرّ عن الحبّ. كان يعلم أنّ الرجال لا يكادون يوفّرون قوت يومهم: فمجّد الفقر وصَم الموسرين. كان يعلم أنّ سكان فلسطين متعدّدو الأعراق ومنقسمون: فخلق فكرة الأخوّة وتوسّع في الوعظ. كان يعلم أنّ الناس يرتكبون آثامًا باستمرار: فابتكر فكرة الغفران. كان يعلم ورع اليهود وشدّة تعلّقهم بتقاليدهم: فزعم

أنه لم يرسل لاستئصالها وإنّها للاضطلاع بها. كان مطّلعًا على أدقّ التفاصيل في الكتاب المقدّس: فحاول جاهدًا تحقيق كلّ النبوءات لكي يعرف الجميع أنّه المسيح المرتقب. كان يعلم أيضًا، حسب الشريعة اليهوديّة، لو أنّه صلب قبل أيّام الفصح الثلاثة فإنّ جثّته لن تعرض على الناس: فرتّب عمليّة اعتقاله، وعجّل بمحاكمته. كان يدرك أنّ عليه ادخار قواه ليصمد سويعات على الصليب: فتظاهر بالعجز وأوكل حمل صليبه إلى أحد المارّة. وعلم أيضًا أنّ جسده سيفصل مساء: فتظاهر بالموت.

سبق أن أخبر بأنّه سيعود بعد أيّام ثلاثة: فاختفى عن الأنظار ثمّ شرع في الظهور. لم يؤمن قيافا يومًا بنزاهة الناصريّ ولم يتغيّر رأيه اليوم. لا أختلف عنه سوى في مشاعر مرتبكة. قد أميل إلى افتراض استغلال يوسف ليشوع، وإلى أنّ هذا الثاني قد يعلن بكلّ عفويّة أنّه حيّ يرزق. هل يتذكّر كلّ شيء يا ترى؟ هل يحسب إغماءه على الصليب ميتة بُعث منها حيًّا؟

أيمكن ألّا يصدّق هو ذاته أنّه بعث حيًّا؟ ما لم أجرؤ على الإفصاح عنه لقيافا هو أنّ السبب الحقيقيّ لاعتقادي في براءة يشوع يُدعى كلوديا. تستطيع زوجتي، أصيلة الأرستقراطيّة الرومانيّة، أن تميّز شخصًا ذا خطابة قبل الجميع. لكنّ يشوع بدّد قلق كلوديا التي عانت من غياب الأطفال في بيتنا، وانتشلها من دموعها ونزفها، وأعاد إليها شعورًا بالثقة والطمأنينة لازلت أجني ثماره منذ أشهر. طبعًا، سذاجة كلوديا أوقعتها في مهزلة البعث، لكن كيف لها أن

تقاوم إخراجًا مسرحيًّا متقنًا كهذا؟ ثمّ، من يضمن أنّ يشوع لم يقتنع حقًّا بموته ثمّ بعثه فيما بعد؟

صعدت إلى قمّة حصن أنطونيا لأعتزل الناس. لم أفصح لعيسى بأنّني أقوم بعملهم. راقبت الأفق واستقصيت أدنى إعصار على الطرقات راجيًا رؤية الكتيبة التي تحمل لي يوسف ويشوع من خلال الغبار.

كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

مازلت أنتظر.

في كلّ لحظة، كنت أختلق سببًا لتأخّر جنودي: حسبت المسافات، الزمن الذي يستغرقه السير، التعب الذي ينال من الجياد، الوجبات والاستراحات الضروريّة. لكنّ نفاد الصبر عطشٌ لا يرويه أيّ تعليل: كم أردت القفز من أعلى حصن أنطونيا، والانطلاق في الفراغ والتحليق فوق الجليل. استشطت غضبًا من رجالي. لو كنت مكانهم لركضت بكلّ عفويّة، دون تردّد، نحو الحظيرة أو الخان حيث يقبع يوسف ويشوع. لا أحتمل القلق الذي يصيب القائد: إلقاء الأوامر ومن ثمّ انتظار تنفيذهم في قلق محبط. كنت أفضّل أن أحلّ مكان أحد جنودي، حتّى آخر جنديّ في الفرقة، لأفتّش الأجمات برمحي، وأقلّب أكوام التبن، وأتحسّس الفرش، وأبعثر الصناديق.

أتى فابيان ليودّعني. كان سيمضي قدمًا في رحلته. كان يشوع يثير فضوله، لكنّه لم يعد يعتقد أنّه الرجل الذي بشّر به المنجّمون لأنّ علامات عديد كانت تنقصه: الدم الملكيّ وعلامة..

– حتّى لو تبعه اليهود التافهون بالآلاف، فإنّ هذا المتسوّل لا يطابق الملامح التي أحلها عن إمبراطور العالم الجديد.

لذت بالصمت، وعيناي شاخصتان إلى طريق الغرب، ولم أجرؤ على الحديث عن كلوديا أو أن أطلب منه إخبارها بمدى شوقي إليها. بدا أنّه يقرأ أفكاري.

– أنت تفكّر في قرينتي، بيلاطس؟

– نعم. الأمر مضحك. لكنّ الحبّ يصيبنا بهشاشة.

– على العكس، بيلاطس، يجعلنا الحبّ أقوياء.

فاجأني فالتفتّ نحوه وتفرّست ملامحه. لم أجد الوسيم ذي العينين البرّاقتين والشفتين المبتسمتين والأسنان البيضاء القويّة، وإنّما رأيت رجلًا حزينًا، أثقلت كتفيه الأحزان المتعاقبة. لأوّل مرّة لا يتسبّب فابيان في غيرتي وعدائي، وإنّما أثار شفقتي التامّة. ثمّ كرّر:

يمنحنا الحبّ قوّة عظمى. تبدو صلبًا، متينًا وراسخًا يا بيلاطس، ليس لأنّك سبّاح ماهر أو فارس مغوار، وإنّما بسبب حبّك لكلوديا وحبّها لك. أشعر أنّها سندك الحقيقيّ.

– لم يقل لي ذلك من قبل.

– لم يقل لك ذلك أحد لأنّ الجميع يثرثرون طوال الوقت.

بقيت مشدوهًا بنبرة المحادثة لكنّني لم أشأ مقاطعته.

- وأنت فابيان، ألا تعشق أحدًا؟

- أنا؟ أنا ألهث خلف جميع النساء، لكنّني لا أتعلّق بهنّ. لست سوى فاسق يا بيلاطس، أي أنّني رجل لا يكنّ لنفسه أدنى احترام. أحاول أحيانًا استقراء نظرة الآخر. لي وسامة تجعل النساء يعوين إلى فراشي؛ فأهوي معهنّ. أروي عطشي للحبّ عن طريق الجنس. لكنّني لا أقوى على الالتزام. بعد عناقين أو ثلاثة، أتوق إلى أكثر من ذلك، أن أعريَ روحي. أفضّل المشي عاريًا على كشف دواخلي. شاركت في جميع ليالي روما المعربدة دون أن أكشف نفسي. أمّا أنت فأشعر في مقابل ذلك أنّك الشخص ذاته. والسبب هو كلوديا.

ابتسمت، فخفض عينيه.

- على الرغم من ذلك، في هذه اللحظة، أنت تتحدّث بالمكشوف يا فابيان.

- إطلاقًا. الحديث بالسوء عن نفسك نوع من الحماية، ولا سيّما لو وجدت الصيغة المناسبة: ستغطّي عليك.

غادرني فابيان. في اللحظة نفسها التي أكتب فيها إليك، أراه مبتعدًا عبر طريق السرو، عند الغروب، مستقيًا فوق جواده، وقد تبعه عشرات من الخدم يحملون حقائبه ويحميه أربعة نوميديّين ضخام. باحثًا عن سلطان لا يوجد حتمًا، سيجوب كامل بحرنا

دون جدوى. ينتظر من الوجود أمرًا لن يناله، كلّ شغفه هذا الانتظار الأحمق. هذا الشغف الذي يمنعه الحياة هو كلّ حياته. لماذا يفرغ الرجال كلّ شيء كامل من محتواه؟ لكنّني أسمع، أخي العزيز، جَلَبَة جياد في الساحة الكبرى. إحدى الكتائب عادت. كان رجالي يتعانقون في الأسفل فرحين، يهنّئ بعضهم بعضًا: تناهى إليّ أنّهم جلبوا يوسف ويشوع!

سأتركك فورًا. تعلم كلّ شيء الآن. غدًا ستعرف التفاصيل.

في الانتظار، كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

لقد شهدت الساعة أتفه ملهاة في حياتي. آلمتني سخريتهم منّي إلى هذا الحدّ حتّى راودتني رغبة في القتل. لا أدري ما الذي منعني؛ ربّما شيء من السخافة والازدراء، ذلك الجمود البهيج الذي يسبّبه الازدراء من عرض مخزٍ.

لم يجلب رجالي سوى يوسف الرامي أمّا يشوع فلا يزال حرًّا طليقًا. أوقدت المصابيح في قاعة المجلس واستنطقت يوسف الرامي.

- أين يشوع؟

- لا أدري.

- أين أخفيته؟

- لم أخفه. لا أعلم. أنا أيضًا أبحث عنه.

لم أشأ إضاعة الوقت، فصفعت يوسف العجوز. ثمّ طفت حوله، بين خمسة مشاعل محترقة تبثّ ضوءًا أصفر مضطربًا، ثمّ طلبت منه أن يكفّ عن التضليل وشرحت له كلّ ما فهمت.

استمع لي يوسف واقفًا وثابتًا، مستندًا على ساقيه النحيلتين اللتين تشتركان مع معطفه القذر والمعفّر في منحه منظر عجوز هرم.

مدّ يده وأنكر الأمر برمّته.

- أقسم لك، بيلاطس، أنّ يشوع مات على الصليب وقد وضعت جثّته في أعماق قبره.

- طبعًا، لم أتوقّع منك تضاربًا في أقوالك. والآن ستُقسم أيضًا أنّه بعث حيًّا.

- إطلاقًا. لن أقسم على هذا لأنّني لم أره ثانية.

تدفّقت الدموع من عينيه المخطّطتين عروقًا حمراء على وجنتيه وتاهت في لحيته المقزّزة.

- ظهر للعديد من الناس إلّا أنا. هذا ظلم. ما أكثر ما فعلت من أجله.

لم يتمالك نفسه هذه المرّة، وراح ينتحب بشدّة وكتفاه تهتزّان من التأثر.

- اعتنيت به حتّى آخر لحظة، و مع ذلك اختار الظهور لأناس نكرات، ربّما هم من خانوه !

انزلق على الأرض وتمدّد، ذراعاه متقاطعتان ووجهه إلى البلاطة الباردة.

- يا إلهي، اغفر لي زلّة لساني. أنا أستحيي منها! لكنّني لا أمسك نفسي عن الغيرة! نعم! أنا أغار! سأموت من الغيرة! غُفرانك!

تراجعت مرتعدًا. كان لي أن أقتل يوسف لكي يخرس، لكي يتوقّف عن استغفالي، ولكي يعترف بمكيدته الميّتة. انتفاضة البراءة لدى المذنبين تجعل صراخهم حادًّا ونشازًا، يعين ذكاء القضاة، ويصمّ الآذان مثل صراخ بلا فائدة لخنزير يذبح.

لملم رجالي العجوزَ وألقوا به في السجن. والآن يبحث جنودي عن يشوع بطريقة ممنهجة وعقلانيّة. دون حماية يوسف وشبكة علاقاته، وسلطته، وخدمه، لن يستطيع الناصريّ الاختفاء أكثر دون شكّ. نحتاج إلى مزيد من الصبر، لفظ سريع النطق، وفضيلة صعبة التحقّق.

لا أزال متردّدًا في رفع تقرير مفصّل إلى تيبريوس. كان عليّ إخباره بمخاطر الانتفاضة التي قد تسبّبها قضيّة يشوع منذ لحظة شكّي الأولى. لكن بدا لي أنّ الأمور تتّضح لي كلّ يوم، وأنّني أسيطر على الوضع. لن أرسل الوقائع إلى روما إلّا بعد حلّ القضية لأنّه عليّ إرسال نتائج عملي فحسب، وليس مجهوداتي أو حتّى قلقي.

أخي العزيز، أنت الوحيد المطّلع على مشاعري السيّئة التي أرسلها إليك يوميًّا.

كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

من يكتب لك الآن شخص مكلوم.

لا تسألني أين أصبت يا أخي، حتمًا ليست يدي اليمنى التي أخطّ بها الرسائل، وليست يدي اليسرى التي تمسك الرقّ المفرود على المنضدة، ولا حتّى ساقيّ اللتين تسنداني لأنّني أكتب واقفًا تقريبًا. ضربة على الرأس؟ في البطن؟ كان لي أن أفضّل ذلك دون شكّ، جرح ينزف، يلتئم ثمّ يشفى. من الأجدر أن أروي لك الأحداث. كان الفجر يبشّر بيوم باسم. لأوّل مرّة، نمت قليلًا ثمّ أفقّ صياح الديك مضجع بيلاطس. نظرت إلى السماء الصافية البيضاء التي لا تكلّ، رغم كلّ ما يحدث بها. كان سائسي الخيول في الباحة قد سقوها ماء، وكانت الأبواب تتثاءب، والحياة تدبّ في حصن أنطونيا.

أعلمني أحدهم أنّ طبيبي يودّ لقائي، فقلت إنّني سأوافيه في مُختبره. عندما وصلت إلى هناك، حليقًا ومعطّرًا، وجدت أوّل مفاجآت اليوم في انتظاري.

كان سرتوريوس يفحص أحشاء إوزّة.

- هل تستنتج شيئًا من الأحشاء؟ سألته في جذل.

- إطلاقًا، أحاول فهم عمليّة الهضم.

مسح سرتوريوس يديه لكنّه واصل فركهما محرجًا حتّى بعد ما استحالتا نظيفتين. جلست على كرسيّ واستدرجته إلى الحديث.

- أعلم اهتمامك بحادثة صلب الناصريّ، فواصلت تسليط الضوء على حالته وتناولت العناصر تباعًا واستشرت كلّ الشهود. للأسف، جرّني كلّ هذا إلى التراجع عن تشخيصي السابق.

- إلامَ ترمي؟

- من الممكن، أو من المحتمل، أو حتّى من المرجّح جدًّا أنّ الناصريّ قد قضى نحبه على الصليب.

كان يهرش رأسه كأنّ شكوكه تحكّه.

- ذلك اليوم، لم تكن كلّ المعطيات بحوزتي، وهذا ما قادني إلى المغالاة في تقدير صحّة الناصريّ. بادئ ذي بدء، لم يكن قد أكل شيئًا منذ يومين وذلك ما تسبّب في إضعافه. ثمّ، رأسه كان يتعرّق دمًا ليلة اعتقاله في جبل الزيتون، وقد لاحظ هذه الظاهرة تيموقراط، زميلي الإغريقيّ الذي اعتبر التعرّق الغزير أحد أعراض مرض عضال. استنتجت أنّ الناصريّ لم يكن بصحة جيّدة قبل محاكمته. لكن يوجد أمر آخر أخفوه عنّي ذلك اليوم، وهو أنّ الرجل قد جُلد وعُذّب قبل اقتياده إلى تلّة الجلجثة.

- لا يموت الناس من أثر السوط! صحت محتجًّا.

- بلى! والدليل أنّ المجرم ينزف الكثير من دمه، وتتقطّع عضلاته. أكّد لي مقاتلوك أنّهم في العادة يجلدون المحكوم

عليهم بالموت فوق الصليب حتّى يلفظوا أنفاسهم سريعًا.

- لم أجلد يشوع لكي يموت وإنّما لكي أجنّبه الموت. ظننت أنّ هذا سيكفي لإرضاء الناس.

- من وجهة نظر طبيّة، فإنّ النتيجة واحدة. لم يقوَ الناصريّ على حمل عارضة الصليب العليا حتّى جبل الرأس، وحملها عنه شخص آخر. قبل جنودك بعرض هذا اليهوديّ خشية أن يصل المدان ميّتًا إلى ميدان التعذيب. في هذه الحالة، تضافر نزيف القبضتين والقدمين وبضع ساعات من الاختناق للإجهاز عليه.

- والدم؟ الدم الذي تدفّق عندما غرز الجنديّ رمحه؟ لا يتدفّق الدم المتخثّر من جثّة أبدًا!

- بالضبط، حصلت على توضيحات إضافيّة جعلتني أراجع تشخيصي بصفة مختلفة. حسب يوحنان، ذلك التلميذ اليافع، وحسب الجنود الذين كانوا أسفل الصليب، فإنّ ما تدفّق خارج الجثّة كان مزيجًا من دم وماء. يرشدنا هذا إلى أنّ الحربة أصابت الغشاء الصدريّ، ذلك التجويف الذي يحتوي سائلًا شفّافًا. عند انفطاره، اختلط السائل بقطرات دم داخل جسد ميّت. إضافة إلى ذلك، لنفترض أنّ الرجل كان يحتضر، فإنّه كان للطعنة في ذلك الغشاء أن تقتله حتمًا. في الواقع، بعد كلّ هذا، أنا مضطرّ إلى الجزم بأنّ الناصريّ لفظ أنفاسه عندما فصل عن الصليب.

- حسن يا سرتوريوس. كيف تفسّر إذن أنّه اليوم يحيا، يتحدّث ويمشي؟ عن طريق البعث؟

- لا تنتمي فكرة البعث إلى قاموسي الطبّيّ.

- إذن، ما دمنا لا نؤمن سويًّا بفكرة البعث، فحتّى لو تأكّد لي أنّ يشوع مات على الصليب، فإنّه لم يمت مادام حيًّا يرزق.

غادرت المختبر دون كلمة منّي أو نظرة إلى الطبيب. تخلّص من شكوكه ولم يبهرني، وإنّما نجح في إزعاجي.

ثمّة من جاء يعلمني أنّ يوسف الرامي يودّ لقائي في زنزانته ليعترف لي ببعض الأمور. أنعشني الخبر: أخيرًا سنمسك بيشوع.

ألفيت يوسف في هدوء غريب. ابتسم لي ما إن رآني، وأخبرني أنّه كان يودّ كشف الحقيقة كلّها، لكنّ لديه شرطًا: أن نذهب إلى المقبرة.

لم أتبيّن فخًّا أو حيلة. كانت نظرته صافية، وكان الشيخ المسنّ يتنفّس في اطمئنان، مثل رجل سيكشف كلّ أسراره التي تسمّم بدنه. تركته ينفّذ رغبته.

وصلنا أمام ضريح يشوع عاطين بعدد قليل من الحرس.

- حسن، تكلّم يا يوسف.

- لندخل الضريح. هناك، سأريك الأمرين اللذين وعدت كشفهما لك.

. بإشارة واحدة، أمرت رجالي بدحرجة الصخرة. هل لديّ ما أخشاه؟ ربّما كان يوسف يودّ الإشارة إلى كوّة في الأرض، ممرّ سرّيّ سمح ليشوع بالاختباء أو بالفرار؟ كان فضولي قد بلغ أشدّه.

أمسكت يد يوسف الهرمة الجافّة بذراعي وولجنا المدخل. كان خائفًا أكثر منّي.

هناك، طلب إغلاق الصخرة الصوّان. تردّد رجالي، فألقيت الأوامر بنفسي. تحفّزت العضلات مجدّدًا، وسمعنا لهاثًا سببه الإجهاد، وبعض السباب، ثمّ حلّ الظلام. كنّا بمفردنا داخل الضريح المسدود. قادني يوسف، وهو يتحسّس طريقه في الظلام، إلى داخل المدفن وأجلسني. تضوّعت في الظلام رائحة طازجة ومدوّخة. استندت إلى الجدار الصخريّ البارد منتظرًا اعترافات يوسف.

– لم أتوقّع قبرًا بهذه الرائحة الزكيّة.

– أليس كذلك؟ هناك مائة رطل من المرّ والألوة، هديّة من نيقوديموس، الذي تعرفه دون شكّ، عالم الفقه. لقد وضعه مساء صلب يشوع.

– حسن، تكلّم يا يوسف. كلّي آذانٌ صاغية.

لم يردّ يوسف.

– ما الذي ستريني إيّاه؟

لم يجب يوسف أيضًا.

أكان البرد؟ أم الرطوبة؟ أم الشعور بالحبس؟ ألم بي شعور بالغثيان.

- يوسف، قل لي لمَ جئت بنا إلى هنا؟

- لإقناعك بموت يشوع.

تحدّث يوسف بصوت خفيض لأنّه كان يتنفّس بصعوبة. تسارعت دقّات قلبي وصرت أبحث عن الهواء.

- هيّا، تكلّم بسرعة. هذه الرائحة لا تُحتمل! لن أصمد طويلًا..

مرّرت يدي على جبيني فوجدته مكسوًّا عرقًا وصرت أرتجف. ما الذي كان يحدث؟

- يوسف، كفى! ماذا نفعل هنا؟

-عليك أن تحرّر بنفسك...

صار صوته لا يكاد يسمَع، نفسًا أبحّ على وشك الانطفاء. ثمّ صدرت ضجّة مكتومة لسقطة مّا.

استقمت. شعرت بشيء ساخن وليّن تحت قدميّ. تجاوزته وصرخت برجالي عبر الجدار آمرًا بفتح الضريح.

دون انتظار، اقتربت من شعاع الضوء الوحيد لأتنفّس هواءً أنقى، ثمّ صرخت مجدّدًا على حافة الانهيار. صرت أصمّ واكتشفت أنّه لا حياة لمن تنادي. لقد وقعت في فخّ. صرخت وصرخت.. أخيرًا، اتسع شعاع النور وشرعت الصخرة في التدحرج. بلغتني زقزقة العصافير وسباب رجالي، ورأيت ما في الكروم المزهرة من نور أخضر وأبيض. وثبت خارج الضريح وسقطت على العشب.

ذهب رجالي لإحضار يوسف، تلك الكومة المغشيّ عليها التي سقطت عند قدميّ، ومدّدوه حذوي. ثم رشّونا بماء من قِرَبهم.

عندما ثُبتُّ إلى وعيي، قلت لنفسي: كم أحبّ انشغال رجالي عليّ، بوجوههم المألوفة التي تزيل ابتساماتها كلّ قلقي.

استغرق يوسف زمنًا أطول ليعود إلى وعيه. أخيرًا لمحت عينيه الزرقاوين، اللتين بيّضتهما صروف الزمن، تفتحان من جديد نحو السماء. التفت إليّ.

– إذن، هل فهمت؟

كنت قد فهمت. لقد خلقت التوابل والعطور، المرّ والألوة، وقد وضعت في القبر لتطهير الفقيد ومرافقته، جوًّا خانقًا وقاتلًا. ما كان ليشوع، سواء وهو في صحّة جيّدة أو يحتضر، ليقدر على النجاة في هذه الحجرة المسمومة.

أسندنا رجالي، ثمّ وضعونا قرب النافورة في ظلّ شجرة التين. لم أصدّق عرض يوسف بعد. من يثبت لي أنّ هذه الهدايا لم توضع في قبر يشوع بعد رحيله؟ أو لحظة إجلائه؟

قرأ يوسف ما على وجهي من شكوك.

– أقسم لك أنّ نيقوديموس وضع هديّته قبل أن نودع الجثّة القبرَ.

لم أقتنع. لا يتعدّى الأمر شهادة واحدة. في ظلّ قضيّة يشوع هذه، نقفز من شهادة إلى أخرى. لا يوجد أمر أكثر هشاشة من

شهادة. كيف نثق بمصداقيّة مجموعة من اليهود أرادوا من البداية أن يكون يشوع مسيحَهم المرتقب؟

ابتسم لي يوسف وبحث بين طيّات ثيابه عن رقّ معقود بشريط أعرفه جيّدًا، حيث رشق غصن ميموزا. ارتجفت. لقد أودَعته كلوديا بروكولا هذه الرسالة لي.

- من تصدّق؟ ومن لا تصدّق؟ بيلاطس الطيّب، أعلم أنّك لن تصدّق سوى شخص واحد. اقرأ إذن.

فردتُ الرسالة.

«بيلاطس،

وُجدت أربع نساء أسفل الصليب. مريم الناصريّة، والدته. مريم المجدليّة، المحظيّة السابقة التي أحبّها يشوع لطيبتها وذكائها، وسالومي، والدة يوحنان وجاكوب، من الأتباع. أخيرًا، المرأة الرابعة كانت زوجتك يا بيلاطس. لم أجرؤ على الاعتراف لك أو للآخرين: كنت متخفّية تحت طبقات عديدة من الحرير لكيلا يتعرّف إليّ أحد. أؤكّد لك أنّ يشوع كان ميّتًا ذلك المساء لأنّني لففت جثّته الباردة المتصلّبة بكفنه. كم بكيت يائسة. كنت غبيّة لأنّني لم أؤمن به الإيمان الكافي. أمّا الآن فقد بزغ النور. التحق بي على طريق الناصرة.

أحبّك».

كلوديا حبيبتك.

من بيلاطس إلى تينوس العزيز

مرّ يومان دون أن أكتب لك.

اعتزلت كلّ شيء، حتّى فكري. تعبُر المشاعر رأسي دون أن تتوقّف هناك، ولا تأخذ وقتًا لتتطوّر إلى أفكار أو تتجذّر في صيغ مّا. أوراق نافقة يهزّها الريح.

أنا محتجز بين الصمت والصّمم. ليس لي سوى اللامبالاة تجاه كلّ ما يقال لي، وما يوصف لي، وما يطلب منّي. أعرف عدم اكتراث المحبطين الذين لا يقدر شيء على مفاجأتهم، لكنّني أجهل هذا النوع من اللامبالاة الذي أصابني، ذلك الذي يصيب شخصًا مصدومًا فوجئ بعنف شديد مرّة واحدة حتّى صار لا يرغب في أيّ مفاجأة أخرى. يبدو لي العالم خطيرًا جدًّا حتّى إنّني رغبت في اعتزاله.

لا يشدّني هذا الرجل المعجزة، واليوم أقرّ بأنّ قضيّة يشوع ليست أحجية فحسب وإنّما هي لغز غامض. لا يوجد شيء أجلب للاطمئنان من أحجية: إنّه مشكل في انتظار حلّ. أمّا اللغز فلا شيء يبعث على الخوف أكثر منه: إنّه مشكل لا حلّ له. يبعث على التفكير والخيال.. لكنّني لا أرغب في التفكير. أريد أن أعلم، أن أعرف. ولا يهمّني الباقي.

أتى كراتيريوس ليتناول غداءه معي. كان يأكل في شراهة وبقذارة حتّى تخاله يغذّي قدميه وفمه على حدّ سواء. عندما شرع يحدّثني عن يشوع، طلبت منه تغيير دفّة الحديث. تجشّأ وجلس على مكتبي، فخذاه منفرجتان وخصيتاه تتدلّيان.

- بل، بل، حرصت على إخبارك بأنّني اهتممت به أوّل مرّة عندما نقلت لي كلوديا بروكولا خطابه، سيّدة رائعة، أين هي؟ أنت لا تستحقّها. لكنّه خيّب ظنّي أخيرًا. نحن، الفلاسفة الكلبيّين، نكافح ضدّ الآلام؛ لكنّني أشعر أنّ يشوع يثني عليها. يمنحها شيئًا من المجد، ويراها وسيلة للتكفير. في الواقع، يسخر تمامًا من السعادة الدنيويّة، ويذكر نوعًا مؤجّلًا من السعادة في مملكة بلا حدود، بعد الموت. التبس عليّ الأمر! أشكّ في أنّ يشوع أقرب إلى ملاك منه إلى دابّة. عوض أن يستكين للطبيعة مثل معلّمنا ديوجين، فإنّه يحاول بسخافة أن يحوّلنا إلى أرواح. أخذه الغموض، فاتّخذ إلهًا فوق الغيوم وتطاول على حدود الفلسفة. وبالخصوص عندما يتحدّث عن الحبّ. لقد صدمت. هي المرّة الأولى التي أسمع فيها فيلسوفًا يتحدّث عن الحبّ. خطأ شنيع! لا يؤسّس الحبّ لشيء. لا ينتمي الحبّ إلى ميدان الفلسفة. لا ينبثق مفهوم الحبّ هذا عن أيّ منطق أو تحليل. أرفض أن يؤسّس يشوع لأيّ شيء انطلاقًا من هذا.

لأوّل مرّة تدور عليّ لعبة السؤال والجواب لأنّ وثوق كراتيريوس أزعجني.

- ربّما هذا ما يجعل خطابه مدعاة للاهتمام ! حديثه عن الحبّ! عندما أرى أين أوصلك المنطق وحده، فإنّي لا أرى شيئًا يدعو إلى الفخر، أليس كذلك؟

- لكن بيلاطس، ماذا دهاك؟

- أنت ترهقني، كراتيريوس، أنت محتال! تنتحل دور الحكيم وأنت لم تمدّ يد المساعدة لأحد، ولم تحسن إلى أحد حتّى بفلس، لم تبتسم لأحد، ولم تمنح أحدًا أسباب الراحة والاطمئنان. أنت ترثر وترثر، ولا يتجاوز عملك الضجّة التي تأتيها! أفكارك الموجّهة إلى الآخرين لا تهدف إلى غير صدمهم؛ وعندما توجّهها إلى نفسك، فإنّها تهدف أساسًا إلى إبراز حجم ذكائك. لا طائل منك! أنت مثل أثينا مثل روما! لا تفكّر سوى بنفسك، لا تتحدّث إلّا عن نفسك، لست أكثر من فقاعة!

نطّ كراتيريوس من الطاولة وضرط.

- أخيرًا! سعيد بخروجك من قوقعتك يا بيلاطس: خلتك ميتًا.

- كراتيريوس، لا تتظاهر بالسيطرة على الموقف ولا بإثارة غضبي! وإذا رمت الحديث عن يشوع فأجب على السؤال الأساسي: هل بعث حيًّا، نعم أم لا؟

وضع كراتيريوس يده الضخمة على جبيني.

- يا لَبيلاطس المسكين، لقد طال مكوثك بفلسطين: لقد غلبتك الشمس.

- هل بعث، نعم أم لا؟ أهو حكيم فحسب أم هو ابن الربّ

حقًا؟ هل هو المسيح؟

فوجئت بأنّني كنت أصرخ، على وشك البكاء، غير مسيطر على نفسي. قال كراتيريوس، وهو يهرش خصيته اليسرى في اهتمام:

– لا أحد عاد من الموت.

لم أمسك نفسي عن الصراخ في وجهه:

– كيف تعلم مسبقًا ما هو صواب وما هو خطأ؟ ما هو ممكن وما هو مستحيل؟ هل تظنّ نفسك عليمًا بكلّ العالم من حولك؟ قبل أن تخلق، من كان يتصوّر وجود شخص منفّر لا طائل منه مثل كراتيريوس؟

ثمّ غادرت القاعة دون التفاتة منّي إلى فيلسوف طفولتنا.

أتممت تجهيز حقيبة للسفر؛ استلفتُ معطفًا للحجّ؛ ما إن أنهي هذه الرسالة، حتّى أرحل باحثًا عن كلوديا في طريق الناصرة.

لا أعلم إن كنت أستطيع أن أكتب لك مجدّدًا. سألتزم بذلك حالما أستقرّ بأحد الخانات.

لا أعلم ما لذي ينتظرني هناك حيث أذهب، لكنّني ذاهب وهذا مؤكّد. كن بخير.

من بيلاطس إلى تيتوس العزيز

لست سوى شخص يمشي شد ن آخرين. إلى هذه الساعة، لم أعثر على كلوديا ولم أعرف شيئًا جديدًا. كلّ يوم، تكتظّ الطرقات بمزيد من الراغبين في رؤية ابن الجليل.

كلّما عبروا قرية، يتوقّف الحجيج عند النافورة ويكرّرون القصّة نفسها: ظهر يشوع لأتباعه الأحد عشر. ظنّوه متسوّلًا أوّل مرّة، بمناسبة اجتماعهم على غداء. دفعهم وفاؤهم لواجب الصدقة إلى دعوته لتناول الطعام معهم؛ جلس المتشرّد إلى الطاولة، شطر أرغفة الخبز ومنحهم إيّاها؛ عندها تفتّحت العيون وعرفوه.

لم يكن أصحاب الخانات مستعدّين لهذا الإقبال الكبير، ولم تفِ الغرف بالحاجة، فنصبوا وسائد من القشّ في الباحات. فضّلت النوم بعيدًا، في الحقول، في ضوء النجوم الصامتة، لكيلا ينتبه إليّ أحد.

إلى لقاء.

كن بخير.

من بيلاطس إلى تيتوس العزيز

ما من جديد، أخي العزيز، سوى لحية نامية تمكّنني من الجولان في سرّيّة أكثر. لكنّني لا أتوهّم كثيرًا في خصوص إمكانيّة تحوّلي إلى يهوديّ: إضافة إلى ساقيّ الحليقتين الناعمتين اللتين تكشفان رومانيّتي، فإنّني أعلم أنّ كلّ أمّة تترك أثرًا لا يُمحى على ملامح الوجه، وتشكّل اللغة الفمّ أكثر ممّا تفعله الأسنان؛ وتجعل العادات

الغذائيّة البشرة ليّنة أو جافّة؛ وتخلق الأعراف والتقاليد نظرات جرأة أو استحياء، نظرات ثابتة أو قلقة؛ وحتّى السماء فهي تشكّل لون العيون التي خلقت في رحابها. أشعر بألم في رقبتي من فرط المشي مطأطأ الرأس وبسبب القلنسوة. يتألّم عنقي وقدماي على حدّ سواء.

الغريب في الأمر أنّني كنت أراني غريبًا بين الحجيج عند انطلاقنا من أورشليم، واليوم أشعر أنّني أقرب إلى الآخرين. ليس زوج نعلي وحده يبلى على طرقات الجليل الوعرة، وإنّما ذاك الشعور بالتفرّد أيضًا. أمر مّا يقرّبني إلى رفاق الرحلة، لا أعرف حقًّا كنهه. هل هو السير، العطش أم البحث. أم ببساطة، الإرهاق.

كن بخير.

من بيلاطس إلى تيتوس العزيز

مازلت أمشي.

أحيانا، لا أثق بأنّني على موعد مع كلوديا، وأضطرّ إلى تذكّر رسائلها لأستجمع قواي. أنا متأكّد من أنّ الأمر نفسه يحصل مع الحجيج الآخرين. أين يتّجهون؟ لا يعلمون؛ حيث سيحلو ليشوع الظهور. لماذا يذهبون إلى هناك؟ يجهلون ذلك أيضًا؛ يدفعهم أمر غريزيّ، عطش الروح التي تريد أن ترتوي من منبع حقيقيّ. هل دعاهم أحد؟ لا أحد دعي إلى ذلك لأنّ يشوع بلّغ الجميعَ رسائلَه؛ وحده الإيمان يمنحك الحقّ في أن توجَد هنا.

عاصفة غربية أثارت الغبار في وجه الشمس.

هذا الصباح، اقتربت منّي امرأة عندما توقّفت لأنزع شوكة حادّة من ولوج جلدتي الناعمة أسفل أصابع قدمي.

- دعني أغسل قدميك.

جثت على ركبتيها قبل أن أتمكّن من الردّ عليها، وسكبت الماء على أطرافي المجروحة وشرعت تفركها بلطف. شعرت فورًا براحة تامّة. ثمّ مسحتها بمنشفة نظيفة، ونفضت نعليّ من الغبار ثمّ ربطتها مجدّدًا. لم أتبيّن منها سوى شيء من شعرها القاحم الجميل المغطى.

- شكرا أيّتها الجارية.

منحتها قطعة نقديّة جزاء صنيعها. رفعت وجهها نحوي فاكتشفت أنّها مريم المجدليّة، المحظية السابقة، إحدى النساء اللواتي كنّ يتبعن يشوع، وربّما الأولى التي حظيت بظهوره.

- لست من العبيد.

ابتسمت ولم يبدُ عليها استياء.

- اغفري لي إهانتك.

- لم تُهنّي. إذا كانت مساعدة الآخرين عنوانًا للعبودية فأفضّل أن أكون عبدًا. كان يشوع يغسل أقدام رفاقه بنفسه. هل تتخيّل، أيّها الروماني، إنّما يحبّ الرجال حبًّا يجعله يجثو على ركبتيه لغسل أقدامهم؟

لم تنتظر ردّي، ابتسمت ونهضت.

- أسرع يا بيلاطس، زوجتك تنتظرك في شرق. هي إحدى المحظوظات اللواتي ظهر لهنّ الربّ.

- أين هي الآن؟ كيف أصل إليها؟

- ليس مهمًّا. ستعثر عليها عندما تكون جاهزًا. تعلم جيّدًا أنّنا لا نخوض هذه الرحلة على الطرقات فحسب، وإنّما في أعماقنا أوّلًا.

ثمّ اختفت.

تيقّنت من موعدي. أذهب حيث تأخذني خطواتي. آمل أن تكون قدمي أوفر منّي ذكاء.

نفد الحبر والرقّ اللذين منحني إيّاهما مالك الخان، لذلك أتركك راجيًا أن تكون بخير شقيقي العزيز.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

توافد الحجيج من كلّ فجّ، مثل الجداول التي تلتحم بالنهر وتوسّعه.

الأحاديث نفسها، الطرائف نفسها، والآمال نفسها ينقلها التيّار من شفاه إلى شفاه.

كلّ يوم أشعر بالمزيد من طاقة هائلة ورائعة، تحثّ سيول السائرين. هذه القوّة التي تجعل عيونهم صافية ورؤوسهم شامخة وتزيل التعب عن أقدامهم هي لعمري ذاك الخبر السارّ. بدأت أفهم

ما يرمون إليه بالخبر السار. يعتقدون أنّ عالمًا جديدًا بدأ يوجَد، تلك المملكة التي تحدّث عنها يشوع. لقد استأت من هذا اللفظ «مملكة». فأنا مثل أيّ رومانيّ عمليّ، مهتمّ ومسؤول، كنت أتصوّرها فلسطين واتهمت يشوع بالرغبة في مواصلة عمل هيرودس الأكبر، أي إلغاء التقسيم إلى أربعة أقاليم، وتوحيدها، وطردنا، والتربّع على عرش واحد. ثمّ فكّرت مثل كراتيريوس أنّ يشوع كان يتحدّث عن مملكة خياليّة، عن أرض توجَد بعد الموت، مثل حاديس عند الإغريق، وعدًا بالخلاص. أخطأت مرّتين. يتعلّق الأمر في الواقع بمملكة في منتهى الحقيقة ومجرّدة في آنٍ واحد: هذا العالم ستغيّره كلمة الربّ. لن يتغيّر في ظاهره، لكنّ الحبّ سيغمر باطنه. كلّ إنسان سيعرف طريق التغيير بمفرده. لن توجَد المملكة إلّا برغبة الناس فيها. إذا سقطت البذرة على أرض خبيثة فستجفّ وتموت. أمّا إذا وقعت على أرض طيّبة فستنمو وتؤتي أكلها. لن يكون لكلام يشوع معنى إلّا عند تبليغه. لن تتحقّق رسالة الحبّ التي أتى بها يشوع إلّا عندما يرغب الإنسان في الحب.

لم أعمل فكري بعد أخي العزيز. سأبدي رأيي فيها بعد. لكنّني أقدّر أنّ يشوع هذا لا يقدّم شيئًا دون منح مخاطبيه مسحة من الحرّيّة. فرق كبير بينه وبين الكهنة الذين يمطرونك عقائد، والفلاسفة ومنطقهم، والنحويّين وبلاغتهم. لا يفرض يشوع شيئًا، ولا يفكّر، ولا يقنع. يطلب حضورًا باطنيًّا فحسب، بوّابة نفتحها برضانا، وعليه، يبلّغنا رسالته التي تقدّم فرصة حياة جديدة. كلّ شيء في نعومة فائقة.

لا أخبارَ من كلوديا. أحيانًا، يتملّكني الذعر. لا أدري متى تصلك رسائلي.. تقبّل فيها شكوكي وشطحاتي وحناني كلّه.

كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

لا جديد بعدُ.

أستيقظ شروقًا وأنام غروبًا. وأسير فيها بينها. يتّجه حشدُنا تارة إلى الشرق وطورًا إلى الغرب، يصعد وينزل. تحرّكاتنا بلا جدوى، لكنّ الإرهاق ينسينا ذلك كلّ ليلة ويملؤنا النعاس أملًا.

في الواقع، لا أحد يعلم أين سيعاود يشوع الظهور. أمّا أنا فأجهل أين تنتظرني كلوديا.

كم مرّة لاحظت، أثناء استراحة مّا، وجودَ رسوم لسمكات محفورة في الرمل. لم أعرها انتباهًا أوّل الأمر، ولكن عندما لاحظت أنّ الرسم يتكرّر بانتظام ويتكاثر في شكل حجرات مرصوصة أو صدفات، ساورني شكٌّ في أنّ الأمر علامة مّا. أخفيت لكنتي الرومانية ما استطعت، وطلبت من سيّدة تحمل عقدًا به سمكة عن مغزى ذلك.

- ماذا؟ ألا تعلم؟ إنّها علامة يشوع. إنّ كلمة «حوت» بالإغريقيّة تكتب على نحوٍ تشكّل فيه حروفها الأولى عبارة «يشوع المسيح ابن الربّ المخلّص». نحن نستعملها كإشارة إلى الانتماء.

فكّرت بفابيان.. فَلِمَلِك العالم المنتظر الذي بشّر به المنجّمون، حسب قوله، علاقةٌ ببرج الحوت. هل كان لِفابيان أن يفرّط في الوصول إلى يشوع لو فهم حقًّا هذا الرمز السرّيّ؟

كن بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

لم أجد كلوديا بعدُ، لكنّني أملك الإجابة عن السؤال في رسالتي السابقة.

جلست لأنصب خيمتي على قارعة الطريق، وخلعت قلنسوتي من فرط الحرّ، وإذ بيد تربّت على كتفي.

- بيلاطس الطيّب، لم أتخيّلك ملتحيًا قطّ.

حدّق بي فابيان، قريب كلوديا الوسيم، بوجه رومانيّ منشرح شبع نساءً ولحمًا. لم ينتظر ردّة فعلي وأقعى قبالتي، آمرًا خدمه بتقييد الجياد في الحقل المجاور.

- يا خيبة المسعى! اعذرني يا بيلاطس، لكنّني أظنّ أنّ كلوديا وضعتنا على الطريق الخطأ. يشوع هذا ملك؟ لا يقدر على حمل حربة، أو قيادة جيش. بدل الإفادة من سذاجة شعبه وتصديقهم له، ها هو يلفّه الغموض، يُقلّ من الظهور ويعلن الآن رحيله الوشيك! يا له من تناقض! يا له من إهدار للفرص! وتلك العبارة الغبيّة، أجل، أجل، لقد قالها، كيف

كانت؟ «أحبّ قريبك كنفسك، وحتّى عدوّك أيضًا». غير معقول! غير منطقيّ! لا يكون الملك ملكًا إلّا عندما يكون له أعداء ينتصر عليهم فيمجّدونه. إنّ الملك لا يشعر بالحبّ! مطلقًا، ليس هذا الفتى حتمًا أيّ مستقبل سياسيّ.

كان فابيان مقتنعًا بأنّني لن أوافقه الرأي، فنهض.

- سأرحل للبحث في ربوع بابل. يتمتّع الناس هناك بسمعة مقاتلين أشدّاء. ربّما يخرج منهم الملك الذي بشّر به المنجّمون.

نفض الغبار عن ردائه، ومن شدّة وثوقه بخياره الصائب، لم أتكبّد عناء إخباره باكتشافي في خصوص علامة «الحوت».

- سررت بلقياك في الجوار يا بيلاطس. لن أقحم نفسي فيما لا يعنيني، لكن سيكون من حسن حظّك ألّا تنتشر أفكار هذا اليهوديّ. إنّه يدعو إلى منظومة أخلاقيّة خطيرة، قد تقوّض توازن عالمنا لو قدّر لها الانتشار: يزعم أنّ الناس كلّهم سواسية. هل تسمع يا بيلاطس؟ هل تعي ذلك؟ لا فضل لأحد على غيره! هذا يعني أنّه سيلغي الرقّ! تخيّل لو أنصت له الناس، قد يتسبّب في ثورة، ويقلب كلّ شيء رأسًا على عقب، ويصير سبارتاكوس الناجح. لأنّ نقطة ضعف سبارتاكوس كانت بقاءه عبدًا ليحرّض العبيد الآخرين، أمّا هذا اليهوديّ الحرّ فيخاطب الناس جميعًا ويزعم أنّه سيحطّم القيود كلّها. احترس يا بيلاطس! راقبه! احبسه!

– سبق لي أن صلبته. ما الذي يمكنني فعله؟

حدّق بي فابيان طويلًا. كرّر جوابي في ذهنه وحاول إقناع نفسه بأنّه سمع جيّدًا ما قلته، ثمّ برق في عينيه شيء من شفقة ممزوجة باستياء. ثمّ انفجر ضاحكًا.

– بمَ تهذي يا بيلاطس؟ لقد قابلت الرجل ليلة أمس. لم يكن صلبًا ولم تقوَ ساقاه على حمله. كانت له جاذبيّة أمّا الصحّة فلا.

– هل تحدّثتما؟

– بطبيعة الحال.

– إذن؟

– لم أقتنع.

آشار فابيان إلى رجاله إيذانًا بالرحيل. لم أتمالك نفسي عن الصراخ:

– فابيان، لا تقل إنّك تحدّثت إلى شخص عائد من الموت!

لم يطرف لفابيان جفنٌ. ركب جواده وتأمّلني في أسف.

– إطلاقًا يا بيلاطس، هل تودّ إقناعي بأنّك تصدّق هذا أيضًا؟ طالت إقامتك بفلسطين دون شكّ. قطعًا القوّةُ للرومان، الفكر للإغريق، ولليهود الجنون..

وخز جواده واختفى. لم يتسنّ لي الوقت لسؤاله عن مكان

كلوديا. لكن لعلّي لم أرد معرفة ذلك عن طريقه. هل ازددت تعقيدًا أم صرت أكثر بساطة؟

كن بخير في الأثناء.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

لا أدري أيّ اضطراب في النسيم جعلني أشعر بأنّني أقترب من هدفي.

منذ الصباح، كنّا نتبع الغيوم التي صبغت السماء حبرًا ثمّ ادلهمّت، انتفخت، تراكمت واتجهت صوب جبل تابور. وكان الحشد يتعرّج عبر المنحدرات في صفّ قاتم. عند تجاوزنا القمّة الأولى، علمنا أنّ أتباع يشوع الأحد عشر يسبقوننا. علينا أن نسرع. تدافعت الغيوم في السماء ملأى حدّ الانفجار، يتضوّع منها نور داكن. العاصفة آتية.

ثمّ حلّ صفاء كبير، وشقّ الغيومَ سيفٌ لامع صقيل وخيطُ الجبل. سقطت الصاعقة في الأعالي. في باطني كانت فكرتي: متأخّر جدًّا.

هطلت علينا قطرات ثقيلة، غزيرة ومتراصّة. اختبأ البعض تحت الصخور، وواصل البعض الآخر السير وكنت ضمنهم. عندما بلغنا المنحدر الأخير، ألفينا الجبل يلفظ الأتباع.

كدت أخطئ في التعرّف إلى رفاق يشوع. اختفى أولئك الجبناء

المذعورون وحلّ مكانهم رجال أقوياء، أشدّاء تنضح ملامحهم صحّة وبهجة. حلّوا قبالتنا وغمرونا بالقبلات. كانوا يتكلّمون في الوقت نفسه معًا، مسرعين، متحمّسين، تنساب الكلمات على شفاههم في يسر:

– لقد انضمّ إلينا يشوع في محبّتنا بالزريبة عندما كنّا نتقاسم الخبز والنبيذ كما علّمنا. سألنا مرّات عديدة ما إذا كنّا نحبّه؛ كانت في سؤاله مسحة من قلق، كأنّ دعوته ستذهب سُدى لو أجبنا بالنفي. كان أقلّ دعة من ذي قبل، وتغيّرت حاله من الرقّة إلى العنف، وصوته يرتجف مثل أصدقاء يتبادلون الوداع الأخير. عندما طمأنه سيميون، وكرّر على مسمعه مرّتين أنّنا نحبّه، أشار إلى قطيع من الغنم حولنا في الجبل. «اعتنوا بنعاجي. سأقول لكم كلّ شيء: عندما كنتم يافعين، كنتم تشدّون أحزمتكم بأنفسكم وتذهبون أنّى تشاؤون؛ لكن عندما تهرمون، ستمدّون أياديكم، ليأتي شخص مّا ويربط أحزمتكم ويأخذكم إلى مقصدكم».

لم نفهم مغزى كلماته. سندرك ذلك يومًا دون شكّ، ككلّ ما سبق أن قاله لنا، وذلك عندما نزداد حكمة.

ثم دعا ثلاثة منّا، سيميون، أندريه ويوحنان، أولئك الذين كانوا قربه ليلة اعتقاله وهو ينتظر الموت في جبل الزيتون. أراد من الذين عايشوا محنته أن يساعدوه في تسلّق المنحدر.

وصلنا إلى القمّة.

كان يشوع، حبيبنا، مرهقًا، نحيفًا، جروحه مفتوحة، تمامًا كحاله لمّا وُضِع على الصليب من قبل. كان جسده ضعيفًا وهشًا حتّى تساءلنا كيف كان يقف على قدميه أصلًا ومن أين يتزوّد بطاقته تلك؟ ليس من عضلاته المتلفّة حتمًا. وليس من جلده الجافّ، وليس من عظامه الناتئة. من هذه الجثّة الخاوية كانت قوّة لا تزال تنبعث، إنّها من عينيه، حيث تشبّثت الحياة، حياة قويّة، عنيدة، عنيفة، على حافّة الغضب.

بلغ يشوع القمّة وجثا على ركبتيه منخرطًا في الدعاء. ثمّ باركنا. «انتشروا في الأرض، زوروا جميع الأمم، وبلّغوا الناس جميعًا الخبر السارّ. عمّدوهم باسم الربّ. علّموهم ما علّمتكم. ستتحدّثون بكلّ اللغات، حتّى المحدثة منها. إذا وضعتم أيديكم على المرضى فسيشفون. إذا أمسكتم أفاعي فلن تؤذيكم. واعلموا أنّني سأكون إلى جانبكم كلّ يوم، حتّى نهاية الكون».

ثمّ غادرنا عندما شرع يباركنا مجدّدًا. وتغيّرت ملامحه.

وابيضّت ثيابه أيضًا.

إثر ذلك، شعرنا بحضور مبهم يطوف بمكانه السابق، يتكلّمون ويشوع يجيبهم، ويبتسم لهم كأنّه قابل أصدقاءه القدامى.

أغمضنا جفوننا بشدّة لنستشفّ الضوء الساطع، لكنّنا لم نقدر على تمييز شيء. أمّا أولئك الذين كانوا يتمتّعون بسمع حادٍّ فقد سمعوا موسى وإيليا يتحدّثان إلى يشوع. لم نفهمهما، لكنّنا التقطنا بضع كلمات كان محورها: أورشليم، العهد الجديد، ورحيله.

لكنّ المشهد لم يكن يخصّنا لأنّ نعاسًا ثقيلًا كتساقط برد الربيع أصابنا فاضطجعنا على العشب.

«كم دام سباتُنا؟ لحظة خفيف أجنحة؟ أم دام قيلولة صيفيّة طويلة؟ عندما فتحنا عيوننا مجدّدًا، كان يشوع قد اختفى».

توقّفت شهادات الأحد عشر رفيقًا بغتةً. ولم يتبقّ سوى اهتزاز الصوت من تلك الرؤية الرائعة. عاطفة مّا كانت تجمعنا وتطيل من عمر نشوتنا. إنّها لحظة إيمان، لحظة نشعر فيها بشجاعة على التغيير، والبداية من جديد. توقّف المطر عن الهطول. حفظ كلّ واحد منّا في داخله حرارة الحكاية، تلك الشعلة التي يحافظ عليها، تلك الشعلة التي تصبح ملكًا له. هبطنا الجبل في صمت. لم يكن لدينا غير الصمت للتعبير عن الامتلاء الذي نشعر به جميعنا. كان علينا أن نصيح ونصرخ بلا توقّف.

أعرف أنّ كلوديا صارت قريبة، وأنّني سأقبّلها قريبًا. لا أستطيع أن أروي لك المزيد هذه اللحظة.

أحبّك يا شقيقي العزيز وأرجو أن تكون بخير.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

وجدت كلوديا.

كانت تنتظرني واقفة، ثابتة، وسط الطريق، كأنّها على علم بحضوري إلى هناك. في تلك اللحظة. ظننت أنّني سأطحنها بين

ذراعيّ. من حسن الحظّ أنّها ضحكت قبل أن أخنقها عناقًا. ثمّ منعتها من الكلام بقبلاتي الطويلة.

عندما انتهيت، ضحكت مجدّدًا.

- تبدو مجنونًا.

ثمّ قبّلتني بأنوثتها وغنجها وشفتيها المتمنّعتين. اشتهيت مضاجعتها فورًا.

- لا ترحلي ثانيةً، كلوديا.

- لن أرحل أبدًا. عليك الاعتناء بي الآن. صرت هشّة. أنا أحمل ابننا.

من بيلاطس إلى العزيز تيتوس

ها قد عدنا إلى قيصريّة.

كلّ يوم أتأمّل البحر وأحاول تخيّلك، وأتخيّل روما، ومنزل طفولتنا وحديقة السرو، تختبؤون خلف الأفق، لم يتغيّر منكم شيء، وتنتظرونني. لست أقدّم لك عذرًا عن انقطاع رسائلي إليك لعدّة أسابيع؛ ليس لي عذر واحد. أخي العزيز، ثق أنّني أحبّك حبًّا جمًّا. لكنّ حاجتي اليوميّة إلى الكتابة اختفت؛ انتبهت إلى أنّني كنت أوجّه الرسائل إلى نفسي، وعبرها أتحقّق من انتمائي إلى روما. كنت أرسل بنات أفكاري إلى أرضنا لتقوية جذوري، وأصرخ أنّني غريب عن فلسطين. كنت أخاطبك بصفتك طبعًا، وأيضًا لأنّك أخي،

صورتك مطابقة لأصل صورتي، كأنّ وجهي قد حفر في لوحه رومانيّة. كلّ شيء يبدو اليوم بلا جدوى. ما أهمّية أن تكون غريبًا أو أصيل البلد؟ هل يمكن هذا؟ الاندماج في بلد وفي خصوصيّاته، هو أن تتلاءم مع أيّ صغيرة وكبيرة. والاكتفاء بأرضك يعني أنّك ستزحف. أريد النهوض. ما يهمّني عند الرجال مستقبلًا، ليس أصلهم الرومانيّ، أو الإغريقيّ، أو حتّى المصريّ، وإنّما ما يحملون من طيبة، وكرم، وعدالة، ما الذي يمكنهم القيام به لجعل هذا العالم أفضل.

في اللحظة الراهنة، أواصل واجباتي: أحفظ الأمن، أهدّد، أراقب وأعاقب. قريبًا، حالما يولد طفلنا، سنعود إلى روما، حيث سأروي لتيبريوس بنفسي كلّ ما جرى هنا. لن تصغي لي الدمية المصبوغة الهرمة حتمًا. كلوديا واثقة من الآن أنّ الإمبراطور سيجرّدني من منصبي، ورغم أنّها استغلّت علاقاتها قديمًا لترقيتي، فإنّها لن تهتمّ مستقبلًا. تكوّر بطنها. تتحدّث عن يشوع. وهي تخطّط للمستقبل في سكينة. أعترف أنّني لا أشاطرها هذا الهدوء. لا أودّ العيش على وقع ما حدث عند قمّة جبل تابور. ماذا رأيت في الواقع؟ لا شيء. ماذا فهمت؟ لا شيء. لم ألتق يشوع سوى مرّة واحدة. وهل نسمّي هذا لقاء؟ إنّ اللقاء أمر حاسم، بوّابة مّا، كسر، لحظة فارقة في الزمن، تخلق لحظة قبل وبعد. حسب هذه الشروط، فإنّني لم ألتق يشوع.

ذلك اليوم، جلبوا لي سجينًا، موقف عشته ألف مرّة.. كنت

سيّد الإعدامات، وكان لي أن أقبل حكم الإعدام الذي طلبته المحكمة الشرعيّة أو أرفضه، موقف عشته من قبل أيضًا..

أدان القضاة المتّهم، لكنّه يرى نفسه بريئًا، موقف مستعاد..

هل نظرت إليه فحسب؟ هل تفرّست ملامحه؟

لماذا كان عليّ الانتباه أكثر؟ بوصفي موظّفًا رومانيًّا، كنت أركّز على عملي فحسب. ما الذي سيدفعني إلى إيلاء تلك اللحظة نظرة مختلفة؟

لا نرى الناس على ما هم عليه مطلقًا. نرى منهم زاوية محدودة، مبتورة تحدّدها المصالح الآنيّة. نحاول تقمّص دورنا فحسب في هاته الملهاة الإنسانيّة، ليس أكثر، وهذا صعب جدًّا. كنّا زوجًا من الممثّلين تلك الليلة. لعب يشوع دور خطأ قضائيّ. أمّا أنا، بيلاطس، فلعبت دور الوالي الرومانيّ العادل.

– هل أنت ملك اليهود؟

– لم أقل هذا قطّ.

– هذا ما يقولونه على الرغم من ذلك.

– من؟

– الذي أدانك، من حملك إليّ، مجلس السنهدريم كلّه.

– هذا ظلم. هم من قالوا ذلك، وليس أنا، غرضهم من ذلك تدميري، ويؤاخذونني على تأكيد قولهم.

- بالرغم من ذلك، أنت تدّعي تأسيس مملكة؟

- نعم

- إذن؟

- مملكتي ليست من هذا العالم.

بدا حزينًا، مليئًا مرارةً، قد دمّره هذا الفشل. ثمّ تمالك نفسه وصاح بحماس:

- لو أردتُ أن أصبح ملك هذا العالم، لمنعتُ اعتقالي ووقوفي أمامك الآن. مملكتي خارج هذا العالم.

- أنت ملك إذن؟

- نعم. أنا ملك، ملك عالم آخر، من حيث أتيت، وإلى حيث أعود. أتيت إلى فلسطين لأتحدّث عن الحقيقة. سيستمع إليّ كلّ من يبحث عنها.

- ما الحقيقة؟

قلتها باستخفاف لأتخلّص من هذا الزائر الثقيل. ما الحقيقة؟ توجد حقيقتك، وحقيقتي، والحقيقة الخاصّة بالآخرين. كنت أنشّب الأمور من موقع رومانيّ نشأ على الشكّ الإغريقيّ. تنتمي الحقيقة إلى كلّ من قالها. عدد الحقائق مساوٍ لعدد الأشخاص. القوّة وحدها تفرض حقيقتها عبر السلاح؛ بحدّ السيف، بالقتال، بالاغتيال، بالتعذيب، بالابتزاز، بالخوف، بحساب المصالح، وتفرض على

العقول الانصياع مؤقتًا لعقيدة مّا. الحقيقة في صيغة المفرد انتصار، هزيمة الآخر، هدنة في أفضل الأحوال. لكنّ الحقيقة ليست واحدة؛ لذلك هي لا توجد أبدًا.

- ما الحقيقة؟

قلت هذا وبي ولَهٌ. كنت أهدّئ من روعي. لكنّ هذا اليهوديّ فاجأني، فقد كان ينصت إليّ، وشرع يرتجف.

صُدمت. كان الرجل يرتاب. في العادة يطأ المتزمّتون شكوكهم ويشهرون إيمانهم. على خلاف ذلك، كان يشرع يفكّر بعمق ويخشى أنه قد سار في الطريق الخطأ، ويتساءل ما إذا كنت أنا المحقّ.. ثمّ سيطر على ارتجافه، واستجمع قواه، وحدّق بي قائلًا في بطء:

- بالفعل: ما الحقيقة؟

ردّ عليّ سؤالي. صارت الكرة في ملعبي وصرت أرتعش تحت تأثير الاستجواب وتملّكني الخوف. لم أكن أملك الحقيقة، كنت أملك السلطة فحسب، تلك السلطة الشاذّة التي تقرّر ما هو جيّد وما هو سيء، السلطة المفرطة على الحياة والموت، السلطة الفاحشة.

ران الصمت. ضاعت الكرة بيننا. خرسنا كلانا. ثرثر الصمت بيننا. تحدّث بألف أمر سريع، غامض وغير دقيق. حدّثني الصمت عنّي في شكل غريب. ماذا تفعل هنا؟ سألني الصمت. من منحك حقّ التحكّم في الرقاب؟ من يقودك إلى اتّخاذ القرارات؟ راودني شعور بالاستنزاف. لم يكن إرهاق السلطة الذي خبرته، فهو لا

يحتاج إلى غير الراحة؛ كان سأمًا بطيئًا يخدّر جسدي كالسمّ: سخافة السلطة. ما الذي يميّزني من متسوّل يهوديّ؟ ولادتي في روما ومنصب يبني أسلحة وجنودًا.. هل من قيمة لكلّ هذا؟

- ما قيمة الحقيقة؟

هكذا حوّل اليهوديّ سؤالي عن الحقيقة. ما الذي يستحقّ الاقتتال؟ الموت؟ الحياة؟ ما قيمتها حقًا؟

كلّما ارتفع صوت الصمت، ازداد شعوري بالوحدة. لكن، بشكل عجيب، وجدت لذّة وأنا أطفو على هذه الحالة: صرت حرًّا. أو تحرّرت من القيود والأغلال التي كنت أجهل لدغتها المؤلمة، قيود السلطة لا قيود العبودية..

إثر حلم اليقظة هذا، أثابتني قلق الكهنة خلف الباب إلى رشدي وحاولت إنقاذ يشوع دون جدوى.

ماذا رأيت إذن؟ لا شيء. ما الذي فهمت؟ لا شيء أيضًا.

خلال قضيّة يشوع، حاولت إنقاذ العقلانيّ، كلّفني إنقاذه ما كلّفني من براثن اللغز، إنقاذ العقلانيّ حتّى بصورة غير عقلانيّة.. فشلت! أدركت وجود ما لا يمكن فهمه. هذا ما حطّ من غروري وزاد في جهلي. فقدت كلّ يقين، التحكّم في حياتي، معرفة الرجال، لكن ما الذي غنمت؟ شكوت ذلك إلى كلوديا مرارًا: في السابق، كنت رومانيًا يعلم؛ والآن صرت رومانيًّا يرتاب. كانت تضحك، وتصفّق كأنّني مهرّج.

- الشك والإيمان أمر واحد، بيلاطس. عدم الاكتراث وحده إلحاد.

رفضت أن تصفّقي مع من تشيّع ليشوع على هذا النحو. أوّلا، كان منصبي يمنعني: حلفائي، كهنة المعبد الذين يقودهم قيافا، يتصدّون بعنف لهذه العقيدة الجديدة ويطاردون الأتباع، ونيقوديموس، ويوسف الرامي، وشوزا، وحتّى سيمون المسكين، ذلك المارّ الذي حمل الصليب صدفة. بالإضافة إلى ذلك، لي الكثير من الأسئلة العالقة حتّى أكوّن رأيا صريحًا.

هل تذكر ذلك القول المأثور الذي كان كراتيريوس يكرّره كلّما درّسنا؟ «لا تؤمنوا أبدًا بما أنتم على استعداد للإيمان به»، قارنته مرّات عديدة بإيمان كلوديا أثناء النقاشات التي جمعتنا.

- كنت تريدين تصديق كلّ ما يقوله يشوع يا كلوديا، حتّى قبل أن يثبت أنّه رسول الربّ.

- طبعًا. بي رغبة في أن أؤمن بقيمة الطيّبة، وبأنّ الحبّ ينتصر على الأحكام المسبّقة، وألّا تكون الثروة هدفنا الوحيد، وأنّ للعالم معنى، وألّا نخشى الموت.

- إذا كان هذا رجاء، فهو يعني أنّك تحقّقين حاجة بك، ولا تطفئين ظمأ الحقيقة.

- ما الذي تتطلّبه الحقيقة؟ ترك الملذّات؟ القلق؟ حسب رأيك، هل نصدّق سوى ما لا يعجبنا؟

- لم أقل هذا أيضًا.

- طيّب، هل فهمت؟ ليست الملذّات أو تركها معيارًا للحقيقة. لكن، في هذا الموقف لا يتعلّق الأمر بالتفكير أو المعرفة. الإيمان، بيلاطس، الإيمان!

يتطلّب هذا الإيمان نشاطًا جمًّا. ولا يحتاج حتّى اللحظة إلى أيّ عبادة، على خلاف الطقوس الإغريقيّة أو الرومانيّة، لكنّه يستنزف الروح في تهم، لذلك أظنّ أن لا مستقبل له.

شرحت ذلك لكلوديا مرارًا. أوّلًا، ظهر هذا الدين في مكان غير مناسب؛ إذ تظلّ فلسطين بلدًا صغيرًا ليس له إشعاع كبير على عالمنا اليوم. ثمّ، لم يدعُ يشوع سوى الأمّيّين، وصغار الصيّادين من بحيرة طبريّة وهُم، باستثناء يوحنان، لا يتكلّمون سوى اللغة الأرمنيّة، العبريّة بصعوبة، والإغريقيّة بشكل سيّئ. ما مآل قصّته عندما يموت آخر من شهده؟ لم يدوّن يشوع شيئًا، سوى على الرمل أو الماء؛ ولم يكتب رفاقه أيضًا. بالمناسبة، هل كانوا يجيدون القراءة؟ أخيرًا، نقطة ضعفه الكبرى أنّه رحل سريعًا: لم يجد ما يكفي من الوقت لإقناع كثير من الناس، ولا حتّى الأشخاص المؤثّرين. ماذا لو قصد أثينا أو روما؟ لماذا غادر حتّى الأرض؟ لو كان نجل الربّ كما ادّعى، لماذا لم يخلّد بيننا؟ ويهدينا بالمناسبة. ويجعلنا نعيش الحقيقة. لو خلّد هنا لما ارتاب أحد في دعوته.

سبب تفكيري موجة من المرح لدى كلوديا. وزعمت أنّه لم يكن ليشوع شيء يدفعه إلى البقاء. قدومه لمرّة واحدة كان كافيًا. لم

يكن عليه تقديم دلائل عديدة. لو تجلّى بكلّ وضوح لاضطرّ الناس إلى الركوع أمامه. لكنّه منح الإنسان مسحة من الحرّيّة. هو يضع هذه الحرّيّة في اعتباره لنؤمن أو لا نؤمن كما نشاء. هل نحن مجبرون على الانضمام إليه؟ أمجبرون نحن على الحبّ؟ الحبّ والإيمان لا يكونان بغير رضانا. يحترم يشوع الإنسان. حكايته علامة وعلينا تأويلها. احترامه لنا لا يجعله يجبرنا على شيء. تقديره لنا يمنحنا مجالًا للشكّ. إنّ فرصة الاختيار التي يمنحنا إيّاها لهي عنوان لغز يشوع.

يربكني هذا الخطاب دومًا ولا يقنعني.

تعدّدت رسوم الحوت على تراب فلسطين وغبارها؛ اقتفاها الحجيج بأطراف عصيّهم مثل مفتاح سرّيّ للجماعة التي تتّسع شيئًا فشيئًا.

أعلمني جواسيسي بأنّ أتباع يشوع اتّخذوا اسمًا: النصارى، أتباع المسيح، ذلك الذي اصطفاه الربّ، وأنّهم يملكون علامة يستدلّ بها عليهم، يحملونها كقلادة: الصليب.

ارتجفت فورَ سماع هذه الغرائب. يا لها من فكرة همجيّة! لماذا لم يتّخذوا مشنقة، فأسًا أو خنجرًا؟ كيف يأملون التفاف المؤمنين حول الحادثة الأكثر هوانًا من قصّة يشوع؟

عندما أخبرت كلوديا بذلك، شرعت تفكّر بصوت عالٍ:

– ليسوا على خطأ. حتّى لو كانت العلامة مريعة، فإنّ يشوع

كشف لنا أهمّ الأمور على الصليب. لقد رضي بالصلب حبًّا في الناس. وبعث حيًّا ليرينا أنّه محقّ حين دعا إلى الحبّ، وأنّه يجب التحلّي بالشجاعة على الحبّ في كلّ الظروف حتّى لو تمّ تكذيبنا.

أخي العزيز، لا أودّ أن أشغلك أكثر بقلقي وتفكيري. ستسنح لنا متعة الحديث قريبًا، عندما نعود إلى روما. ربّما تتلاشى أفكاري أثناء الرحلة، وأكتشف، عندما أطأ مرفأ أوستيا، أنّه كان عليها ألّا تغادر فلسطين؟ أنّ المسيحيّة، هذه الحكاية اليهوديّة، قد تذوب في بحرنا؟ أو ربّما تتبعني أفكاري إلى هناك. من يعلم الطريق الذي تسلكه الأفكار؟

ملاحظة: هذا الصباح، قلت لكلوديا التي تزعم أنّها مسيحيّة، إنّه لن يوجَد سوى جيل واحد من النصارى: أولئك الذي شهدوا بعث يشوع. سيندثر هذا الإيمان عند موت آخر شيخ يحمل ذكرى ملامح يشوع وصوته عندما كان حيًّا.

– لن أصبح نصرانيًّا أبدًا، كلوديا. لم أشهد شيئًا، فاتني كلّ شيء، وصلت متأخّرًا جدًّا. لو رمت الإيمان، فعليّ تصديق شهادات الآخرين أوّلًا.

– إذن، هل يمكن أن تكون أوّل مسيحيّ؟

صدر للمؤلف نفسه
عن دار مسكيلياني

ليلة النار

المؤلف: إيريك إيمانويل شميت
البلد: فرنسا
ترجمة: لينا بدر

نصف هتلر الآخر

المؤلف: إيريك إيمانويل شميت
البلد: فرنسا
ترجمة: وئام غداس

انتقام الغفران

المؤلف: إيريك إيمانويل شميت
البلد: فرنسا
ترجمة: أبو بكر العيادي

فيليكس والنبع اللامرئي

المؤلف: إيريك إيمانويل شميت
البلد: فرنسا
ترجمة: سحر ستالة

إيريك إيمانويل شميت

الرجل الذي صلب المسيح

أو الإنجيل برواية بيلاطس

«اختفت الجثة!»، هكذا صدح، منذ ألفي عام، أحدُ جنود كتيبة بيلاطس الروماني بعدما ألقي القبض على يشوع الناصري بجبل الزيتون على مشارف أورشليم واقتيد إلى المحاكمة والموت.

هل كان يشوع يعلم أنه المسيح منذ البداية؟ هل اكتشف نبوّته بعد أن هجر مشغله وأخشابه؟ هل حلم يومًا بالموت مقيّدًا إلى صليبٍ أعدّه نجّارٌ من أجل نجّارٍ آخر؟

يُعيد إيريك إيمانويل شميت تركيب حكاية أيام المسيح الأخيرة مُزيحًا عنها ستار الغموض في رواية استغرقت كتابتها ثماني سنوات، ليجعل من «الرجل الذي صلب المسيح» إنجيلاً خامسًا يكشف بجرأة عمّا غاب في الأناجيل الأربعة السابقة.

ينتصر شميت للحبّ والإيمان في مواجهة القدر الغاشم والخوف والريبة الخانقة، ويضعنا أمام حقيقة صادمة: بالحبّ وحده يواجه البطل جلاّده إلى النهاية، أمّا الموت فليس إلاّ بداية...

وليد بن أحمد